موسوعة الأديان القديمة

كتاب الموتى الفرعوني

د. كامل سعفان



دار الندى



كنانة الله يا فرعون

الطبعة الأولى
١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م

دار الندى
٢٩ عمارات حدائق العبور - صلاح سالم - مدينة نصر
تليفون وفاكس : ٤٠٣٥١٣١

موسوعة الأديان القديمة



د. كامل سعفان

دار الندى

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة فرعـــون قـد تحتاج إلى تقييد ، حتى لا يمتد المعنى إلى يومنا هـذا ، لـو أننا صرفنا المفهوم الفرعونى إلى الطغيان ، وتجاوز الحدود الإنسانية إلى الإلهية المدعاة ، آخذاً بما جاء فى القرآن الكريم عن فرعون موسى الذى ﴿ **اسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ** ﴾ ، ثم أعلن فى الناس : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي** ﴾ ، ولما كان ثمة أكثر من إله مزعوم قال لهم ﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ** ﴾ .

فرعون موسى هذا وغيره من ذوى الأوتاد : ﴿ **الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد** ﴾ - لا يمثلون تاريخ مصر ، وإن صاروا رمزاً شائعًا لهذا التاريخ .

إن الحضارة التى هى أسبق حضارات العالم ، وإن التفوق فى جميع مجالات الحياة ، فنونًا وصناعات وأبنية وآدابًا وقوانين وعادات وتقاليد - لا يمكن أن تتحقق فى زمن الطغاة ، لأن الطغيان يغُلّ القدرات ، ويقتل الملكات والمواهب ، ويكبح جماح الشهوات الراغبة فى إبداع الحياة ، وفى الحياة المبدعة . . قد يحدث فى زمن الطغاة بعض مظاهر الحضارة ، لكنه استمرار لما تَرسب فى الوعى والوجدان من أزمان خالية ، وهو ما يسمى بقوة الانطلاق الذاتى .

إن كلمة فرعون فى المصرية القديمة - كما يقول **جاردنر** - هى (بر - عو) ، وتعنى البيت الكبير ، وكانت تشير أحياناً إلى القصر الملكى ، ثم على الملك نفسه ، باعتباره ساكن القصر ، كما هو شأن لفظ (الباب العالى) الذى يطلق على حكومة العثمانيين من سلاطين القسطنطينية - مصر الفراعنة ص٧١ .

واذا وضعنا فى الاعتبار أن مصر منذ ماقبل التاريخ المدون مهجر كثير من الشعوب والأجناس : سودانًا وأحباشًا ونوبيين وليبيين ومغاربة وعرباً ، ومن شعوب دجلة والفرات وآسيا الصغرى وما فوقها ، وجزر البحر المتوسط واليونان .

وإذا عرفنا أن هذه الشعوب كانت مزيجًا من شعوب أخرى تدفعها الحاجة إلى المراعى وإلى مناخ أفضل ، وإلى الاستيلاء على ثروات الآخرين .

إذا كان الأمر كذلك ، سواء أكانت مصر بوتقة انصهار ، أو كانت لها القدرة على الطرد بقدر القوة على الامتصاص - فإن (الفَرْعَنة) ليست صفة أصيلة فى مصر . . قد يكون مردها إلى تعلق المصرى بالأرض ، وإلى حاجة الأرض إلى أنظمة للرى تمسك الحكومة بمفاتيحها ، وقد أدى طول ممارسة المصرى للفلاحة ، واتخاذه الأرض أما وأبا ، وممارسة الحاكم التحكم فى مصادر المياه ومجاريها وكمياتها - إلى ولاء الفلاح وخضوعه ، وإلى تسلط الحاكم وتجبره .

لكن الفلاح بقى على وعى بقدراته . . ولعل فترة الفيضان التى كانت تطول أشهراً ، كانت تعينه على المراجعة والتأمل ، وحساب الأرباح والخسائر ، وتقويم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

من هنا اكتسب الحكمة و (الدهاء) ، ووضع قواعد السلوك الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ، وكان إبداعه الفنى والصناعى ، واشتهر بالعمل الجماعى ، بل كان العمل الجماعى ضرورة حياة ، فى مقاومة الفيضان ، وفى الزراعة ، وفى مقاومة الآفات ، وفى الحصاد ، وفى التصدى للغزاة والمغامرين .

ولقد دون التاريخ المصرى بالكلمة والصورة كثيراً من مظاهر التعاون ، سلمًا وحربًا ، كما دون التاريخ المصرى أحداثاً ضد المتجبرين من أجل الحصول على حقوق العاملين . . ثم إن التاريخ المصرى مر بأكثر من حقبة اضطرابات ، ليس بسبب قصور الحاكم فقط ، بل بسبب ضيق الشعب به ، والرغبة فى الخلاص منه .

* * *

من هنا فإن عنوان الكتاب لايعنى تاريخ الطغيان فى مصر ، وإن كان يشير إليه ، ولايعنى الوقوف عند بعض الملوك ، مادام لفظ (فرعون) يعنى (البيت الكبير) ، وهو فى الوقت نفسه يؤكد مفهوم العمل الجماعى الذى يدار عن طريق (صاحب القصر) ، وهو ما لايزال معمولاً به حتى اليوم ، إذ تخضع جميع الأجهزة والمؤسسات لتوجيه أو لإرادة من يجلس على القمة ، سواء أكان ملكاً أو عمدة أو (خولى) زراعة ، وهو نظام قادر على تخليق البكتريا القاتلة ، كما أنه قادر على التحكم فى عجلة الإنتاج ، من غير نظر إلى تقويم عَرق من يديرون هذه العجلة ، وإلى أين تذهب ثمرة هذا الإنتاج .

ولعل ثمة توازنًا يحدث بين القدرة على الإنتاج والقدرة على الاستهلاك ، كما يحدث التوازن بين الفيضان والتحاريق ، فقد تعلمت الأرض والفلاح من هذا التوازن قدراً كبيراً من الصبر ، وقوة الاحتمال ، دخل أحياناً هذا القدر فى باب الفضائل المرذولة ، مع أنه هو الذى حمى البلاد من كثير من النكبات ، وإن مكّن بعض الحاكمين و (نمور الورق) من ادعاءات كثيرة باطلة .

لهذا كله أجد أن عنوان (كنانة اللّه يا فرعون) يعبر أدق تعبير عن أبعاد هذا التناول ، من حيث إن (الفَرْعَنَة) صناعة مصرية كبقية الصناعات ، لأن (فرعون) لم يستخف قومه إلا وقد استخفه قومه ، وما زال التعبير بالسلب أشنع التعبيرات ، ولعل الدوائر الانتخابية الفارغة خير دليل .

إن انصراف الفلاح إلى عمله ، غير آبه بهذا المتعنت الغبى ، هو اعتراف صريح بقشرية هذا المتعنت ، وأنه لايلبث أن يجف ويسقط وحده ، لأنه يحمل فى كيانه عوامل موته ، والبقاء دائماً لأولئك الذين لايفتئون ينتجون ، ويتمتعون بالقدرة على الإنتاج ، وإن حُرموا ثمرة هذا الإنتاج .

إن هذا المستهلك الذى لاينتج ، وإن تجبر ، لايعدو أن يكون آفة من الآفات ، كالجراد ودودة القطن ، لاتلبث أن تموت أو تسقط فى المحارق ، أو يطردها ضجيج ضربات الصفيح ، وتظل الأرض والفلاح فى العمل الدءوب الخصيب ، وتظل السنابل وكيزان الذرة ولوزات القطن تتسابق فى نور اللّه .

إن قول الرسول الكريم (**إذا قامت القيامة وكان فى يد أحدكم فسيلة فليغرسها**) يرفع من قيمة هذا السلوك ، فالعبرة دائماً بالعمل ، وبإتقان العمل ، أما مابعد ذلك فلا يتجاوز حدّ (الفضلات) ، وحسب الطغاة والطفليين أنهم منغمسون فى هذه (الفضلات) !!

تحذيـــــــــــر ..

لابد من الوقوف عند حقيقة لاحيلة لنا فيها ، وهى أن التعرف إلى التاريخ المصرى القديم تعرفاً صحيحاً ، جامعاً مانعاً - حلم ليلة صيف .

ذلك لأن جميع معابد الوجه البحرى قد ضاعت تقريبًا ، وكثيراً من معابد الوجه القبلى - إرمان - ديانة مصر القديمة ص ١٠٣ .

وكما يقول جاردنر - مصر الفراعنة ص ٧٢ - يجب ألا ننسى مطلقاً أننا نتناول حضارة تمتد آلاف السنين ، لم يبق منها سوى مخلفات ضئيلة ، وأما مايذاع فى فخر أنه تاريخ مصرى فليس فى الواقع سوى مجموعة من الخرق البالية .

ويقول ص٧٥ : إن ملوكًا معينين لم يأخذوا الأحجار بغير اكتراث من مبانى أسلافهم فحسب ، بل إن كثيراً من النقوش القيمة والمناظر اختبأت نتيجة لذلك وراء جدران المعبد الذى اصطنعوه لأنفسهم ، بل إنهم لم يترددوا فى أن ينسبوا لأنفسهم أعمال البطولة أو التقوى التى اختلسوها - من غير شك - من آخرين .

ومن البديهى - كما يقول الدكتور منير مجلى فى كتيّبه (الجزيرة المسحورة ص ٩ و ١٣ و ١٨) - آن ماوصل إلينا من البرديات التى حفظت هكذا فى المقابر عدد ضئيل ، وذلك لعوامل عدة ، منها يد الزمن التى جعلت هذه الأوراق تَبْلى ، ويد الإنسان الذى لم يكن يعرف قيمة هذه الأوراق ، فاستعملها - من عهد غير بعيد - فى إشعال النار للتدفئة أو لطهو الطعام .

وهناك كلمات كثيرة لاتساعدنا حصيلتنا من النصوص على أن نعرف معناها

على وجه التحديد ، وكذلك فإنه - رغم الضوء الذى تلقيه اللغة القبطية على الفقه والنحو القديم - مازالت معلوماتنا عن كثير من التركيبات اللغوية واللفظية تحتاج إلى دراسة طويلة .

إن البردى المكتوبة عليه هذه النصوص نالت منه يد الزمن كثيراً ، فبهت لون الحبر ، حتى ضاع أو كاد ، كما حدثت فيه فجوات اختفى ماكان مكتوباً عليها ، مما يكسر من سياق الكلام .

وقد أكد ديودورس - مصر الفراعنة ، جاردنر ، ص ٢٢/ ٢٣ - أن اللغة الهيروغليفية ليست نطقية ، بل هى مجازية ، على وجه التحقيق ، وقد تابعه فى هذا «خايريمون» معلم نيرون ، فى كتاب لم تصلنا منه سوى مقتطفات موجزة .

وقد وصلنا عن الهيروغليفية كتاب من يدعى (حورابوللو) ، وهو أديب مصرى من القرن الثامن للميلاد ، جاء فيه عن الروح : (وأكثر من ذلك فإن الصقر يوضح مكان الروح ، من دلالة اسمه ، ذلك لأن الصقر يدعى لدى المصريين « بابيث» ، وحين تقطع هذه الكلمة نجدها تعنى الروح والقلب ، ذلك لأن كلمة «باى» تعنى الروح ، و«يث» تعنى القلب ، والقلب عند المصريين هو وعاء الروح ، ومن ثم كان الاسم فى تركيبه يعنى الروح فى القلب) .

والواقع أن بعض الحقيقة يكمن فى هذه الفقرة ، لأن كلمة «الروح» كانت تكتب لدى المصريين بعلامة تمثل طائراً ، لكن التفسير المجازى مُضَلِّلٌ لأبعد الحدود .

ولاشك فى أن الاعتماد على قراءة الرُّسوم ، وهى ذات دلالات مشتركة ، وبخاصة أنها صور متشابهة ، مع تداخل النصوص واختلاف مصادرها ، فى لغة بدون حروف ساكنة تضبط النطق وتحدد المعنى . . يذهب بالظنون مذاهب .

ثم إن التعرف على هذه اللغة الهيروغليفية تم عن طريق نص كتب فى عهد بطليموس الخامس ، على حجر جمع بين لغات ثلاث : الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية ، والموازنة بين لغة معروفة وأخرى شبه معروفة وثالثة غير معروفة يترك مجالاً كبيراً للقفز فوق الحقيقة .

كل هذا جعل علماء المصريات يضربون فى أكثر من متاهة ، ودفعهم إلى سد فجوات عن طريق الاستنتاج والحدس والتخمين ، وجرأهم على ليّ وتحريف بعض المفاهيم ، وصولاً إلى مالم يصل إليه الآخرون ، وأتى آخرون فسلّموا واستسلموا ، وأخذت الحقيقة تدور فى أكثر من متاهة .

وها نحن نجد عالم المصريات الكبير السير إرمان (ديانة مصر القديمة ص١٣) يقول (ومن الغريب أن المصريين لم يستطيعوا أن يجمعوا كتابًا مقدساً يشبه إلى حد ما واحداً من كتبنا المقدسة التى نعتبرها نبراساً لنا يحدد الكمالات الخلقية للبشر ، ومن أجل ذلك لم يكن الدين المصرى – فى يوم من الأيام – ذا صيغة محددة ، ولم يتصف هذا الدين بصفة العقيدة ذات الأصول الثابتة ، كما أنه لم يحاول فى يوم من الأيام أحد الحكماء أو الرسل أن يرجع إلى هذه الديانة ، وأن يتفهم أصولها) .

وكأن هذا العالم الكبير لم يمر بخاطره ما أصاب التراث المصرى القديم ، وما أصاب علماء المصريات من صعوبات ترجمة النصوص المصرية التى وجدت ، وكأنه لم يقرأ شيئاً فى نصوص «كتاب الموتى» التى لايمكن أن تصدر إلا عن معرفة بقانون ثابت مكتوب ، أو بكتاب مقدس جار عليه الزمان .

أما كان أولى بهذا العالم الكبير أن يسأل نفسه عن «صحف إبراهيم» ، التى نزلت عليه بعد نشأة الديانة المصرية بقرون طويلة ؟

* * *

لهذا كله ، أرجو من القارئ الكريم أن يكون (كيّسا فطنا) ، وأن يضع بين يديه دائماً أن التاريخ أوسع الأكاذيب ، وهى مقولة صادقة عن المسار التاريخى كله ، لأن الأباطرة مايزالون حريصين – إلى اليوم – على كتابة التاريخ بتوجيهاتهم ، أو إعادة كتابته بأهوائهم ، بحيث يعلل أمراضًا خبيثة ، ومن ثم وجب الانتقاء بعد طول أناة ، والحكم بعد طول مقارنة واختبار .

ليست كل كلمة مكتوبة يسهل الوثوق بها ، وسنرى من خلال هذه الدراسة أن كثيرين من علماء المصريات روّجوا أخبارًا كاذبة عن المعتقدات المصرية ، كما

روج كثير من المستشرقين أخبارا كاذبة عن التراث الإسلامى ، وعن معتقدات الدول الأفريقية والآسيوية التى نزحوا خيراتها .

إن الذين يشغلون سماء العالم عن الإرهاب الإسلامى ، ليضربوا اقتصادنا ، ويجعلونا نخرّب بيوتنا بأيدينا ، هم أنفسهم الذين يزودون هذا الإرهاب بالمال والسلاح ، وهم الذين يحتضنون هذا الإرهاب ، ويتولون تدريبه وتوجيهه ، وهم أنفسهم الذين لاتجرؤ على السير فى شوارعهم فى ليل أو نهار ، بسبب الجريمة المنتشرة فى كل مكان ، وبسبب العداوات العنصرية المتنامية .

لهذا وجب أن نثق بتراثنا ، قبل أن نثق بتراثهم ، وأن يكون مردُّنا إلى سلامة منطقنا قبل الوقوع فى براثن منطقهم ، إنهم يتحدثون بأكثر من لسان ، ويتحركون بأكثر من سياسة ، وفى أكثر من سرداب !!

البدايـــــــــة ..

الحديث يطول عن « آدم » فى الفكر الدينى ، وفى الفكر الأسطورى .

وقد يتحدث التراث الإنسانى عن أكثر من آدم ، بل عن ألوف ، وقد يتسع الحديث لأن يكون « آدم » الذى ورد فى الفكر الدينى سبقه إلى الوجود سلسلة آدمية فى تاريخ التطور البشرى .

وتبعاً لهذا قد تصل أولية الإنسان إلى نصف مليون ، أو مليون ، أو خمسة ملايين من الأعوام ، وقد ترجع صلة الإنسان بالنيل إلى مائة ألف عام ، وترجع بداية الحضارة المصرية إلى خمسة عشر ألف عام قبل الميلاد .

إن العلم لايملك غير الفروض والتخمينات ، لأنه لايملك الأدلة المادية التى تنهض بما هو من الإرهاصات التى تمهد لما يسمى علماً ، وإن جهد الباحثين يدخل فى دائرة المحاولات (الظنية) التى تقيس ما لاتعرف على ماتعرف ، وبخاصة أن التطور الإنسانى فى المرحلة (التاريخية) ذات الأدلة المادية ، لايمثل - خلال خمسة عشر ألف عام - أكثر من خطوط ضبابية فى نطاق العلاقة بين الإنسان والطبيعة ، وليس بين الإنسان والإنسان .

وقد ولّد تتبع العلاقة بين الإنسان والإنسان خلافات عن طبيعة الإنسان ، هل هو خيّر بطبعه أو شرير ؟ هل كان نزوعه إلى الخير أو الشر بدافع الخوف والطمع ، أو بسبب من تعاليم دينية أو وساوس شيطانية ؟

واصطنع الفلاسفة من طبائعهم وتأملاتهم أحكاماً لاتخرج عن كونها مجرد آراء أجادوا التعبير عنها ، أو أجادوا لفّها فى أغشية ذات بريق ، وهذه الآراء

تختلف من فيلسوف لآخر ، ولأنها إفرازات فردية فهى تظل تدور مع الهواجس والظنون .

ومن طريق الهواجس والظنون قد نرى الإنسان الأول - منفرداً ، أو فى قبيلة - يعانى أشد المعاناة من عدم القدرة على تفسير الظواهر الطبيعية ، ومن صعوبة حماية نفسه من أخطار كثيرة تتربص به ، أو تدق بابه ، فيبحث عن (القوة) التى تقف من وراء هذه (المخاوف) ، أو التى تستطيع التغلب عليها ، متمثلاً إياها فى صور مختلفة ، يشكلها (خيالُه) من البيئة التى يعيش فيها ، ومن ثم فهو يحاول الاقتراب من هذه (القوة) بالابتهالات ، وبألوان من الأدعية والتعاويذ والطقوس ، وقد يستعين بـ (هيكل) هو واسطة بينه وبين (القوة) القادرة ، وقد يأخذ هذا الهيكل شكلاً من أشكال الطبيعة ، يوحى بالقدرة أو التميز . . قد يكون إنساناً كاهناً أو ساحراً ، أو ملكًا ، استطاع بقدر من المهارة والدهاء ، أن يستحوذ على مشاعر (الآخر) أو على (فكره) .

وقد يحدث لقاء حقيقى بين هذا الإنسان وبين (القوة) القادرة عن طريق (الرؤيا) ، وعن طريق (الإلهام) . . وقد يتحقق (الوحى) بوساطة قوة أخرى قادرة على التشكل ، أو قادرة على نقل (الرسالة) .

من هنا يكون (الدين) الذى يقوّم السلوك ، ويقيم الأسس ويصدر التعليمات ، ويحدد الثواب والعقاب .

ومع مرور السنين يأخذ (الدين) - بفعل (التحولات) الإنسانية - صورة (مغلّفات) أسطورية ، أو (تجريدات) ورموز ، سرعان ماتتداخل أو تتخالف ، وسرعان ماتحمل من المعانى مايبعد بها عن البدايات والغايات .

ولعل سبب وقوفنا حائرين أمام (الرموز) الإلهية فى الديانات القديمة - مصرية ، وسومرية ، وبابلية ، وهندية ، وصينية ، ويونانية - يرجع إلى البعد الزمنى بين الرمز وتفسيره ، بل إن التطور الثقافى هو أهم أسباب (الحيرة) ، أو الوقوف موقف (التعالى) والرؤية (المغايرة) .

انظر مثلاً إلى ماسمى (أساطير) عن الثلاثى المصرى (إيزيس وأوزيريس

وحورس) ، وعلاقته بالإلهَيْن « شو » و « تفنوت » ، وعلاقة « شو » بالإلهَيْن « نوت » و « جب » ، ثم الانتقال بحورس إلى (فكرة وجود الإله الأزلى الكونى ، منذ بدء التاريخ المصرى) ، وأن حورس (ظهر فى الوجود البدائى قبل أن تخرج إلى الوجود السماء والأرض) . . هذا مع شيوع علاقة أوزيريس بالطبيعة الخيرة ، و « ست » بالطبيعة الشريرة ، وإيزيس بالقدرة على إعادة الحياة ، وانتقال هذه الأفكار إلى ديانات فارسية وبرهمية ، بل إلى المسيحية كذلك .

وقد يأخذ (رع) مكان (حورس) ، وتتوحد فيه آلهة الأقاليم الاثنين والأربعين ، فنسمع عن (سوبك رع) ، و (آمون رع) ، ثم يتحول (رع) إلى (آتون) ، وقد يتشكل ثلاثى من (الملك ورع وآتون) ، كما حدث سنة ١٣٧٠ ق.م ، وقد يصبح الثلاثى من « رع حراختى » صاحب هليوبوليس و «آمون رع» صاحب طيبة ، و « بتاح » صاحب منف .

إنها تطورات سياسية تتبعها تطورات دينية ، أى إن الدين صار تابعاً للسياسة ، مع احتفاظ الكهنة بالدور الأول فى هذه التشكيلات .

وهذا لايعنى أكثر من أن الدين حاجة اجتماعية ، نشأت وتطورت ، واتسعت وانحسرت ، وساء فهم رموزها أو خفى ، تبعاً لتباعد الزمن ، واختلاف الثقافة ، وكذلك تبعاً لتسلط بعض الملوك ، وتآمر بعض الكهنة ، وتطفل بعض المفكرين .

وحسبك أن الملكة حتشبسوت أرادت أن تجعل لها نسباً (إلهياً) ، فزعمت أن الإله « أمون رع » أنجبها من الملكة أحموس ، ثم أمر « اخنوم » أن يصوغها على عجلة الفخرانى (فى أحسن تقويم) ، وجاءت الإلهة حتحور (البقرة) فقدمتها إلى أبيها « آمون رع » ، وقامت بإرضاعها ، وجاء رمسيس الثانى فصنع مثلما صنعت ، وبهذا أصبح الفرعون إلها أو ابن إله ، وحين يموت يصعد إلى السماء هو وحاشيته من الكهنة ورجال القصر ونسائه ، أما الرعية البائسة فينقلها الموت من شرق الأرض إلى غربها فقط لاغير .

ومع احتمال أن يكون أمنحوتب الرابع (أخناتون) قد استفاد من تجربة (حتشبسوت) ، فقد جاء بعض المفكرين وخلعوا عليه النبوة والوحى ، وزعم آخرون أنه أول داعية إلى (التوحيد) ، مع أن شواهد التوحيد تمثلت من قبل فى «حورس» و « رع » . . وذهب آخرون بالتوحيد إلى الألف الرابع قبل الميلاد ، معتمدين على (مسرحية منفية) تشيد بعظمة مدينة منف وسيادتها .

ومهما يكن من شئ فإن هذه (الأساطير) الدينية التى وجدت بشكل أو بآخر فى حضارات معاصرة ، أو سالفة - لاتمثل إلا رموزاً طال بها العهد ، فصعب معها التفسير .

يقول ولز فى (معالم التاريخ الإنسانية مح ١ ص ١١٨ / ١٢٥) عن نشأة بعض الطقوس الدينية : (نشأت فى أذهان الناس - من قديم الزمان ، بسبب إلمام الأمراض المعدية بهم إلماماً لم يكونوا يعرفون له سبباً - فكرة النجاسة ، وفكرة الإصابة باللعنات ، وفكرة تجنب أماكن خاصة ، وأشياء ، وأشخاص ، فى أدوار خاصة من أدوار الصحة) .

(وتظهر إلى جوار فكرة النجاسة فكرة التطهر وإزالة اللعنات ، وتتم عملية التطهر بإرشاد الحكماء من المسنين أو العجائز المحنكات ، وفى مثل هذا التطهر تكونت بذور الكهانة والسحر . . ولرفع اللعنات وإزالة الشرور كان لابد من فعل أشياء ذات قوة وبأس ، تتمثل فى القتل وإراقة الدماء ، ومن هنا نشأت فكرة الضحية والقربان) .

(وبعد أن صارت الزراعة أهم الأحداث الاقتصادية ارتبط البذار فى الذهن البشرى بالقربان والتضحية) .

(وقد تتبع السير ج . ج . فريزر تطور هذا الترابط ، وواصل بينه وبين فكرة الأشخاص المخصصة للقربان ، الذين يقتلون فى أوان البذار ، وفكرة طبقة من الناس مطهرة تطهيراً خاصاً يؤهلها لقتل هؤلاء الضحايا ، وهى طبقة الكهنة ، وفكرة « عشاء مقدس » أو وليمة طقوسية ، تأكل منها القبيلة أجزاء من جسم الضحية ، لكى تأخذ نصيبًا مما للقربان من مزايا ، وتتقمص تلك المزايا أوثق تقمص) .

(ولفظ الدين فى الإنجليزية Religion مأخوذ من الكلمة اللاتينية Religate ، ومعناها « الربط » ، لم يكن ذلك بالشئ البسيط ولا المنطقى ، بل كان طائفة معقدة مختلطة من الأفكار التى ينظر بها الناس إلى الكائنات والأرواح الآمرة والآلهة : ومن جميع ضروب « مايجب وما لايجب » ، وقد نمت الديانة كما تنمو كل مصلحة إنسانية) .

(وحدث فى العصر الحجرى القديم « الثانى » والعصر الحجرى الحديث تطور غريب ، هو التنكيل بالنفس ، إذ شرع الناس يقطعون أجزاء من أجسامهم ، بجدع الأنوف ، وصلم الآذان ، وجذم الأصابع ، ونزع الأسنان ، وماإليها ، وأخذوا يعلقون على هذه الأعمال كثيراً من الأفكار الخرافية . . ويمر الأطفال اليوم فى دور مشابه لهذا ، أثناء تطورهم العقلى ، فقد تمر بمعظم البنات الصغيرات فى حياتهن مرحلة يجب ألا يتركن فيها بمفردهن ، ومعهن مقص ، خشية أن يقصص شعورهن ، وما من حيوان يفعل شيئاً من هذا القبيل ، وهذا أيضًا أمر بقيت آثاره فى منسك الختان فى الديانتين اليهودية والإسلامية) .

* لكن قصة الغراب الذى هدى قابيل إلى دفن أخيه دليل على أن الإنسان تعلم كثيرا من الحيوان الذى سبقه إلى الحياة ، وإلى تكوين علاقات اجتماعية . . فمما لايسهل إنكاره أن آدم وحواء قلدا الحيوان فى أول لقاء جنسى ، وتبع هذا التقليد تتبع العلاقات الحيوانية فيما هو من الحمل والولادة والرضاعة ، وفيما هو من الحيض والنفاس ، وتربية الأبناء ، بل وفيما هو من العلاجات العشبية . . وهذا التتبع لايغفل المقارنة بين أعضاء التذكير والتأنيث ، ولما كانت أعضاء التذكير عند الحيوان بدون قلفة أو غرلة ، فثمة مايدعو إلى إزالة هذه القلفة عند الإنسان ، للتعرف على نتائج الإزالة ، وبخاصة أن هذه القلفة – مع إهمال النظافة – كانت تسبب متاعب لم تكن تراعى عند الحيوان ، ثم إن من اليسير تبين عدم جدوى هذه القلفة عند الإيلاج ، إذ كانت تنكمش أحياناً ، فتسبب للمرأة قدراً من الضيق ، ولعلها هى التى سعت إلى التخلص منها ، مستدلة بحرمان الحيوان منها .

وإذا كان قد خيف على الصبية – فى دور المراهقة – من الأدوات الحادة ،

فليس بسبب مواريث التخلص من الأطراف تقرباً إلى اللّه ، بل بسبب الاضطرابات النفسية والعصبية التى تصاحب هذه المرحلة ، وأيضاً بسبب الانفعالات والتصورات التى تزين تقليد الآخرين ، فالمراهقة تقلد امرأة ناضجة ذات تأثير خاص ، والمراهق يبحث عن مظاهر الرجولة ، متعجلاً الظهور بها بين رفاقه .

* ولعله عن طريق السحر والكهانة نشأت طقوس الموت والدفن فى الديانة المصرية ، (فلقد نتج التطور المرموق للقبور والشعائر الجنائزية فى مصر – خلال الألف الثالث قبل الميلاد – عن نمو واسع النطاق لفكرتين أساسيتين : كانت الأولى عقيدة أن الأموات يواصلون بعض أشكال الوجود الطيفى ، يمكن أن يكونوا به مصدر خطر أو خير لأخلافهم من الأحياء ، كما كانوا أنفسهم فيه عرضة لمختلف الأخطار . . وكانت الفكرة الثانية ماأظنه الدافع البشرى الطبيعى لإمداد المتوفى بما يخصه ، ومايحتاج إليه ، وماكان يحبه على الأرض ، حتى يتمتع به ويستخدمه طالما وكيفما استطاع) .

(لقد نشأ تطور هاتين الفكرتين الأساسيتين فى المقر الملكى ، وليس فى أى منهما أن الروح أو النفس البشرية خالدة ، وربما كان اتخاذ البناء للقبور ، وعمق غرفة الدفن ، بما فيها من ودائع ، وإقامة القرابين الدائمة ، والأدعية ، وصور الحياة اليومية على الحوائط ، والشعائر الجنائزية ، والتمثال أو التماثيل للمتوفى ، وغير ذلك من السمات ، بما فيها التحنيط – مُعينًا على الهدف الوحيد بتهدئتهم ، وإمدادهم بما اعتادوه خلال حياتهم) .

(ولما كانت هذه العادات والهدايا والقرابين مقامة من أجل الأبدية ، فلقد تطورت تدريجياً فكرة الحياة الخالدة ، فيما وراء الممات ، وفضلاً عن ذلك فلقد كان القبر يبنى إلى جوار الهرم ، ولما كان الهرم مسكناً لجسد الإله العظيم ، وهو الملك الإله المتحول ، فلقد نطقت نقوش القبور عن الرغبة فى أن يقبل المتوفى الذى كان خادماً صادقاً لمليكه أثناء حياته ليكون فى رحابه ، وأن يمكّن من «المسير على سبله المقدسة») .

(وكان هدف نصوص التوابيت إعطاء هؤلاء الذين استكتبوها على توابيتهم

قوة على أن ينالوا إما شكلاً من الوجود فيه قدر من النعيم فى الأخرة ، وإما - وهو الأرجح - أن ينالوا تأليها من أجل حياة أبدية ، لم تكن محتوياتها أسطورية فقط ، فكثيراً ما أضيفت حواش إلى المتلوات الفردية ، لإعلام الميت لأى غرض سحرى تتلى ، وفضلاً عن ذلك فقد كانت هناك متلوات أنسب للأحياء منها للأموات ، وفيما عدا تلك الأخيرة فإن الحواشى المضافة إلى المتلوات إنما تمثل نظرة التشاؤم السائدة بالنسبة للوجود فى الآخرة ، إذ يوصَى بها على سبيل المثال - لإبقاء عمل القلب وسائر الأعضاء ، والحصول على الهواء الذى يتنفسه ، وعدم المشى مقلوباً ، أو أكل الغائط ، وتجنب موت آخر ، ثم متلوات أخرى جُعلت لتحويل النفس إلى أى شكل ممكن ، منها على سبيل المثال التحول إلى الصقر الإلهى ، وإلى الإلهة حتحور ، أو إلى تمساح ، أو لهب ، أو « إلى أى إله شاء ») - أساطير العالم القديم - كريمر - ص ٤١/ ٤٣ .

ولاريب فى أن ماجاء فى « متون الأهرام » ، وفى « كتاب الموتى » ، وفى غيرهما من النصوص الدينية لايخرج عن صناعة الكهنة السحرة الأدعياء ، ومن ثم كانت معجزة موسى - عليه السلام - قائمة على هذا اللون من (التحويل) المبهر ، كأن تصبح العصا حية تأكل مايأفك سحرة فرعون ، وأن تخرج يده من جيبه بيضاء من غير سُوء ، وأن يضرب البحر بعصاه فينفرق كل فرق كالطود العظيم .

لقد استغل الكهنة السحرة بساطة الشعب وتلقائيته وتعلقه بالإله الشمس ، والإله الربيع ، والإله النيل ، بكل ماهو مصدر الخير والحق والعدل ، بل بكل ماهو مصدر الشرور كذلك - فصاغوا له وسائل القُربى والنجاة فى الدنيا والآخرة ، ووثقوا علاقة الشعب بالآلهة ، عن طريق الحيل والتعاويذ ، وعن طريق سيطرتهم على الشعب سيطروا على الحكام ، وجعلوا بينهم وبين الآلهة نسبًا ، وأكثروا من صناعة الآلهة ، محلية وعالمية ، ليتسع بذلك نفوذهم ، وتتسع مدخراتهم ومداخلاتهم .

وهذا هو شأن الكهنة مع كل دين ، حتى مع الأديان السماوية ، فكيف والدين وآلهته من صناعة هؤلاء السحرة الكهنة ؟!

إن (السحر) محاولة للسيطرة على المادة من خلال الروح ، واستغلال الطقوس الدينية لأهواء دُنْيوية ، فهو يعد تابعًا للدين ، مستغلاً له ، وليس سابقًا عليه .

لقد ارتبط الدين بالرجاء والخوف ، وقامت الطقوس للتقرب إلى القوى الفاعلة فى الكون ، وجاء المحتالون والأذكياء الشريرون لاستغلال هذه الطقوس ، واصطناع طقوس أخرى متولّدة عنها ، ليتحقق سلطان الفرد على الجماعة ، ومن هنا لبس الساحر - على مدى تاريخ طويل - مسوح الكاهن . . ولأن السحر كان ذاتى الحركة والهدف فقد انفرد - فى مرحلة من مراحل التطور - عن الكهانة ، وأدى هذا الانفراد إلى وقوع الصدام بين السحر والكهانة ، لأن شعور الساحر بالاستعلاء وبالقدرة على العمل وحده ، وموقفه المتعجرف من القوى العليا ، وادعاؤه الوقح بالسيطرة والتسلط - نفّر منه رجال الدين ، وخشوا منه على مملكتهم المؤسسة على طاعة الجماهير وعلى اقتناعها بدورهم وسطاء لدى الآلهة ، يستنزلون المنّ والسلوى ، ويفتحون طرقاً إلى آخرة رضية مرضية ، ويغلقون أبواب الشياطين .

وهذا الفصل بين السحر والكهانة لم يكن إلا فصلاً (وظيفياً) ، من واقع الأَثَرة ، والرغبة فى الاستئثار بالثمرة ، مع أن كلا من السحر والكهانة نشأ من موقع (العَيْلة والتطفل والادعاء والاستهواء) ، ثم افترقت الطرق ، وتشابكت ، وتشابهت ، وتخالفت ، واستعان كل فريق بما ينتج الآخر من حيل وتعاويذ . . وإذا كان الكهنة قد سيطروا على المعابد ، واتخذوا من حجاب الموت ستاراً لكثير من طموحاتهم التى نصبوها مسارح لعرائس الآلهة وابتهالات الموتى - فإن السحرة ادعوا لأنفسهم (القدرة على إخضاع أعظم الآلهة لرغباتهم ، بل إنهم كانوا يهددون الآلهة فعلاً بالدمار إذا لم يستجيبوا لهم ، كما كانوا يهددون فى كثير من الأحيان ببعثرة عظام أوزيريس ، والكشف عن قضيته المقدسة إذا أظهر الإله شيئاً من العناد أو التمرد ، ولكنهم لم ينفذوا ذلك التهديد أبداً) ، لأن أوزيريس لم يكن إلا (خيال المآتة) الذى يخوفون به الطيور أكلة الثمار .

(وفى الهند نجد أن الثالوث الهندوكى الأعظم الذى يتألف من براهما وفشنو

وشيفا لايزال خاضعاً لقوة السحرة الذين يتمتعون بفضل تعاويذهم بنوع من الشعور بالاستعلاء على أقوى الأرباب ، مما يضطر هذه الأرباب ذاتها إلى الخضوع لهم والاستجابة لما يأمرها سادتها السحرة وتحقيق مطالبهم فى الأرض أو فى السموات ، وثمة قول شائع فى كل أنحاء الهند من أن « الكون كله خاضع للآلهة ، وأن الآلهة خاضعة للتعاويذ ، وأن التعاويذ خاضعة للبراهمة ، فالبراهمة إذن هم آلهتنا ») - الغصن الذهبى - فريزر - جـ١ ص ٢٢١ .

ولاشك فى أن فرض سلطان السحرة على الآلهة لايتحقق إلا عن طريق الكهنة ، لأن الملعب واحد . والكرة واحدة ، والفريقان لايلعبان بالكرة إلا بقدر لعبهما بمشاعر الجماهير .

* وإذا صح - كما يقول برستيد (فجر الضمير ص٣٧/ ٣٨) - (أن الدين فى طوره الأول لم تكن له علاقة بالأخلاق ، كما نفهمها الآن ، كما أن المبادئ الأخلاقية الأولى لم تكن سوى عادات شعبية ، قد لاتكون لها علاقة بالشعور بالآلهة أو الدين ، وقد كانت مظاهر الطبيعة أول ما أشعر المصرى بوجود الآلهة ، مثله فى ذلك مثل الشعوب الأخرى القدامى ، فكانت الأشجار والينابيع والأحجار وقمم القلال والطيور والحيوانات فى نظره مخلوقات مثله حلّت فيها قوى طبيعية غريبة لاسلطان له عليها ، ومن ثم كانت الطبيعة أول مؤثر مبكر فى عقل الإنسان ، فوصف له العالم الظاهرى أولاً بعبارات دينية رهيبة ، وصارت مظاهر الإلهية الأولى فى نظره هى القوى المسيطرة على العالم المادى ، فلم يكن فى تصورات الإنسان القديم - بادئ أمره - معنى لمملكة اجتماعية أو سياسية ، بل ولا معنى لمملكة روحية تكون السيادة العليا فيها للآلهة ، وكان أبعد مايتوهمه عّبادُ إله من هذه الآلهة أن إلههم يحمل فى نفسه فكرة الحق أو الباطل ، أو أنه يرغب فى وضع هذه المطالب على كاهل عباده الذين كانوا يرون من جانبهم أن غاية مايطلب إلههم منهم هو تقديمهم القرابين زلفى له ، كما كانوا يفعلون لرئيسهم المحلى ، سواء بسواء ، على أن أمثال هذه الآلهة فى جملتها آلهة محلية ، كل منها معروف لدى منطقة معينة فقط ، ولكن كثيراً مايمتد الاعتقاد فى إله إلى جهات بعيدة فى العالم القديم ، بسبب الهجرة أو انتشار السكان) .

إذا صح هذا (التصور) – وقد ذكر برستيد أنه (حقيقة متفق عليها الآن) – فقد أصبح الدين ، وهو مجرد من الأخلاق ، ميّسراً ظهره لركوب المشعوذين والمحتالين والجبابرة ، وحين يقتصر سلطان الآلهة على القوة ، فقد أصبح الطريق ممهداً ليتحول الأقوياء إلى آلهة .

ولعل هذا ماشجع اليهود على أن يتخذوا من الإله (يهوه) رب الجنود القادر على الإبادة والمحْق لكل الشعوب ، من أجل نصرة (شعبه المختار) !!

بل ، لعل هذا ماشجع بعض الفلاسفة على عبادة القوة ، أو على استمراء الشهوة .

وقد يكون هذا التصور من واقع الإيمان بالفطرة الخيرة ، وأن الشرور أعراض على هذه الفطرة ، تولدت عن التطور الاجتماعى الاقتصادى .

وقد جاء فى الجزء الأول من كتاب (التحولات) لأوفيد :

(فى البدء كان العصر الذهبى ، عندما كان الإنسان جديداً ، لم يعرف الحكمة ، بل العقل السليم .

وكان بالفطرة ينهج نحو الخير .

لم يعرف رهبة العقاب ولا الخوف .

كانت كلماته بسيطة ، ونفسه صادقة .

وكان القانون المدون غير لازم ، لعدم وجود مضطهدين .

كان قانون الإنسان مكتوباً فى صدره .

ولم تظهر جموع الناس أمام القاضى .

ولم تكن المحكمة قد أنشئت ، ولم يسمع بكلمة دعوى .

وكان كل شئ بأمان ، لأن الضمير كان هو الحامى) .

كلام شاعر يقارن بين ماض لايعرفه بحاضر يضيق به ، ونسى أن حب الامتلاك غريزة ، وأن الطمع غريزة ، وأن الغضب غريزة ، وأن الإنسان الأول

لايختلف عن الإنسان اليوم إلا من حيث اختلاف شكل المؤثرات والوسائل ، وصدقت الملائكة : ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟!﴾ . . إنها طبيعة (المجتمع) حتى فى عالم الحيوان ، حين يكون اللقاء على فريسة يكون الصراع ، وحين تجتمع الذكور والإناث يحتكم الذكور إلى القوة . . كأن الأمر لايعدو النظر إلى الماضى نظرة الأسى على مافات !!

حتى الفيلسوف « سنيكا » أخذ مأخذ « أوفيد » ، وقال :

(فى المجتمع البدائى عاش الناس معا بسلام وسعادة ، وكان كل شئ مملوكا لهم ، على الشيوع ، ولم تكن هناك ملكية فردية . . ويمكننا الاستدلال على أن العبودية لم تكن موجودة ، وكذلك الحكومة المستبدة ، وكان النظام على أحسن مايرام ، لأن الناس اتبعوا الطبيعة بشكل حتمى ، وكان حكامهم هم أكثرهم حكمة ، وكانوا يوجهون الناس ويرشدونهم إلى مافيه خيرهم ، وكانوا يطاعون برضى ، لأن أوامرهم كانت حكيمة وعادلة ، وبمرور الزمن اختفت البراءة البدائية ، وأصبح الناس جشعين ، ولايكتفون بالمتعة العامة بالأشياء الجميلة فى الدنيا ، ورغبوا فى أن يحتفظوا بهذه الأشياء لأنفسهم ويمتلكوها ، ومزّق الجشع المجتمع السعيد إربا إربا ، وحل الطغيان محل مملكة الحكماء ، واضطر الناس إلى خلق القوانين التى تقيد حكامهم) .

ألا يتحدث هذا الفيلسوف بلسان من يقول كانت البيضة بمليم ، والشوارع ملأى بإعلانات (شقق للإيجار) ، أو كان القتال بالسيوف ، ولم تكن الطائرات والصواريخ ، مع أن لكل زمن إمكانياته وقدراته ومتاعبه ومسراته ، والإنسان بغرائزه وشهواته هو الإنسان .

ألم يخطر ببال هذا الفيلسوف أن قابيل قتل أخاه فى بداية التاريخ الإنسانى ؟ ألم يرصد ما يصنع الأطفال إذا لم تكن إلا لعبة واحدة ؟ ألا يكون مجتمع الأطفال مؤشراً إلى الطفولة الإنسانية (الأولى) ؟!

وذهب جودوين فى كتابه (العدالة السياسية) الذى نشر لأول مرة سنة ١٧٩٣م (إلى أن شرور المجتمع لم تنبع من طبيعة الإنسان الخاطئة والفاسدة ، بل من الآثار السيئة لمؤسسات القمع ، فالإنسان يملك قدرة غير محدودة على

التقدم ، وإن مؤسسات القمع والجهل هى وحدها التى تعترض هذا التقدم - فكرة القانون - دينيس لويد - ص ٢٤ .

ولم يسأل المفكر (الشهير) نفسه من أين جاءت مؤسسات القمع ، ومن الذى أعانها وعمل تحت لوائها .

ويدخل فى إطار (الماضى السعيد) الذى هو أشبه (باليمن السعيد) قول السير هربرت ريد : (إن أفضل رسومات كُهُوف آلتاميرا ونيو Niaux ولاسكو تكشف عن مهارة بيراندلو أو بيكاسو) .

وقال : مونتياجو معلقًا على قول ريد (البدائية - ص ١٧) :

(إن فى الأعمال الفنية التى أنتجها إنسان ما قبل التاريخ الذى عاش مابين ١٥٫٠٠٠ إلى ٣٠٫٠٠٠ سنة خَلَتْ أوضح دليل على أن هذا الإنسان - بوصفه فناناً - قد بلغ من الرقىّ مابلغه أى إنسان عاش بعده . وعندما نتذكر أن هذه الأعمال لم تخلق كأعمال فنية ، بل كجزء من الطقوس السحريّة الدينية التى قصد منها النجاح فى الصيد ، وأن الظروف التى خلقت هذه الأعمال فيها كانت من أصعب الظروف ، سواء حين كانت ترسم على أعالى الجدران ، أو على السقوف ، بينما يستلقى الفنان على ظهره ، ويعمل تحت الضوء الباهت المنبعث من لهيب الزيت الداخن . . عندما نتذكر ذلك ، فإن تلك الإنجازات لابد أن تثير فينا العجب ، وليس من شك فى أن الأفراد القادرين على استخدام مثل تلك المهارات كانوا يتميزون بدرجة من الذكاء لاتقل روعة عن تلك التى يملكها الإنسان المتمدين المعاصر) .

وهذا قول لايتجاوز قول أوفيد وسنيكا ، لأن الفن - وإن نشأ فطريا - لابد من أن يتطور بتطور الأدوات ، وتطور المواهب ، وإعجابنا بالفن البدائى لايخلو من وضعه فى إطار إمكانياته المحدودة ، وإلا فمن غير المعقول أن تتطور الآلات وتجمد الملكات ، إلا إذا وضع فى الاعتبار أن للحضارة دورات . . وإذا كان الإنسان قد وجد منذ عشرات الآلف من السنين أو مئاتها ، فلا يمكن أن يظل هذا الزمن الطويل غير قادر على التطور ، حتى يسكن وادى النيل أو أى واد آخر ، ثم يكتشف الزراعة ، ويأخذ فى التطور . . ألا ينبغى الوقوف عند قصة نوح -

عليه السلام - الذى صنع السفينة متعددة الطوابق ، بحيث تحمل من كل زوجين اثنين ، من صنوف الحيوان والنبات ، غير من آمنوا به من قومه ؟!

ولعل القول بأنه لاوجود لشئ اسمه (الإنسان البدائى) أو (العقل البدائى) ، بل بوجود بشر يعيشون فى ثقافة «بدائية» ، أو مجتمع «بدائى» ، أقرب إلى الصواب ، وفى هذه الحالة (تُعزَى مسئولية انعدام التقدم إلى غياب الفرص ، لا إلى العجز الطبيعى) - البدائية - ص ٣٥ .

وهذا يعنى أن الإنسان يولد مزوّداً بالمواهب والملكات التى تحميه وتعينه على تسخير الطبيعة ، لتحقيق رسالته (خليفة اللّٰه فى الأرض) .

وحسبك ما يذكره العلماء عن مملكتى النمل والنحل ، وما يؤكدونه عن قيام النمل بزراعة الأرز ، حرثاً وبذراً ورياً وحصاداً وتخزينا .

يقول إركسُنْ - البدائية ص ١١٧ : (وقد أوضح اكتشاف النظم البدائية لتربية الأطفال أن المجتمعات البدائية لاهى بالمراحل الطفولية من تطور البشر ، ولاهى انحرافات متوقفة عن النمو عن المعايير التقدمية الفخورة بنفسها التى نمثلها نحن ، إنها شكل كامل من أشكال الحياة الإنسانية الناضجة التى غالباً ماتتصف بالتجانس والاكتمال بشكل حرىّ به أن يستثير فينا الحسد) .

وبدون (حسد) فإن الإنسان ابن بيئته ، وكما أن الحيوان يتشكل بشكل البيئة ليحمى نفسه ، كذلك الإنسان تشكله طبيعة المناخ ، ونوع الطعام ، ولون الثقافة ، والمهنة التى يمتهنها ، والزوجة التى تكيفه أو تتكيف معه ، والحكومة التى تحكم به أو تتحكم فيه .

وذوو المواهب المتميزة يتحولون فى المجتمعات البدائية إلى متنبّئين وسحرة ومصلحين ، ويتحولون فى المجتمعات الراقية إلى مخترعين وكهنة ومتاجرين فى الأغذية الفاسدة والأبنية الفاسدة والأسلحة الفاسدة والشعارات الفاسدة .

ذوو المواهب المتميزة - كما لاحظ ماكس فيبر - يجرءون (على كسر طوق العادات القديمة ، التى لم تعد صالحة للأوضاع المتغيرة) ، وكشف (اتجاهات جديدة) ، قد تكون أفضل من سابقتها ، وقد تأتى على الأخضر واليابس .

لقد امتلك الإنسان منذ البداية القدرة على أن يباشر الحياة ، وأن يرقى بها وترقى به ، أو أن ينتكس بها وتنتكس به ، وصدق اللّه سبحانه ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ ، وقد قدم - جل شأنه - «الفجور» على «التقوى» لأنه الأقرب إلى الهوى ، وإلى إشباع الغرائز . . ومن هنا كانت القوة الحقيقية هى القوة الفاعلة فى كبح جماح الهوى ، وأن يمسك الإنسان نفسه عند الغضب، أو عندما تنزو به نزواته ، غروراً ، وتكبراً ، وتجبراً .

ومن هنا أيضاً كان لابد من تدخل السماء فى تعديل مسيرة الإنسان .

* حين اتهم الملائكة الإنسان بالإفساد وسفك الدماء ، أعطاه اللّه القدرة على المعرفة ، ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ، وسخر له كل مافى الأرض والسماء ، حتى يمارس (الخلافة) ممارسة واعية رشيدة ، وزوده ببوصلة مغناطيسية ، تسمى (الضمير) ، أو الحاسة السادسة ، أو (الوعى) ، لتحديد الاتجاه الصحيح ، وأتى علماء الأنثروبولوچيا ، والإثنولوجيا ، والأركيولوجيا ، والإيكولوجيا ليزعموا أن الضمير تكونه العادات والأعراف ، أى أنه مكتسب ، وأنه موجّه ، وليس جبلّة بشرية .[(١)]

أما ماقاله ت. هـ. جرين من (أنه لايمكن لإنسان أن يكوّن لنفسه ضميراً ، وإنه يحتاج دائماً إلى الجماعة لتكونه له) - فإن (تكوين الضمير) يقصد به مجموعة الأخلاقيات التى تكون موضع الرضى والسخط بالنسبة للآخرين . . لكن هذا لايمنع الوجود الفطرى لهذا الشئ الذى يستشعر هذه القيم ، وينتقى منها .

ولعنا نجد (أثارة) حيوانية ، تتمثل فى كثير من الضوارى والزواحف الخبيثة ، التى لاتعتدى على طفل ، بل قد تحتضنه ، ولا تقتل نائمًا ، فى كثير من الأحوال ، وبالإضافة إلى هذا كله يرسل الرحمن الرحيم رسله إلى الناس مرشدين هداة ، مبشرين ومنذرين .

---

(١) ذكر توبى هاف (فجر العلم الحديث جـ١ ص ١٥٦) أن فكرة الضمير غير معروفة لا لدى المشرعين ولا لدى الفلاسفة المسلمين ، فاعجب لهذا المؤلف الذى قامت قيامة تحرير سلسلة عالم المعرفة (مقدمة الجزء الثانى من هذا الكتاب) دفاعا عن أفكاره واستنكاراً لموقف المترجم الذى اختاروه فَسَفَّه مثل تلك الأفكار .

العلاقة بين السماء والأرض لم تنقطع ، ولن تنقطع ، لأن خطوات الإنسان على هذه الأرض لاتأخذ طريقاً أمَما ، ولهذا قال الرسول الأمين (يرسل الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها) .

يقول ماكس موللر : (مهما نرجع بخطوات الإنسان إلى الوراء ، فلن يفوتنا أن نتبين أن منحة العقل السليم المستفيق كانت من خصائصه ، منذ أوائل عهده ، وأن القول بإنسانية متسلسلة على التدريج ، من أعماق البهيمية ، إنما هو قول لن يقوم عليه دليل) .

ومصداقاً لهذا الرأى - كما يقول الأستاذ العقاد - الله ص١٧ - يرجح موللر أن الإنسان قد تدين منذ أوائل عهده ، لأنه أحس بروعة المجهول ، وجلال الأبد الذى ليس له انتهاء ، وأنه مثل لهذه الروعة بأعظم مايراه فى الكون ، وهو الشمس التى تملأ الفضاء بالضياء ، فهى محور الأساطير والعقائد ، كما ثبت له من المقابلة بين اللغات واللهجات .

وإذا قيل لموللر إن (الأبد) أو اللانهائية معنى لاتوجد له كلمة فى اللغات الهمجية ، ولا الحضارة الأولى ، قال إن الإحساس بالمعانى يسبق اختراع الكلمات ، وقد ثبت أن الإنسان الأول لم يضع فى لغاته كلمات لبعض الألوان .

ويؤيد مذهب موللر - كما يقول الأستاذ العقاد - الله ص٣٠ - أن الإنسان ولد مزودا بجميع الملكات النفسية ، وإن احتاجت إلى مرانة وصقل ، مثل الشعور على البعد ، والتوجيه على البعد ، والتنويم المغناطيسى ، وقراءة الأشياء أو معرفة الأخبار عن الإنسان من ملامسة بعض متعلقاته ، كمنديل أو قلم أو خاتم أو علبة ، أو ما شاكل هذه المعتقدات ، وتفسير الأحلام ، والاستيحاء الباطنى ، والوسواس ، واستطلاع المستقبل ، وإستطلاع الماضى ، والكشف ، وتحضير الأرواح .

(وكل هذه الملكات قديم معهود فى جميع الأجيال والعصور ، لم يجدّ عليه إلا التسمية العصرية ، ومحاولة العلماء أن يحققوه بالتجربة والاستقصاء) .

(وربما كان أشيع هذه الملكات وأقربها إلى الثبوت ، وأغناها من أدوات المعالجة والتناوب بأساليب التلقين والتدريب هو الشعور على البعد ، أو

التلباثى ، كما سمى فى أواخر القرن التاسع عشر ، تركيبا مزجياً من كلمتى البعد والشعور فى اللغة اليونانية) .

وكان الكاتب الأمريكى سنكلير ، الذى يؤمن بالفلسفة المادية دون غيرها ، يجرب الشعور على البعد بينه وبين زوجته على ملأ من الشهود . . كانت تجاربه فى معظمها تدور على الرسوم والأشكال ، فيطلب من بعض الحاضرين أن يختار له شكلا هندسياً أو حيوانيًا ، ثم يحصر ذهنه فيه ، وزوجته فى بلد آخر تتلقى عنه شعوره فى تلك اللحظة ، فإذا هى ترسم الشكل بعينه ، وقلما يكون الاختلاف فى غير الحجم أو درجة الإتقان . . وقد سمّى سنكلير هذه الظاهرة بظاهرة الإشعاع الإنسانى ، لأنه لايؤمن بأسباب لنقل الأفكار والأحاسيس غير الأسباب التى من قبيل أجهزة البرق والمذياع – اللّه ص٣٢ .

وقبائل الهوتنتوت الإفريقية لم تفارق مرتبة الهمجية حتى اليوم ، ولايزال أناس منها يأكلون لحوم البشر ، تعرف إلها واحداً فوق جميع الآلهة يسمى أبا الآباء .

وقبائل البانتو الأفريقية يقسمون المعبودات إلى ثلاثة أنواع : نوع هو بمثابة الأطياف الإنسانية الراحلة ، ونوع هو أرواح لم تكن قط فى أجسام البشر ، ويزعمونه قابلاً للتفاهم والاتصال بالعرافين والحكماء ، ونوع مفرد لاجمع له ، وليس من الأطياف ، ولا من الأرواح المتعددة ، لايمثلونه فى وثن ولاتعويذة ، ولاتفلح فيه رقية الساحر ، ولاحيلة العراف ، وفى يديه الحياة . (١)

وكفار العرب كانوا قبل البعثة المحمدية يسمون أبناء هم بعبد اللّه وتَيْم

---

(١) جاء فى كتاب (الديانات القديمة ص٢٩/ ٣٥) للدكتور/ رشدى عليان ، أن الدراسات التى قام بها (هوايت) فى قبائل استراليا الجنوبية الشرقية ، والتى قام بها (مان) فى القبائل الأفريقية البدائية ، كالبوشمان والهوتنتوت والزولو وغيرها ، من قبائل جنوبى أفريقيا ووسطها ، وبعض قبائل الهنود الأمريكيين ، وكتابات مسز باركر عن بعض قبائل استراليا وقصصهم – قد أوصلت هؤلاء العلماء وغيرهم إلى أن هذه القبائل تؤمن بوجود إله أعلى .

وعلى هذه الأبحاث والدراسات استخلص (لانج) أن أول ديانة إنسانية ظهرت فى الوجود هى ديانة التوحيد ، باعتبار أن هذه القبائل تمثل أكثر القبائل بدائية ، وأقربها إلى الحالة الأولى التى كانت عليها الإنسانية .

ويقول (لانج) : إن الإنسانية عاشت فترة حياة مليئة بأسمى المعانى ، ولكن ثمه تحلل حدث بعد =

اللَّه ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ، و ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ – ومع هذا كانوا يعبدون أسلافهم ، إذ يقال إن أصنام الكعبة تماثيل قوم صالحين ، كانوا يطعمون الطعام ، ويصلحون بين الخصوم ، فماتوا ، فحزن عليهم أبناؤهم وإخوانهم عليهم ، وصنعوا تلك الأصنام على مثالهم وعبدوهم من فرط الحب والذكرى ، لكنهم لم يعبدوهم إلا ليقربوهم إلى اللَّه زُلْفَى – اللَّه للعقاد ص٢٢ .

فالحقيقة التي لامرية فيها أن (الوعي باللَّه الواحد) فطرة : وصدق اللَّه سبحانه ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ .

= ذلك فى عهد من العهود البدائية .

كانت فكرة الإله الخالق ليست بحاجة إلى العطايا والمنح ، وكانت تنهى عن الشهوات والعداوات ، وتمنع الناس عن الظلم والجور ، ولاتمد العون للبدائى فى حروبه ، ولا تهبه القوة تجاه الأمراض السحرية ، وكثيراً ما كان البدائى يضحى للإله لكى يحقق عملاً من الأعمال ، فلا يتحقق ، فيندفع إلى التماس مَطْلَبه من موجودات خفية ذات صفة طلّسمية ، وكانت أولى هذه الموجودات هى الأشباح ، والنفوس ، وقطع الإنسان شوطاً كبَيراً فى التوجه إلى هذه الموجودات ، فنشأ عن ذلك أنه : ١- أهمل فكرته الصافية عن خالقه . ٢- اعتبر خالقه أحد القوى الكبرى بجانب القوى الأخرى الأسطورية ، ونسب له كثيراً من صفات تلك القوى ، وقدم له القرابين كما قدم لها .

وقطعت الإنسانية شوطاً ظهرت فيه فنون ومهَن ، فأصبح لكل فن ومهنة إله ، وظل هذا الحال حتى جاءت الديانات السماوية بالتوحيد فى أجْلى مظاهْره .

ونظرية (شميدت) التى تقوم على المنهج التاريخى فى علم الأجناس ، طبقها على أقزام وسط أفريقيا ، وجزائر الإندمان ، وبعض جزائر الفليبين ، فبحث حالتهم الاجتماعية والدينية ، وانتهى إلى أن الأقزام يؤمنون بوجود إله أعلى ، وأن بعض القبائل الاسترالية والسكان الأصليين فى أمريكا ، يؤمنون بوجود إله فى السماء .

وقد نسبت هذه القبائل البدائية إلى هذا الإله العلم والقدرة والأزلية والأبدية ، كما نسبت إليه الخير والثواب والعقاب ، وأنه الذى أقام دعائم الأسرة بتحديد علاقة الزوج بالزوجة والأولاد ، كما أنه مصدر القواعد الخلقية التى تحقق الخير والفضيلة . . هذا بالإضافة إلى الاعتقاد بأنه ليس ثمة إلاإله واحد ، وقوة واحدة تسيطر على جميع المجتمعات .

* عيب هذه الدراسات افتراض أن هذه المجتمعات البدائية تمثل أولية المجتمع الإنسانى ، مع أن علم التاريخ وعلم الآثار يؤكدان أن فترات التخلف التى يعانيها مجتمع إنسانى سُبقت بحضارة مزدهرة ، وأن هذه الحضارة قامت على أنقاض حضارة بائدة ، قريبة أو بعيدة !!

يقول الأستاذ العقاد - اللّه ص١٨٧ - إن البراهين جميعا لاتغنى عن «الوعى الكونى» فى مقاربة الإيمان باللّه ، والشعور بالعقيدة الدينية ، وإن الإحاطة بالحقيقة الإلهية شئ لاينحصر فى عقل إنسان ، ولا فى دليل يتمخض عنه عقل إنسان ، وإنما الترجيح هنا بين نوعين من الأدلة والبراهين ، وهما نوع الأدلة والبراهين التى يعتمد عليها المؤمنون ، ونوع الأدلة والبراهين التى يعتمد عليها المنْكرون ، فإذا كانت أدلة المؤمنين أرجح من أدلة المنكرين فقد أغنى الدليل غناءه ، وأدى القياس رسالته التى يستطيعها فى هذا المجال ، وهى فى الواقع أرجح وأصلح للاقتناع بالفكر ، فضلا عن الاقتناع بالبداهة ، كما يبدو من كل موازنة منصفة بين الكفتين .

* إن مفهوم « الفطرة » ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ لاتعنى أكثر من الشعور بالحاجة إلى قوة عظمى تنجيهم من ظلمات البر والبحر والجو ، ومن فتنة المحيا والممات . . وهذه (القوة العظمى) - إذا لم يكن (وعى) ، أو إذا تقادم عهده - تتشكل من خلال مشاعر وهواجس وأحلام واجتهادات عقلية ووجدانية ، فيكون اللّه الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ، متصفاً بالكمال (المطلق) ، وبالوحدانية (المجردة) من كل مايقع فى وهم واهم ، وفى الوقت نفسه يمكن أن يصير شمسا ، أو بوذا ، أو المسيح ، أو أحد سكان القبور ، وقد يتحول إلى أفراد الشجر والمدر ، كما يحدث فى الكوابيس ! !

وكان الأجدر بالباحثين فى الآثار والحفائر أن يضعوا فى الاعتبار ماصنع آدم ونوح وإدريس وبقية الرسل والأنبياء ، حتى يجدوا إجابات عن كل ماطرحوا من أسئلة عن سر تلك الطفرات الإنسانية فى مراحل وفى أنحاء مختلفة من العالم ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ - صدق الله العظيم .

تخرصـــــــات

- ١ -

يقول أدولف إرمان (ديانة مصر القديمة ص٤) :

(لقد استطاع الإنسان أن يميز نفسه عن الحيوان بصفات عدة ، استمدها فى أول الأمر مما يحيط بالحيوان من انفعالات ، فصراخ الحيوان ، ومناداة الذكر للأنثى ، تَطَور عند الإنسان ، وجعل منهما لغة التخاطب ، كما أن غريزة التجمع عند الحيوان فى قطيع هى التى دفعت الإنسان إلى إنشاء الأسرة ، ومنها تكونت الدولة ، أما ذلك الدافع المبهم عند الحيوان للإبقاء على النسل فهو الذى أنمى العاطفة ، ودفع الإنسان إلى الزواج ، وكذلك كان الشعور الغريزى بالخوف والفَزَع عند الحيوان من كل ماهو مجهول سبباً دفع الإنسان إلى احترام كل القوى التى تؤثر فى حياته ، دون أن يتعرف كهنها ، ومن هذا الشعور بعينه نشأت الديانة التى لم تكن إلا الاعتقاد المسيطر على ذهن الإنسان من أن هناك قوى تحيط بالإنسان وتؤثر فيه) .

ونسى إرمان أن الإنسان حيوان ، ويتميز عن غيره من الحيوانات بأنه عاقل ناطق ، أى أن الصفات الحيوانية غريزة فيه ، لاتحتاج إلى تقليد ، وإن كان يمكن الاستفادة من تجارب الحيوانات لأنها الأسبق وجوداً ، لكنه الأقدر على التطور والتحضر والانطلاق فى مجالات التجريب والإبداع ، وتسخير كل الكائنات سواه ، بل تسخير الأقوى للأضعف فى عالم الإنسان .

ومن هنا فأى حديث عن الإنسان يعطيه الأصالة ، أما ما هو من انفعاله

بالبيئة وتأثره بها فأمر هو من طبيعة أصالته ، أى إن ما أوتى من مشاعر وعواطف ورهافة وسعة إدراك تجعله يميز بين الجمال والقبح ، وبين الخير والشر ، فيغضب ويثور ، وينبسط ويرق ويلين ، وقد يسعفه الخيال فيبالغ فى التميز ، ويصل بالجمال والجلال إلى حد القداسة ، ويصل بالقبح والدمامة إلى حد التعاسة ، وقد يبلغ به الانفعال حد الجمع بين القداسة والتعاسة ، فيزاوج بينهما .

ولعل هذا من عوامل مايعرض من تناقضات يقع فيها الإنسان ، حين يخضع للظواهر التى لايجد لها تفسيراً (مألوفا) لديه ، فيلجأ إلى الخيال ، مصطنعًا تفسيراً أو أكثر يريحه ، أو يجد له صدى فى نفسه ، ويتم توارث هذه التفسيرات مع الإضافة ، أو الانتقاء ، أو التحريف والتعديل ، وكثيراً مايضفى القدم على (الموروثات) هالات مضيئة ، تشعّ معانى مجردة ، لها فى الحياة العملية أكثر من جاذبية ، وأكثر من إيحاء .

وهذا ما يمكن أن يشير إليه قول إرمان (ص ١٥) :

(إذا أراد رجل من عامة الشعب أن يفكر فى شئ لايدركه ، ولايستطيع فهم عناصره ، فهو لايستعين فى تفكيره بالمنطق ، بل يعتمد على الخيال ، فمثلاً لانراه يبحث مدققًا فى ماهية السماء ، أو الأرض ، بل يعمد بما له من شاعرية متوثبة أن يقارن السماء بشئ مما تعوده فى بيته ، دون أن يتساءل عما إذا كان هناك أى تقارب بينهما ، فهو يسمى السماء بالبقرة ، وفى ذلك لم يفكر إطلاقاً أن يحقق هذه المقارنة تحقيقاً دقيقاً . . وأصبح من المعتاد التحدث عن السماء على أنها بقرة ، وجاء الفن فرسمها على هذا الشكل وجرى العرف على هذا التمثيل سواء فى اللغة أو الفن) .

ومع أن عبارة (أصبح من المعتاد التحدث عن السماء على أنها بقرة) ليست (علمية) ، لأن (الباحث) استنطق بعض الصور بما أراد – فإنا نقف عند عبارة (رجل من عامة الشعب) ، وإن كان (الخيال) الذى ينزع إلى هذا (التشخيص) التقريبى هو من شأن الشعراء والفنانين فى أزمنة الحضارة المتقدمة ، حتى اليوم ، ومن هنا فالذين أُوتُوا حظا من سعة الفكر ودقته ، ومن بعد الخيال وطموحه – توحى لهم السماء بما هو أعظم من البقرة ، وقد يصل الأمر إلى حد (التجديد) ،

والوقوف عند باب (المطلق) ، وهذا هو ما هدف إليه ابن طفيل فى قصته (حى بن يقظان) .

* أما ما ذهب إليه فرانسوا دوماس (آلهة مصر ص ٢١/ ٢٢) من أن اللغة المصرية لم تكن (فى العصر القديم تعرف التجريد ، وعندما كانت تريد التعبير عن فكرة كانت تستخدم لفظاً معيّنا محسوسًا ، وعلى هذا فإن معنى التفكير والذكاء كان يعبر عنه بلفظ « قلب » الذى كان يظن المصريون أنه مقرهما) .

فكأن العالم الكبير قد فاته أن المعاجم الحديثة - على مستوى اللغات العالمية - تعبر عن كثير من (التجديدات) بألفاظ المحسوسات ، وإذا لم يكن ينسب إلى (القلب) فى لغة فإنه ينسب إلى (المخ) فى لغة ، وإلى (الحس) أحياناً .

ثم إنه يعلم أن الكتابة المصرية (مصورة) ، فكيف ترسم مجرداً كالحب والبغض والجمال والقبح إلا عن طريق الصورة ؟! إننا إلى اليوم كثيراً مانستعين بالمحسوسات فى تصوير المجردات ، نستعين - فى عصر الألكترونيات وغزو الفضاء - بالغزال والقمر ، وبالسيف والرمح . . وهذه ظاهرة غير منكورة فى جميع اللغات ، وفى جميع الآداب .

(إن جزءاً كبيراً من ألفاظنا المجردة ترجع إلى هذا المصدر عينه - هكذا يقول دوماس - إن ألفاظ فكرة وفهم وعقل كانت فى الأصل أموراً أو عمليات معينة محسوسة تماماً) .

(ولهذا كان على المصرى أن يبحث عن صور لتأدية آرائه وقد لجأ للتعبير عن قدرة اللّه إلى القول بأنه ثور ، دون أن يزعجه عدم توافق الصورة مع مجال النص ، وعلى هذا النحو قال عن « تحوت » إله القمر إنه « ثور النجوم » ، كما لجأ للإيحاء بالعناية الربانية إلى تصوير اللّه فى صورة راع) .

(ويصف شاعر لاهوتى « آمون » فى منظومة تتحدث عن قدرته المطلقة المخيفة على التعاقب بأنه أسد ذو نظرة متوحشة ، وثور فى حالة انتصاب ، وتمساح يسرق ويذهب بمن يهاجمه) .

وهذا الشاعر وغيره لايمثل معتقداً ، ولايُعَدّ حَكَمًا على لغة ، ومادام

الإجماع على ضياع أكثر المأثورات المصرية بفعل الزمن ، أو بفعل (الجهل) باللغة ، فإن هذه الأمثلة التى أوردها دوماس لاتزيد على كونها مجرد (لَقَى) عثر بها فى طريق مجهول .

ومع هذا ، فلجلال الدين الرومى قصة (شعرية) تقول إن موسى – عليه السلام – مر براعٍ ، فإذا الراعى يناجى ربه قائلاً : ليتنى أعرف مكانك فأقوم على خدمتك ، أقمّ لك البيت ، وأغسل ثيابك ، وأعدّ طعامك ، فنهره موسى ، وقال له : لقد كفرت ، فإذا الله – سبحانه – يعاتب موسى قائلاً له : كيف تنفّر أحبابى ؟

أراد الجلال الرُّومى أن يقول ليست العبرة بما تقول ، إنما بما تحسّ به من خشية وإجلال .

وهل فاتنا ذلك الشاعر الذى قال للخليفة الأموى :

أنت كالكلب فى وفائك للود ∴ وكالتيس فى قراع الخطوب

لو أننا حذفنا أداة التشبيه لنصل إلى مايسمونه « التشبيه البليغ » ، وحكمنا على الشاعر بعقلية دوماس ، لوجب شنق الشاعر ، مع أن الخليفة أجزل له العطاء !!

ومادام الإنسان ينفعل بما حوله ، وقد نتوسع فنقول إنه (ابن بيئته) ، فليس من شك - كما يقول إرمان فى (ديانة مصر القديمة - ص٥) - (أن الشعب الذى يعيش مستقرا فى حقوله الخصبة يفكر فى آلهة تختلف - فى كُنْهها - عن تلك التى يتخيلها شعب صحراوى لايعرف الاستقرار) .

ولقد حظيت مصر بظاهرتين عظيمتين طبيعيتين : (أثّرا - كما يقول بريستيد فى فجر الضمير ص٤٣/ ٤٧ - أعظم تأثير فى سكان وادى النيل ، هما الشمس والنيل ، فقد تصور القوم فى هاتين الظاهرتين إلهين ، هما إله الشمس «رع» ، وإله الخضرة «أوزير» ، وقد دخلا فى دور التنافس ، منذ عهد مبكر جداً ، فكان كل واحد منهما يبغى لنفسه أسمى مكانة فى ديانة القوم) .

(ومن المحتمل جداً أن أقدم صورة تخيلها المصرى لإله الشمس يرجع تاريخها إلى عصر ماقبل التاريخ ، عندما تخيل صَيّادُو مناقع الدلتا إله الشمس فى شكل صياد يدفع أو يجدف فى زورق ، ليعبر مستنقعات الغاب ، وقد عبّر عن هذا التصور فقرات من « متون الأهرام ») .

(وهذا الإله « رع » الذى تصوره أقدم سكان وادى النيل فى شكل إنسان ، جعلوا مقره هليوبوليس ، حيث حل محل إله شَمْس قديم ، يدعى « آتوم » ، أعظم إله فى مصر) .

(وفى «إدفو» تقمص إله الشمس صقرا ، لأن تحليق هذا الطائر المرتفع تخيله القوم رفيق الشمس فى علوها ، يقوم بطيرانه اليومى عبر السموات . . من أجل ذلك أصبح قرص الشمس ذو الجناحين المنشورين أهَمّ رمز فى الديانة المصرية القديمة ، وكان إله الشمس - بصفته صقرا - يسمى «حور» أو «حوريس» ، أو «حوراختى») .

(وقد ابتدأت عملية مزج فى عهد مبكر بين الآلهة ، حتى صار إله الشمس يسمى «رع حوراختى» ، أى حور الأفق ، أو «رع آتوم» . . وقد أسرع كبراء رجال المعابد المحلية إلى التعجيل بهذه العملية ، إذ كان كل من تلك المعابد

يجرى وراء نيل الشرف بادعائه أن مكانه هو الذى ولد فيه إله الشمس) .[1]

(وقد انحدرت هذه الفكرة إلينا عن طريق الأدب العبرانى فى تشابيه مثل ، «جناح الصباح» . . «شمس العدالة التى تحمل الشفاء فى جناحيها»).

(وقد كان إله الشمس حاميًا لفرعون وحليفًا له ، فإن متون الأهرام تقول عنه ، « إنه يمكّن له مصر العليا ، ويمكن له مصر السفلى ، ويهدم له معاقل آسْيا ، ويخضع له كل الناس - المصريين - الذين سوّاهم بأصابعه ») .

هذا كله حق ، ودليل على البذرة التى نمت فى توراة (شعب اللّه المختار) ، لكنه حق مرهون بالتعبير الأدبى ، فلم يكن القوم لينقشوا على جدران معابدهم عبارة غير منتقاة تكون من موروثاتهم .

فهذا النيل (كل من يراه فى فيضانه تدب الرعشة فى أوصاله ، أما الحقول فهى تضحك ، وأما الشواطئ فتكسوها الخضرة ، وتتساقط هَدايا هذا الإله ، وتعلو الفرحة وجوه البشر ، أما قلوب الآلهة ، فتخفق من السعادة) - ديانة مصر القديمة - ص ١٦ .

وقد يتم الجمع بين حابى وأوزير (إذ ترقد الأرض قاطبة على أوزيريس الميت ، وتزلزل زلزالها إذا تحرك ، ويجرى النيل من عرق أصابعه ، يهب الناس الحياة من أنفاسه ، وتنمو فوقه الأشجار والنباتات والحبوب وجميع الثمار ، ويَجْثُم فوقه كل ماتشيده يد الإنسان من قنوات ومنازل ومعابد وآثار ومقابر ، وغير ذلك من الأشياء العديدة التى ليس من اليسير تدوينها دون أن يئن أو يتضجر من العبء الذى يحمله) - المصدر السابق ص ٥٠ .

---

(١) يذكر صاحب (التراث المسروق ص٧٥/ ٧٧) أن المصريين القدماء كانوا عبدة نار ، لإيمانهم أن النار هى خالق الكون (ميز = Pgr = نار) ، ويرجع بامبليكوس صناعة الكون من النار إلى الإله المصرى (بتاح) إله شئون الخلق ، ويقول سوينبورن كليمرفى كتابه (فلسفة النار) : إن دراسة أسرار الإلهين المصريّين إيزيس وأوزيريس تبرز على الفور أنها فلسفة نار خالصة ، وقد حاول فيثاغورس بيان أن النار أساس الخلق وتبعه كل من هرقليطس ، وأناكساجوراس وديمقريطس وسقراط وأفلاطون ، مستخدمين مصطلح العقل الكونى Nous ، وأيا كان اسمه ، هو نار ، قوامه ذرّات نارية .

وهكذا ، أخذت الآلهة أشكالاً أدبية أسطورية ، وليست الأسطورة إلا تعبيراً رمزياً عن حاجات بشرية لايسهل التعبير عنها ، أو تقصر العبارة عن تأطير آفاقها .

ولما كانت قصة (الخلق) أبعد ماتكون عن (الإدراك الشعبى) فقد سعى (الأديب) المصرى إلى التصوير الأسطورى ، ليكون أقرب إلى (الوجدان الشعبى) .

جاء فى تعاليم المدينَة المقدسة « هليوبوليس » عن بدء الخليقة :

(عندما تكوّن إله الشمس - آتوم - فى المياه الأبدية - نون - قبل أن تكون السماء والأرض ، وقبل أن تخلق الدودة أو العلقة ، لم يجد مكانًا يقف فيه ، فوقف فوق تل ، ثم صعد فوق حجر الـ« بن بن » فى هليوبوليس ، وبعدئذ وجد نفسه وحيداً ، ففكر فى أن يخلق لنفسه زملاء ، فحمل من نفسه ، وتَفَل ، فكان الإله « شو » والإلهة « تفنوت » ، وأَنْجَبَ « شو » و «تفنوت» الإلهين « جب » إله الأرض ، و « نوت » إله السماء ، كما أنجب «شو» و «تفنوت» أوزيريس وست وإيزيس ونفتيس ، ثم تكاثر الأبناء) - ديانة مصر القديمة ص١٠٣ / ١٠٤ - حتى تجاوزوا الثمانمائة ، (هى أسماء الأرباب والربات والكائنات الأسطورية الأخرى) التى جمعها واليس بدج فى قاموسه الهيروغيليفى . (١)

---

(١) ذكر الدكتور جابر الحينى (فى العقائد والأديان ص ٤٦/ ٤٨) أن أحد فراعنة القرن الثامن ق . م . واسمه شَباكو (ذكر بريستيد فى «تاريخ مصر» شباكا ٧١٢/ ٦٩٨ و شبيتكو ٦٩٨/ ٦٩٠) عثر فى معبد بتاح بمنفيس على بردية متاكلة ، فأمر بكتابتها على الحجر ، وقد ترجع هذه البردية إلى حوالى ٣٥٠٠ ق . م .

وجاء فيها عن ترجمة ويجال Weigall : حدث أن القلب واللسان فازا بالسلطان على أى عضو قائلين إنه (بتاح) كان على صورة (القلب) فى كل صدر ، وعلى هيئة (اللسان) فى كل فم ، عند كل الآلهة ، وكل الناس ، وكل الحيوان ، وكل الزواحف ، وكل المخلوقات ، وذلك حينما كان (بتاح) يفكر ، وحينما كان يدبر كل شئ يبتغيه ، لقد صاغ كل الآلهة ، وحتى أتوم Atum فقد صاغه أو صاغ وحدانيته بنفسه ، وكل كلمة ربانية إنما تخرج إلى الوجود بتفكير القلب ، وبأمر اللسان ، إنه هو الذى صاغ الأجسام ، و(خلق) الصفات ، إنه هو الذى خلق كل الأطعمة ، =

وكان لابد أن تحدث خلافات بين هذه الآلهة الكثيرة ، كما حدث بعد ذلك بين آلهة الأولمب ، إذ كان (رع) مازال يعيش على الأرض ، ويتولى بنفسه حكم البشرية ، لكن ابْنَتَه (حاتحور - تفنت) لم تكن تقيم إلى جواره بمصر ، بل كانت تقطن صحارى النوبة الشرقية ، فى صورة لبؤة متوحشة ، تقذف عيناها النار ، وتلتهم لحم أعدائها ودماءهم . . يرغب (رع) فى أن يحضرها إليه ، لأنها ابنته ، ولأنه يحبها ، وكذلك لتكون حامية له ، إذ كان عليمًا بقدرتها .

عهد بمهمة إعادتها إلى الإلهين شو وتحوت .

كان شو مخلصاً لرع ، وكان يحب أخته تفنوت التى كان يريدها زوجة ، وكان تحوت ساحرًا بليغًا قادرًا على تهدئة غضب الآلهة واستئناسها .

توجه شو وتحوت إلى حيث تقيم حاتحور ، بعد أن تحولاً إلى قردين ، وحدثاها عن بلد رع والنيل الذى يجتازها ، والحقول المزروعة والقرى والمدن ، وأغرياها بأنها ستجد الغزلان والتياتل والتيوس التى تعودت عليها ، مع النبيذ الذى يجلب السرور والنشوة ، وأنها ستُنشأ لها المعابد ، ويحتفل بها فى كل مكان ، ولن تنقَطع الموسيقى والأناشيد وأنواع الرقص فى ساحات أبوابها .

عادت حاتحور فى موكب بهيج عزفت فيه الآلهة ورقصت ، وقدم الكهنة شتى القرابين .

وتحولت اللَّبؤة المتعطشة للدم إلى إلهة للحب ، وأسماها الإغريق أفروديت (سيدة الحب والبهجة) - آلهة مصر ص٥٤ .

إنها أسطورة أدبية تربوية ، تعالج مشكلة عائلية ، لم يطرحها الأديب فى صورتها المباشرة ، فلا يكون تأثيرها المباشر ، وإنما لجأ إلى (فنّ) الأسطورة . . والأدب العربى والعالمى - وبخاصة الهندى واليونانى - غنى بهذا اللون من

= وكل الأضاحى ، بالكلمة ، وهو الذى خلق كل ماهو محبوب وما هو مكروه ، وإنه الذى أحيا المسالمين وآمات المذنبين .

إنه هو الذى خلق كل عمل ، وكل صنعة تصوغها الأيدى ، ومشى الأقدام ، وحركة كل عضو ، تبعًا لأمره ، عن طريق تفكير القلب الذى يتحقق باللسان .

التعبير . . وحسب هذه (الأسطورة) أنها تبين أثر البيئة فى التكوين الخلقى ، فالإلهة حاتحور فى الصحراء متوحشة تلغ فى الدماء ، ومع الموسيقى والرقص والنبيذ تحولت إلى إلهة للحب والجمال .

يقول فرانسوا دوماس : (إن الذى يتميز به الأدب الدينى المصرى هو فقط إسهاب واسع فى الشرح بالصورة ، والسعى فى تجميعها ، وعدم تماسكها فى كل مرة يرغب فيها عالم اللاهوت تعمق الطبيعة الإلهية) .

(ولكن توجد وسيلة أخرى لمعالجة الحقيقة ، كانت شائعة عند المصريين ، وتدهشنا كثيراً ، إنها تلك التى نطلق عليها فى لغاتنا « التَّورية » ، أو التلاعب بالألفاظ) - آلهة مصر ص ٢٣ .

ويورد دوماس - تعبيراً عن أزلية الإله وأبديته - قول الأديب المصرى : (إنه لا ينقطع عن عبور الأعوام) .

وقد كان الجنوح إلى التعبير الأدبى الأسطورى هو ما أوهم بتعدد الآلهة ، والأمر لايزيد عن تصوير الانفعال بالأشياء ، أو تجسيد المجردات .

هذا (خنوم ، الخزاف الإلهى الذى شكل على دولابه الإنسانية جمعاء) ، تحدث نص فى معبد إسنا عن دوره ، فشرح (كيف كوّن خنوم جسم الإنسان عضواً عضواً ، وكيف مزج الدم والنخاع حتى يكون العظم ، وكان الدم فى العظم تنشّطه حركة قوية ، وقد أمد الكائنات التى فى دور التكوين بالنفس) - آلهة مصر هـ ص٤٢ .

إن صاحب هذا النص طبيب ، أو هو من هواة الطب ، جعل يقارن بين عمل الإله وعمل الخزاف ، ولعله استند إلى مأثور سماوى تحدث عن خلق الإنسان من طين لازب ، من صلصال (كالفخار) ، ونفخ اللّه فيه من روحه (النَّفَس) ، ثم نزه اللّه عن أن يخلق بيديه ، فاخترع له عاملا (إلها) أو (تابعا) ، ينهض بهذا العمل ، كما يستعين (القادر) بالخزاف ليصنع له مايريد من أدوات ، أو كما صنع فلاسفة اليونان بالعقل الفعال .

وعلى مثال هذا كان (تحوت) أعظم الموظفين شأناً فى مملكة اللّه ، كان (الوزير الذى يقف بجانب الإله الشمس ، على سطح سفينته ، ليتلو عليه شئون الدولة) ، وكان (القاضى الذى يحكم فى السماء ، ويقضى فى منازعات الآلهة ، ويتنبأ بما سيحدث للآلهة والبشر) ، وكان المهندس (الذى يشيد المدن ، ويضع حدودها) ، وكان العالم (الذى أعطى الناس الكلمات والكتابة) - ديانة مصر القديمة ص ٦٧ .

وعلى مثاله كان إله المرح (بس) القزم الملتوى الساقين ، (له رأس كبير ، ولحية منتفشة ، وذيل حيوان ، يدخل السرور على أبناء الآلهة بالرقص والموسيقى) - المصدر السابق ص ١٦٦ .

ويمكن كذلك رؤية (توريس) العظيمة (وحشاً يتكون من عجل بحر وتمساح ، بيدين آدميتين ، وقدمى لبؤة ، وهى تقف على رجليها ، وتحمل عادة

رمـز العناية والحمـاية ، وتمثل فى صـورة « حبلى » لأنهـا تسـاعـد أثناء الوضع والرضاع) – المصدر السابق ص ١٦٦ .

إن عـادة التركيب الفنى هذه – محاولةً للجمع بين أكثر من معنى – أسلوب سائغ فى أكثر الأدبيات العالمية ، بل فى الآداب الشعبية كذلك ، ولعل أبا الهول أقرب شاهد .

* وكـان التوسع فـى مفهـوم الألوهية ليشمل كل ماهو محبوب ، وماهو مكروه . . ولـم تكن اللغـة المصرية بدعـاً فى هذا ، فـالتوراة – مع أن لهـا أصـلاً سـماوياً – حين كتبها حاخامات أسر بابل – حمّلوهاً كثيراً من هذه (الأعباء) ، وجاء الأدب اليونانى بعد ذلك فتوسع أيما توسع .

ولو أننا رجعنا إلى التراث الهندى لوجدنا أضعـاف مافى (الأدب المصرى) من آلهة .

إن (خيال الشعب يضيف إلى الآلهة التقليدية باستمرار آلهة أخرى ، رجاء أن يكونوا عـونًا فى الحيـاة . . ولقـد كـان للمبـانى أثرها ، من حـيث القـدم والضخامة ، فأبو الهول لم يكن فى الأصل سوى صخرة طبيعية ، أعطاها الملك خفرع رأسًا مَلكيّا ، لكنه مالبث أن عبد بصفته « حرمـاخيس » ، أى حورس الأفقى) – ديانته مصر القديمة ص ١٦٢/ ١٦٣ .

وأخـشـى أن أقـول إن المزاج المرح للشعب المصرى ، وضـيـقـه بـحكامـه المستبدين – دفعه (بالفطرة) إلى (التعزّى) بهذه الصور ، المثيرة للضحك ، أكثر من إثارتها للتأمل .

وماظنك بعجل أبيس الذى يقول فيه نص من عـهد رمسيس الثانى ، الفاتح العظيم ، والطاغـية الذى عـمر طويلاً ، ونشر العشرات من ذريته (الصالحة) لامتصاص خيرات البلاد أكثر من قرن من الزمان : (إن جلالة أبيس قد صعد إلى السـمـاء ليـستـريح فى بيت التـحنيط ، تحت رعاية أنوبيس الموجود فـى مكان التـحنيط ، حـتى يحنّط جثمـانه ، وسيـوقظه أولاد حـورس بينما الكاهن يُرتّل مديحه) .

(ويذكر النص أن أبيس قد أكمل أيامه السبعين فى مكان التحنيط ، مما يدل على أن المدة التى يستغرقها تحنيطه هى نفس المدة التى يقتضيها تحنيط موميات البشر) - الموتى وعالمهم ص٢٣٨ - أو موميات الملوك بخاصة ، مما يطبع الجو بطابع سياسى ، وإلا فكيف للحضارة المصرية التى تفوقت وتألقت تبنى جبانات للحيوانات ، وتبنى إلى جوار هذه الجبانات معابد ، حيث يمكن للكهنة أن يواصلوا التعبد للإله (الحيوان) ؟!

يقول إرمان (ديانة مصر القديمة ص٤٢٨) عن قواعد التحنيط الطويلة التى كان يقوم بها الكهنة الخمسة : (نعرف كيف كان ينبغى لف الأعضاء باللفائف ، أو حشو بعض الأعضاء : الرأس والفم والعينين والأنف ، وكيف كان يجب تغطية القرنين ، أما الساقان فكانتا تمدان ، وكان تجويف البطن يغسل ويحشى ، ثم كان أبيس ينصب قائمًا بدعائم خاصة ، وكان الرأس يلف آخر الأمر ، بحيث يتخذ وضعه الأصلى ، وكانت تلى ذلك الشعائر الجنائزية الحقيقية ، فكانت الجثة توسد على نعشها فى داخل التابوت ، بينما تنوح النائحات ، ثم توضع فى زورق يمخر بها بحيرة ، على حين تتلى النصوص المقدسة ، وآخر الأمر كانت تؤدى لهذا الثور الميت شعيرة فتح الفم ، على نحو ما كان يؤدى للأموات من بنى الإنسان ، وكان هذا كله يستغرق سبعين يوما ، كانت فترة حداد وصيام لمصر قاطبة) .

(وفوق المدفن العام الذى كانت توسد فيه العجول توابيتها الحجرية كان يقوم - منذ أمد بعيد - معبد كانت تزود فيه هذه العجول بالأقوات ، أسوة بالموتى من البشر) .

(ومن معبد أنوبيس ، كان هناك طريق مقدس يتجه إلى الغرب ، ويؤدى إلى الصحراء ، بين صفين من تماثيل أبى الهول ، وكان يجتازه الموكب الجنازى الفخم ، وذلك عند نقل رفات العجل المتوفى إلى المعبد ، ثم إلى القبر) .

يقول الأستاذ سليم حسن (مصر القديمة جـ٧ ص ٦٢١/ ٦٢٢) : (وفى أثناء سياحة المومياء على البحيرة كانت تقرأ تسع شعائر أو زيرية الصيغة) .

ويقول : (كان من النادر أن يولد «أبيس» من «أبيس» آخر ، والعلامات

التى كانت تميزه هى مثلث أبيض على الجبين ، وعلامة بيضاء فى صورة هلال على كلا جانبيه ، وصورة نسر على رقبته . . وقد فسرت هذه العلامات بأنها رموز الآلهة الذين كانوا يتقمصون « أبيس ») .

(وفى العهد الرومانى حل القرص القمرى بين قرنى أبيس محل القرص الشمسى) .

(وظلت عبادة أبيس حتى عهد چوليان الرومانى ٣٦٢م ، وبين عهدى أمنحتب الثالث وچوليان كانت سلسلة مقابر هذا العجل تختفى من وقت لآخر . . وكان لكل عجل قبره الخاص حتى عهد الأسرة التاسعة عشرة ، وكان يعلوها مزاره الخاص) .

ولم يقتصر الأمر على عبادة أبيس ، فقد كانت هليوبوليس مركزاً لعبادة العجل منفيس ، (وهذا الثور كان لونه أسود ، يظهر على كل جسمه وذيله أشكال سنابل ، وكان له رمز مقدس خاص ، وهو مقعد يعلوه رأس ثور أسود ، وهو الذى اختلط من زمن بعمود هليوبوليس المقدس ، لدرجة أن رأس الثور فى غالب الأحيان لم يكن محمولاً على مقعد ، بل على العمود « إيون » . . وكان له كالعجل أبيس قطيع مقدس ، وكانت بقراته وعجوله تُدْفن معه) .

(وكان العجل منفيس - من الوجهة اللاهوتية - يتصل كلية بالإله العظيم «رع آتوم» ، رب هليوبوليس . . وعبادته - على وجه التقريب - كانت مشابهة لعبادة أبيس) الذى كان بدوره يتصل بالإله « بتاح » .

وكانت أرمنت تقدس العجل بوخيس ، (والفروق بين العجل بوخيس وبين العجلين أبيس ومنفيس دقيقة جداً ، وقد يعد عهد الفرعون « نقطانب » بداية تاريخ الثور بوخيس) .

(كان بوخيس ينتخب من بين عجول متوسطة العمر ، على أن يكون فيه علامات تميزه) .

(ولم يكن هذا الثور ينقطع عن سكنه فى أرمنت ، ولا يتغيب عنها إلا لزياراته السنوية لمحاربيه) .

(وقد قدم لنا معبد « البوخيوم » مثل « السربيوم » عدد عظيمًا من ال
تشمل معلومات تاريخية ثمينة) .

(وكان « بوخيس » أبيض اللون برأس أسود ، ويحمل بين قرنيـ
الشمس تعلوه ريشتان) .

(وقد حاول رجال اللاهوت أن يضعوا علاقات بين بوخيس و
باعتبارهما بين جماعة الآلهة الثمانية) . . مصر القديمة جـ٧ ص٦٢٥/ ٦

وعلل الأستاذ سليم حسن هذه العبادة (الثورية) بأن الثور (يمثل الخ
ناحيتين : فهو رمز القوة الكريمة فى نظر العقل البدائى ، ثم هو سيد الماش
تنتج اللحم واللبن والزبد والجلد ، وهو حارث الأرض ، وبهذا أصبـ
للسيادة والقوة . . والثور فى اللغة العربية يطلق على سيد القوم ، والرؤ
بحيرة « شاد » كانوا يدفنون ملفوفين فى جلد ثور) - مصر القديمة جـ٧ ٢٠

وفى (ترانيم زرادشت) يكثر ذكر الثور ممثلاً للقوة ، وللإله .

لكن ماذا عن (الجعل) الذى (كان يعد فى نظر أفراد الشعب المصرى م
الشمس ، الخالق لكل شئ ، والموجد لنفسه ، ووالد شخصه ، ولذلك
عليه « خبرى » ، أى الخالق ، وكلمَة جعران تقابل فى المصرية «خبر»
مشتقة من الفعل خلق أو أوجد) - مصر القديمة جـ٦ ص٦٤٨ .

كيف لصانع الحضارة الموغلة فى القدم أن يرى فى دحرجة الجعـ
الروث تفسيراً لدحرجة إله الشمس الكرة العظيمة فى عرض السماء ؟

ويضيف علماء الآثار إلى ذلك (أعجوبة أخرى خاصة بطبائع الجعل
عليه أهمية بعيدة المدى ، عظيمة التأثير فى عقول سكان وادى النيل الأول
أنه كان يخرج من كرة الروث التى كان يدحرجها الجعل أمامه جعرانا
عندما كانت تحل ساعة فقسه ، فظن أن فصيلته تلد نفسها بنفسها ، وكان
يمد نسله بالحياة كما تمد بنى الإنسان كرة الشمس التى تتدحرج فى
السماء) - المصدر السابق ص ٦٤٩ .

آيكون الجعل قد اختص بهذه الفضيلة ؟ أغاب عن المصريين أن ثمة

تعيش داخل الصخور ، وأخرى تعيش فى أعماق الطين ، وغيرها تنتج فى جذوع الأشجار ؟ ألم يلفت نظر المصرى قبح شكل الجعل ، حتى اتخذ تعويذة ؟ وهل كان المصريون من هواة اللعب بالروث ، وبتربية الجعارين حتى شغلهم هذا الأمر ؟ وما وجه الشبه بين قرص الشمس وكرة الروث ، أهو وجه الشبه بين رغيف الجائع ووجه القمر ؟!

إن الأمر لايمكن أن يحمل على ظاهر روايته ، وليس من السهل قبول هذه التعليلات الزائفة .

لايسهل التصديق بأنه (فى العصور المتأخرة أقام المصريون جبانات مماثلة لدفن أمهات العجول ، حيث كانت الأبقار من الحيوانات المقدسة) - الموتى وعالمهم ص ٢٤٤ .

أيمكن تصديق أن عبّاد الحيوانات هذه اعتقدوا (أنها تحوى شيئًا إلهيا فى نفسها ، بمعنى أنه إذا أراد أحد الآلهة أن يجسد نفسه للبشر فإنه يختار حيوانًا ترمز بعض صفاته إلى ما لهذا الإله من صفات) ؟! ومع هذا (كان من المعروف أن الإله لايكون مجسداً فى كل بقرة ، أو فى كل تمساح . . وبرغم كل الاحترام الذى يحيط به المتعبد تلك الحيوانات فإنه يمكن أن يأتى يوم يذبح فيه البقرة ، ويقتل التمساح ، ولايرى فى هذا عملاً إجراميًا) - ديانة مصر القديمة ص ٩ .

وهذا أشبه بما نسبوه لبنى حنيفة فى الجاهلية العربية ، أنهم كانوا يصنعون الإله من التمر فإذا جاعوا أكلوه ، دون أن يفكروا فى ذلك الإله المأكول ، أو فى ذلك الإله الذبيح والقتيل ، بالنسبة للثور والتمساح !! (١)

---

(١) ذكر كنت أ . كتشن فى كتابه (رمسيس الثانى ص٢٢٨) أن المصريين (نسبوا إلى كثير من الآلهة صفات بعض الحيوانات ، حتى لقد أصبح لمثل هذه الحيوانات دلالات على الألهة نفسها ، فقد صور الإله تحوت على عدة أشكال منها الثور والقرد ، وصورت الربة باستت على شكل قطة ، كما صور خنوم على شكل كبش ، وسوبك على شكل تمساح ، وآمون على شكل كبش ، وأحيانا أوزة ، وحورس على شكل صقر ، وحتحور على شكل بقرة .
وكان لهذه الحيوانات المقدسة مجال آخر مستقل ، فقد ساد اعتقاد بأنها «صور حية» يحل فيها الإله نفسه إذا شاء ، بل زادوا بأن اعتقدوا أنها أحيانا مهبط وحيه الذى ينقل نُبوءاته ولذلك قدسوها) ولو زار مصرَ وثنى اليوم ، ورأى مايحدث فى مقاصير الأولياء ، لقال بتعدد =

* إن الأمر – مادام مرده إلى قراءة الرسوم والكلمات التصويرية – لايخلو من نزوع خيالى ، قام على سوء الفهم ، أو على قصد التضليل ، كما هو شأن أكثر المستشرقين بالنسبة للفكر الإسلامى ، وإلا فكيف يمكن تصديق أنه (يوجد معبد خارج دهليز الأبقار المقدسة ، بناه الملك « نكتانبو » الثانى ، الذى يرجع إليه الفضل فى بناء المعبد القائم عند السرابيوم ، وكان قدس الأقداس مكرسًا لإيزيس أمّ أبيس ، ولأبيس نفسه ، وقد شكّل مركزًا يستطيع فيه الكهنة الإبقاء على ممارسة طقوس عبادة الأبقار المقدسة ، ولم يكن المعبد بسيطًا فى تخطيطه ، إذ يضم مقصورتين منفصلتين مكرستين لجبانتين حفرتا فى باطن الأرض ، لدفن الحيوانات المقدسة ، ويعج هذا الموضع فى سقارة بمثل تلك الجبانات ، ويؤدى الرصيف الذى أقيم عليه المعبد إلى دهليزين منقورين فى الصخر ، أحدهما مكرس لدفن القردة ، والآخر للصقور ، وتختلف هاتان الجبانتان فى طبيعتهما عن مقابر العجول والأبقار بعض الشئ ، لأن القردة والصقور كانت تنتمى للعقيدة الدينية التى تبجل كل أفراد الفصيلة ، باعتبارها صوراً من الإله ، وفى بعض عقائد هذا النمط من الديانات يمكن أن يحظى حيوان بعينه بالعبادة ، ويختار دوريًا من بين أبناء فصيلته باعتباره تجسيداً للإله) .

= الآلهة ، وهو ما يحدث فى أضرحة قديسى المسيحية ، وهو بعينه ماحدث فى الدولتين اليونانية والرومانية ، وأنكره بعض الفلاسفة ، بل إن الشيعة الاثنى عشرية إلى اليوم يتخذون من أضرحة العباس والحسين والكاظم مزارات يطوفون حولها ويصلون إليها ، والبهائية اتخذوا من قبر البهاء فى عكا قبلة .

وأضاف كتشن ص٢٣٢ : أنه فى العصر الإمبراطورى وضعت أناشيد تمجد القوى الخلاقة للآلهة الكبرى، وتشير إلى التماثُل بينها ، باعتبار كبار الآلهة مظاهر وصورا ، أو وجُوها لإله واحد .
وقد تغنى الرسام مدى سخمت ، وهو من معاصرى رمسيس الثانى وخلفائه ، بنشيد جاء فيه : ـ
المجد لك ، ياآمون ، رع ، أتوم ، حورس ، الأفقين .

يامن نطقت بفمك ، فظهرت الموجودات ، من بشر وآلهة / والماشية والحيوانات المصيدة فى الأبدية ، مع كل مايطير وينير / لقد خلقتَ الأرضين ، الوطن والأرض النائية ، وعمرتها بالمدن/ والمروج الخضر التى يخصبها الفيضان ، فتنتج من الخير / ما لايحصى كى يعيش الناس/ أنت الشجاع الذى يرعاهم الراعى ، إلى الأبد / أجسادهم تشبعت بجمالك ، وأعينهم بتقربك / والكل يخشاك ، وقلوبهم ترنو إليك / والكل يقول : (نحن عبيدك) أنت العظيم ، أنت الجبار ، أنت الواحد / والغنى والفقير سواء ، متساوون أمامك / لطفك يأسرهم جميعاً ، ولا ينكر أحد جمالك / ألا تقول النساء : (أنت قريننا) ؟ / والولدان : (أنت أبونا وأمنا) ؟ / الغنى يشيد بجمالك ، والفقير معجب بمحياك / والسجين يلجأ إليك ، والغنى يبتهل إليك) .

(ونجد أن جبانة القردة فى سقارة كانت تحتوى على مايزيد على أربعمائة دَفْنة، بينما وصل عدد الصقور إلى مئات الألوف ، وبالتالى كان أسلوب تحنيطها أكثر بساطة من القردة) .

(ويتألف دهليز القردة من مستوين : الأدنى منهما حُفر بعد أن امتلأ بالموميات ، وكانت الموميات توضع بعد تحنيطها فى صناديق خشبية تودع فى كوّات منقورة فى جدران الممرات ، وكانت الموميات تثبت فى صندوقها بملء الفراغ الداخلى بملاط الجبس ، وبذا تحتفظ الجثة بصلابتها فى قالب جصّى محفوظ بين جوانب الصندوق الخشبية ، وكان الكهنة يحفظون كل وعاء فى كوّته التى يغلقونها عليه بلوحة من الحجر الجيرى . يكتبون عليها بعض المعلومات المختصرة عن القرد ، مثل اسمه وتاريخ دفنه) .

(وقد عثرنا على بقايا طيور من فصيلة أبى منجل ، وأنية شديدة الضخامة ، ربما كانت تضم موميات نسور ، كما وجدنا تماثيل برونزية وصوراً من الفخار المطلى للمعبودات والحيوانات المقدسة ، وأدوات برونزته تستخدم فى تأدية الشعائر فى المعبد ، وصناديق معدنية وخشبية لحفظ الجثث المقدسة ، كما عثرنا على صناديق لطيور أبى منجل والثعابين وحيوانات النمس والجعاريين) .

(وفى سقارة وجدت جبانات الأبقار والصقور والقردة ، كما وجدت دهاليز بها حوالى نصف مليون مومياء للطيور المحنطة ، حُفظت كل منها فى إناء فخارى كالعادة) .

(وقد اقتضت إدارة مراكز عبادة الحيوانات وجباناتها قدراً كبيراً من التنظيم ، ووفرت عملاً لكثير من الأفراد ، فإلى جانب كهنة المعابد والمحنطين تحتم وجود أشخاص آخرين لنقل طعام الحيوانات ، وحجّارين لقطع الممرات ، وكتبة ، وعمال لصناعة الفخّار) .

(وقد قدر متوسط عدد الطيور التى كان الكهنة يدفنونها كل عام فى سقارة بعشرة آلاف طائر ، ويبدو أن الدفن كان يتم جماعيًا مرة فى كل عام ، وسط احتفال يتضمن القيام بموكب جنائزى مؤلف من الكهنة ، ويتجه نحو دهاليز الدفن) .

(وتوجد فى أبيدوس جبانة منقورة فى باطن الأرض مخصصة للكلاب التى ربما اعتبرها المصرى ممثلة للإله « خنتى أمينتو » أحد كبار الآلهة فى المنطقة) .

(وكانت القطط تدفن فى تل بسطة ، وسبيوس ، وثميدوس ، فضلاً عن مقبرة سقارة ، وكانت القطط تعبد باعتبارها رمزاً لباستت) - الموتى وعالمهم ص ٢٤٦ / ٢٥٤ .

هذا ، ولم يسأل عالم الآثار المصرية سبنسر نفسه كيف كان يتم الحصول على عشرات الآلاف من الطيور والحيوانات الميتة كل عام ؟ وهل ارتبط الموت بأوبئة مثلاً ؟ وهل كان لمؤسسة الجبانات رجال يجوبون الجبال والصحارى لجمع جثث هذه الحيوانات ؟ وماحدود ميزانية هذه المؤسسة ؟!

ألا تعد كثرة الموتى من هذه الحيوانات والطيور دليلاً على القحط الذى كان يصيب مصر بسبب أو بآخر ؟ وهل كان الذين يعانون من شرور القحط يفضلون الإنفاق على جثث الحيوانات : جمعًا وتحنيطًا وتشييد مقابر ومعابد ورواتب لكل القائمين على هذا ، مع أن الهياكل العظمية من الشعب الجائع تفتقد مُسكة الحياة؟!

والأهم من هذا كله ، كيف احتفظت مصر بوحدتها مع تمزق معتقدات أبنائها مع آلاف الآلهة ؟! إن إلهين اثنين كفيلان بإفساد الحياة أيما إفساد . . وعلى فرض أن المصريين ألفوا عبادة آلاف الآلهة فى خضوع واستسلام ، فهل كانوا يجدون وقتا لمجرد (تذكر) هذه الآلهة جميعا ؟! وهل كان الفلاح يستطيع الحصول على تمثال لكل إله . . وعلى تعويذة أو صلاة خاصة بهذا الإله ؟!

المثير للدهشة أن أكثر علماء المصريات لايكادون يختلفون فى إيراد هذه الروايات !!

ويضيف إرمان أن سيدة تقية قالت : (لقد أهديت ماتحتاج إليه الأرواح الحية - أرواح الحيوانات الميتة - حتى تكون لديها العطور والملابس الفائقة ، عندما تصعد أرواحها إلى السماء) !!

ويضيف أيضاً أن القوم (كانوا يحتفلون بعيد ميلاد أبيس كل عام ، سبعة

أيام، وإذا مات لبست النساء عليه ثياب الحداد ، و « لا يدخل أفواههن شئ غير الماء والخضرة » سبعين يومًا ، حتى يتم دفنه ، وكان يحج إلى قبره ، ويقام له شاهد يكتب عليه ماشاق من تاريخ حياة هذا العجل : متى ولد ، ومتى جئ به إلى معبد « بتاح » ، ومتى فارق الحياة ، وجملة أيام حياته ، وأية قرية شرفت بأن كانت وطنه ، وأى اسم كان لأمه) .

ويضيف أيضاً (إذا شبت حريق كان تفكير المرء فى إنقاذ القطط أشد من تفكيره فى إطفائها . . . أما من يقتل عامدًا حيوانًا مقدسًا ، فإنه كان يفرط فى حياة نفسه بنفسه) ، أى يحل دمه ، مع أنه لم يبق من الحيوانات غير المقدسة إلا الحمير والدواجن ، لأنهم لم يعرفوا الخيل والجمال إلا مؤخرًا ، و (كان قتل أبى منجل أو صقر ، ولو خطأ ، يعد خيانة عظمى) !!

ويضيف أيضًا : (إذا مات ثور دفن أمام المدينة ، بحيث يترك أحد قرنيه بارزًا فى الأرض ، علامة عليه ، إذ كانت جماعة من الأتقياء يجوبون البلاد ، ويجمعون عظام الثيران ، ليدفنوها فى مقبرة خاصة ، وإن كان البقر الذى كان يعد أقدس الحيوان جميعا لم يكن يدفنُ على هذا النحو ، وإنما كان يلقى فى النيل) - ديانة مصر القديمة ص ٣٦٠ / ٣٧٢ .

وهكذا نسى إرمان حق هذه الحيوانات فى التحنيط ، وفى جبانات خاصة ، لها مزارات ومعابد يؤدى الكهنة فيها طقوسًا واجبة .

ويأتى دور نفتالى لويس ، فلا يكتفى بالتوقيع توثيقًا لهذه الأخبار ، بل يهتم بموقف (الآخرين) من هذه (الأعاجيب) المصرية . . هذا أوكتافيوس يقوم بالتعرف على مصر التى غزاها حديثًا ، ويرفض زيارة أبيس ، قائلاً : إنه (تعود على عبادة الآلهة ، وليس الماشية) . . ويجب آلا ننسى أن أوكتافيوس هذا سيصبح إلها يعبده قومه ، فلا ينبغى أن نلومه . . أما جوفينال فيقول : (من ذا الذى لايعرف الوحوش التى تعبدها مصر المخبولة ؟ فقسم يُبجّل التمساح ، وآخر يقف فى خشوع أمام أبى منجل ملتهم الثعابين . . . وهنا يبجلون القطط ، وهناك يبجلون الأسماك ، وهذه مدينة بأكملها تبجل الكلب) - مصر الرومانية ص ١٠٨ .

ويتحدث نفتالى لويس عن سياح الإغريق والرومان الذين يأتون لرؤية الأهرام واللابرانث ، فيعدّلون من برامجهم السياحية ، (لكى يروا الكهنة يطعمون التمساح الذى كان يسكن البركة المقدسة الملحقة بمعبده فى أرسِينوى ، فالتمساح كان الإله الحارس ، وكان يستشار بوصفه الوحى المحلى) .

ثم يستطرد فيذكر أن الاحتفال بعيد ميلاد الإله التمساح كان (يستمر من سبعة أيام إلى تسعة عشر ، وهو مايجاوز - مع المناسبات الاحتفالية الأخرى - ١٥٠ يومًا فى السنة ، ولطول هذه المدة فى مجتمع زراعى كان يشترك القرويون فى بعض الطقوس ، ويقوم الكهنة بتأدية الباقى باسمهم) - مصر الرومانية ص ١٠٩ .

أيكون المتنبى قد قرأ شيئًا عن هذه المهازل ، حتى قال : (وكم ذا بمصر من المضحكات) ؟!

أم أن شيعة كربلاء قد عرفوا أنه كانت تقام مناحة للإله أوزيريس فى أبوصير ، وكان الشعب يضرب نفسه من شدة مايشعر به من فجيعة - ديانة مصر القديمة - ص ٣٧٤ - أو من شعور بالتقصير ، لأنهم لم يستنقذوه من يد أخيه (ست) الشرير ؟!

لقد كنا نسخر من أصحاب الملايين - فى كل من أوربا وأمريكا - الذين يوصون بثرواتهم لكلب أو قط ، وتتحكم هذه (الملايين) فى رقاب عشرات الأسر ، أو فى مؤسسة إدارية تنهض بخدمة سعادة أو سمو القط أو الكلب المليونير !! وكنا نسخر من رؤية الأبقار تتجول فى شوارع دلهى الجديدة التى خططت على أحدث نظم المدن ، وقد تُوقف حركة المرور ، دون أن يجرؤ أحد على اعتراض طريقها .

فإذا علماء المصريات يستخرجون لنا بدعا هى أخطر البدع ، وأشنع المساخر والملاهى !!

فى هذا الإطار المحموم من صناعة الآلهة : « آتوم » وأسرته من أبناء وأحفاد وإخوة وأخوات ، و « حابى » النيل ، و « أخت » المرعى ، و « نبرى » الحنطة ، و« أرموتيس » الحصاد ، و « تويرس » فرس النهر الأنثى ، و « بس » القَزْم العجيب ، و « أبيس » وفرقته من الآلهة الثيران ، و « سوبك » التمساح ، وغيرها من العائلات الإلهية المقدسة - كان لابد أن ينال الملوك من هذا (الكرنفال) حظ ، وحظ كبير .

لقد تم تأليه عدد قليل جدًا من البشر - عَدَا الملوك - وكان ذلك نوعًا من التقدير ، اعترافًا بإنجازاتهم وخصالهم الحميدة .

تمّ تألية أمنحوتب المهندس البارع ، فى عهد زوسر ، فى الأسرة الثالثة ، كما حدث نفس الشئ مع أمنحوتب بن حابو ، أحد وزراء الأسرة الثامنة عشرة .

وكشفت عبادة أمنحوتب - فى مرحلتها الأخيرة بصورة غير متوقعة - أنه هو نفسه إله الطب الذى يتّحِد فى هوية واحدة مع أسكليبوس **Asclepius** إله الشفاء عند الإغريق .

ولم تقبل حتشبسوت الطمّوح أن توصف بالألوهية ، هذا الوصف (الشائع) الذى يمكن أن يلحق بأى دعىّ ، بل أرادت توثيق الألوهية (بالروح والدم) ، فاخترعت ، أو اخترع لها الكهنة ، قصة لطيفة ، لتكون ابنة الإله آمون ، بنوة شرعية لامرية فيها ، وحتى يحق لها أن تكتب على جدران الدير البحرى : (أنا إلهة ، وأنا بداية الوجود) .

زعمت أن الإله آمون (رأى شابة وجد فيها غايته ، فأرسل « تحوت » لكى يستعلم أحوالها ، فرجع وأخبره أن هذه الشابة اسمها أحمس أو أحموس ، وهى أجمل من أى امرأة فى هذه البلاد ، وهى زوجة الملك تحوتمس ، وعندئذ تقمص آمون شكل الملك تحوتمس ، وقاده « تحوت » إلى الملكة التى كانت مستلقية تستريح فى قصرها الجميل ، فاستيقظت الملكة على عبير الإله ، وضحكت لجلالته ، فتوجه إليها وجسده يحترق بنار الحب ، وأفصح لها عن نيته ، وأظهر لها جماله

الإلهي . . . فرحت الملكة ، وامتلأ جسمها بحبها له ، وغمر عبير الإله جو القصر ، وكان عطره الزكي من بلاد البخور . . . أتم الإله معها كل ما أراد ، ثم تحدثت الملكة إليه قائلة : «ياسيدى ، ما أعظم قوتك ، وماأحلى أن يرى الإنسان جمال طلعتك ، لقد أسبغت على جلالتى من عظمتك ، فتسرب نداك فى كل أعضائى» . فقال آمون : «خنمت آمون حتشبسوت اسم الابنة التى وضعتُها فى جسدك ، وذلك تبعًا للكلمات التى نطقتُ بها الآن») - ديانة مصر القديمة ص ٦٤ .

وأراد تحوتمس الثالث ، زوج حتشبسوت اللدود ، أن يصنع إلها ، فيتجاوز بذلك أن يكون ابن الإله ، كما فعلت زوجه وأبغض الناس إليه ، فرفع الملك سنوسرت الثالث إلى مصاف الآلهة ، وجعل منه إلهًا حاميًا للنوبة ، وأقام المعابد لعبادته ، وقدم له القرابين .

ومن قبل وجد تحوتمس الثالث معبد «بتاح» فى طيبة ، فى حالة لاتليق بهذا المعبود العظيم ، فأمر جلالته بأن يحاط المعبد بحاجز ويعاد تشييده بالحجر الرملى الجميل الناصع البياض ، كما أمر بتقوية جدران السور حتى تتحدى الزمن ، وصنع أبوابًا جديدة من خشب الصنوبر ، قوائمها من النحاس المستورد من آسيا .

وكان الملك يتولى بنفسه ملاحظة تنفيذ أوامره ، وعندما تمت الأعمال افتتح المعبد ، ونثر حوله الحبوب ، وطرق باب المعبد بمطرقته اثنتى عشرة مرة ، وأحرق البخور إجلالاً للتابوت ، ثم طاف حول أسوار المعبد ، حاملاً فى كل يد إناء - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٢٦٥/ ٢٦٦ .

وكان أن رضى عنه الإله «بتاح» - كما ذكر القائد « آمون - إم - حب » فى مقبرته - فحين مات تحوتمس (صعد إلى السماء ، واتحد مع الإله « رع » ، واندمجت أعضاؤه الطاهرة مع الذى خلقها ، فلما جاء اليوم الثانى وأشرقت الشمس ، وأضاءت السماء ، جلس على عرش أبيه « عاخبرو - رع » ، واتخذ لنفسه الألقاب الإلهية) - مصر الفرعونية ص٢٨٧ - وما كان رمسيس الثانى الذى أراد الاستحواذ على أمجاد السابقين ليغفل عن هذا الأمر ، فقد أكد الإله «بتاح تاتنن» لرمسيس أنه قد تنبأ بالأعمال العظيمة التى سيصنعها له ،

فقال : (تقمصت صورة « تيس منديس ، واضطجعت بجانب أمك الجميلة لكى تلدك ، وأصبحت أعضاؤك كلها إلهية) .

وهذه القصة دونت فوق جدران معبد أبو سمبل الذى بناه رمسيس فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد - ديانة مصر القديمة ص ٦٥/ ٦٦ .

* كان الملك هو الوارث لمعبود القبيلة ، ومن ثم أصبح القوم يعتقدون فيه أنه إله حقيقى ، فعندما كان ينتقل فى أرجاء مقره أو خارجه ، كانت الرعية تركع لجلالته الإلهية ، وتقبل التراب تحت قدميه ، وعند تتويجه كان يقام احتفال عظيم ، ويصبح يومه عيداً يتم الاحتفال به فى كل عام .

وصار حقًا مكتسبًا لهذا الملك الإله يقوم مقام الكاهن الأكبر فى كل المعابد ، وفى كل الطقوس الدينية ، ليتولى أمر الوساطة بين الشعب والآلهة ، ويستنطق الوحى متى شاء ، أو تصبح عبارته وحيا واجب الأداء .

وبعد وفاته يكون قبره موضع تقديس ، كما يقدس محراب أى إله ، وكانت حاشيته وعظماء البلاد يدفنون حول قبره ، أو بالقرب منه ، ليكون لهم شرف القيام بخدماته فى الآخرة ، أو يكون لهم شرف اللحاق به فى السماء ، حيث جنة الملوك .

ولعل مايجرى اليوم من (تقديس) الرؤساء ، واستلهامهم التوجيه والإرشاد ، واتخاذ مقابرهم مزارات رسمية ودبلوماسية - مما يقرب إلى أذهاننا حكاية الملك الإله .

لكن المثير للدهشة هو تلك العلاقات (الحميمة) بين رمسيس الثانى وبين عظماء الآلهة .

جاء فى نقوش القاعة الأولى من معبد (أبو سمبل) أن أوزير قال لرمسيس : (إن قلبى فى راحة بفضل ما فعلت ، وإنى لمبتهج بما قد أمرت به لى ، وإنى لفرح بتقديمك العدالة لى قربانًا ، لأنى أعيش بأعمال الخير التى أهديتنيها مدة أمد السماء ، وإن أعمالك الصالحة تشبه أعمال قرص الشمس ، وستبقى أنت مابقى « آتوم » ، لأنك تسطع على عرشه) .

وقال رمسيس لأوزير : (إنى تحت تصرفك ، وتحت سلطانك ، ولما كنت أعرف أنك تحب العدالة فإنى أقدمها لجلالك ، حاملاً إياها على راحتى أمام وجْهك ، حتى تجعل الأرض ملكًا لى فى سكينة ، وحتى تهبنى الخلود بوصفك ملكًا ، والأبدية بوصفك راعيًا الأرضين - مصر - وإنى على استعداد لتنفيذ مايحبه قلبك كل يوم ، بلا انقطاع) .

وفى هذا الجو (الأسرى) تلطفت إيزيس ، وحنت على رمسيس ، ثم أعلنت على الملأ الأعلى والملأ الأدنى : (يابنى العزيز ، محبوب آمون ، رمسيس ، إن مدة أجل السماء ، ومَمالك السيد المهيمن « أوزير » جميعها ، وسِنِى « حور » و« ست » - ستمنح لك ، بوصفك ملكًا على الأرض) .

عند ذلك يتقدم الإله « بتاح » ، والد رمسيس ، فيعده بالسعاده والحكمة والقوة :

(عندما أشاهدك يفرح قلبى ، وأستقبلك بضمة ذهبية ، وإنى أُحيطك بالبقاء والثبات والرضى ، وإنى أمنحك الصحة وفرح القلب ، وإنى أغمسك فى الابتهاج والفرح وسرور القلب والحبور أبدا) .

(إنى أجعل قلبك قدسيًا مثلى ، وإنى أعدك أن يتبصر قلبك ، ويكون نطقك مفيدًا) .

(لقد مكنتك ملكًا مخلدًا ، وحاكمًا متينًا أبدًا) .

(ولقد وضعت الرعب منك فى كل قلب ، وحبك فى كل جسم ، ومكنت سلطانك فى كل مملكة ، والخوف منك يحيط بالجبال ، والرؤساء يرتعدون عند ذكرك) .

كل هذا شجع رجال البلاط على السجود للملك الذى تتبارى الآلهة فى استرضائه ، وعلى الابتهال له : (إنك مثل « رع » فى كل ماتفعل ، وكل مايرغب فيه قلبك ينفذ ، وإذا رغبت أمرًا فى أثناء الليل وقع بسرعة فى الصباح ، لقد كنا نشاهد عدداً عظيمًا من أعاجيبك ، منذ أن ظهرت ملكًا على الأرضين ، بما لم نسمع به ، ولم تره أعيننا ، ومع ذلك وقعتْ ، أما كل مايخرج من فمك فإنه مثل

كلمات « حوراختى » ، ولسانك كفّتا ميزان ، وشفتاك أكثر من قسطاس « تحوت » المستقيم دقة ، وأى شئ لاتعرفه ؟ ومن ينجزه مثلك ؟ وأين المكان الذى لم تره ؟ على أنه لم يوجد إقليم لم تطأه قدمك) .

* ونشأ عن كثرة الآلهة ، وتنافس الملوك الآلهة أن صار لزعماء الآلهة أحزاب ، على رأس كل حزب ملك ، ويتبع الملك كهنته وجيشه وعمال المقابر وبقية أفراد شعبه .

كان ينتمى إلى (أسرة رع) ملوك الأسرة الخامسة ، كانوا يعبدون هذا الإله بخاصة ، حتى إن كلا منهم ابتنى لنفسه فى مقره معبداً للإله « رع » ، على نمط معبد هليوبوليس الأكبر .

وكان من أكبر علامات الشرف التى تمنح لشخص ما هو السماح له بالقيام بخدمة « رع » فى ذلك المعبد الخاص بالملك . وهكذا أصبح « رع » الإله المفضل لدى الطبقات العليا .

أما (آمون) فقد تشكلت أسرته ، أو حزبه ، من أسلاف الأسرة الثانية عشرة الذين اختاروه إلها (عائليا) . . ومن ثم نجد أول ملوك الأسرة الذى حكم مصر حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م يتخذ الاسم المميز (آمون - إم - مات) ، أى (آمون فى المقدمة) .

وبعد أن تمكن أمراء طيبة من تحرير مصر من النيِّر الأجنبى ، وعندما امتد حكم الأسرة على مصر كلها ، دون أن تهجر مقرها طيبة - صار من الضرورى أن يصبح (آمون رع) إلها للممْلكة ، وأكبر إله للبلاد .

ومنذ ذلك الوقت اتخذ لقب ملك الآلهة .

ولما مات أخناتون الذى خرج على أسرة آمون ، وشكل (حزب آتون) ، كان أنصار آمون ينشدون فى ابتهاج : (الويل لمن يمُسك ، لقد أسست مدينتك خير تأسيس ، ولكن ذلك الذى حاول المساس بك قضى عليه ، الخزى لمن يسئ إليك ، فى أى بلد كان . . إن شمس من لايعرفك قد غربت ، أما من يعرفك فتضئ . . إن معبد من مسّك فى ظلام ، وأما الأرض كلها ففى النور . . إنه كان

حقًا ظلامًا ذلك الذى خيّم على مجرم تل العمارنة المخيف ، وقد اختفت كل المعلومات الخاصة به) .

ولآمون رع وحده (أنشئت سجلات المساحات والمقاييس ، ومن أجله تفد جميع السفن من البلاد الأجنبية محملة بالثروات . . من أجله ينمو شجر الأرز الذى يستعمل فى بناء قاربه الفاخر . . الجبال تزوده بالحجارة لمبانيه الضخمة . . الآلهة الأخرى لاتحيا إلا بفضل طيبته . . إنها تلتمس منه التزود بالحياة ، هو يعطيها الخبز من ممتلكاته ، وبفضله كذلك لها نصيبها من المنشآت والتماثيل والمعابد فى مصر ، وهو له فى كل مكان معابد ، فيستطيع أن يسكن حيثما يطيب له ، له العالم بأسره ، حتى بلاد الأعداء) .

وزعم أنصار « آمون رع » - كما يزعم اليوم بعض المتصوفة والمشعوذين - أن له اسمًا سريًا يجهله غير كبار الكهنة ، من يلفظهُ سواهم يخر صريعًا ، ولم يسمّ «آمون» بالخفى لغير ماسبب ، فهو كائن ملئ بالأسرار - ديانة مصر القديمة ص ١١٨/ ١٥٢ .

وتبعًا لهذه التوجهات الحزبية ، وتعبيرًا عن العلاقة الوثيقة بين الملوك والآلهة ، ومادام فى وسع الملوك أن يصيروا آلهة - فقد سجلت (متون الأهرام) أن الملك المتوفى ليس بإنسان ، (آباؤه ليسوا من البشر ، وآمهاته لسْنَ من الناس ، إنه « تحوت » أقوى الآلهة ، أو هو « شو » ابن « رع » الذى يحمل السماء ، ويتزعم الأرض ، ويقضى بين الآلهة ، طوبى للذين يرونه وهو متوج بحلية «رع» ، وعليه نقْبته كحاتحور ، إنه يغدو إلى السماء ، فيجد « رع » واقفًا ، فيجلس إلى جَانبه ، ولايسمح له « رع » بأن يرتمى على الأرض ، لأنه « يعلم حقًا أنه أعظم منه » ، كما يعلم أن هذا « الممجّد لايفنى » ، هو ابنه ، فيبعث الرسل من الآلهة إلى سكان السماء ليعلنوا أنه قد ظهر لهم ملك جديد) - المصدر السابق ص ٢٤١ .

* ومن طريق الولاء لرؤساء الأحزاب (الآلهة) صارت هناك صلوات أقرب إلى تلك الابتهالات التى تؤدى اليوم لحكام (الدول النامية) ، ورؤساء الحزب الحاكم .

يقول رمسيس الثالث فى إحدى صلواته : (إنى ابنكم ، صنيعة ذراعيكم ، لقد أقمتمونى ملكًا له الحياة والصحة والقوة على كل الأرض ، ولأجلى صنعتم الكمال على الأرض . . إنى أؤدى وظيفتى فى سلام ، ولا يألو قلبى جهداً عن البحث عن كل ماهو نافع وضرورى لصالح هياكلكم ، وقد وهبتها - بمقتضى قرارات سامية دونت فى كل أبهاء المعابد المنقوشة - الرجال والأراضى ، وقطعان الماشية والمراكب ، وتمخر صنادلكم عباب النيل ، وعممت الرخاء فى هياكلكم التى كانت خَربة من قبل ، وقدمت لكم قرابين مقدسة ، بالإضافة إلى ماسبق تقديمه لكم ، ولأجلكم أمرت بصياغة الذهب والفضة واللازورد والفيروز فى بيوت الذهب ، لقد راجعت كنوزكم ، وأكملت مانقص منها بأشياء كثيرة) .

(لقد ملأت مخازن غلالكم بالوفير من الشعير والقمح ، وشيدت لكم القصور والهياكل والمدن ، حيث نقشت أسماؤكم إلى الأبد) .

(لقد بنيت مراكبكم الجارية فى النهر ، ومرساها الكبير مكسوّ بالذهب) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٢٦٢/ ٢٦٣ - ومادام الزعيم الإله ممثلاً فى (جلالة) الملك ، فلقد كان الملك (هو الذى يضاعف الخيرات ، ويعرف كيف يعطى ، هو الإله ، بل هو ملك الآلهة ، يعرف من يعرفه ، ويكافئ من يخدمه ، ويحمى أتباعه . . هو « رع » ، جسده الظاهر هو القرص ، ويحيا إلى الأبد) - المصدر السابق ص ٢٧٧ .

صار الملك كل شئ ، كل شئ يجرى فى البلاد لايتم إلا بتوجيهاته السنية ، وإلا توقفت عجلة الحياة .

وحتى ينهض الملك بكل هذه الأعباء ، ولأنه ذو صفات إلهية ، أو أن الآلهة ذوو صفات ملكية - فقد (وجب أن يكون للملك أرواح كثيرة - وأكثر من «كا» واحدة ، فإذا ما تحدث المصرى عن « أرواح الملك » فإنه كان لايقصد إلا التعبير عن سلطته القوية) - ديانة مصر القديمة ١١٣ .

نتيجة لضعف الدولة وكثرة الآلهة ، لزم القيام بعملية تنسيق ، إذ (نجم عدد من الصعوبات من جراء حشد تلك الآلهة الكثيرة فى ديانة واحدة تتبعها الدولة . . بيد أن الكهنة قد نجحوا فى خلق نوع من النظام ، عن طريق إدماج الآلهة والآلهات فى مجموعات عائلية ، غالبًا ما تكون ثالوثًا من طفل ووالدين ، مثل آمون وموت وخونسو فى طيبة ، وبتاح وسخمت ونفر - آتوم فى ممفيس) - الموتى وعالمهم ص ٢٣٤ - وكذلك تجمع فى ممفيس ثلاثى من (بتاح وسوكاريس وأوزيريس) ، وهناك (سمة مذهلة تطبع النصوص المتعلقة بهذا الثالوث فى منف - كما كانت فى ثالوثات أخرى أيضًا - وأعنى بها النظر إلى هذا الثالوث على أنه وحدة ، ومن الواضح أننا نجد هنا استباقًا للعقيدة المسيحية ، حتى لو أعوزنا الدليل الذى يثبت أن لها تأثير معينًا على الصياغة المسيحية) - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٥٢ .

وثمة محاولة أخرى للتنسيق تتمثل فى تكوين (تاسوع) ، مثل تاسوع طيبة ، وتاسوع أبيدوس ، وتاسوع هليوبوليس ، وفى (تعاليم منف الكهنوتية خلق بتاح من نفسه ثمانية آلهة باسم بتاح ، وأضيف إلى المجموعة الصغيرة « نفرتم » الزهرة التى تدخل السعادة على قلب إله الشمس كل يوم ، ليتكون التاسوع الذى يعادل تاسوع هليوبوليس) - ديانة مصر القديمة ص ١٠٦ .

وكان للإلهة « حاتحور » مكان فى معظم مناطق العبادة لآلهة مصر ، أى أنها كانت قاسمًا مشتركًا فى عمليات التنسيق .

ويعلل سبنسر كثرة المعبودات والحاجة إلى التنسيق بينها بأن (الكثير من المعبودات قد نشأت فى إطار أشكال من العبادات الموغلة فى القدم ، بينما ظهر آخرون فى فترة أحدث عهدًا ، فإن هذا يعنى أن الآلهة المصرية تغطى مراحل مختلفة من مراحل تطور الفكر ، وفيها تتعايش معتقدات مبكرة ومتأخرة ، جنبًا إلى جنب) .

(وتتميز مصر عن غيرها بأنها لم تكن تهمل المعتقدات القديمة لتستبدل بها مايجدّ من معتقدات ، وهذا التردد فى استبدال الجديد بالقديم هو المسئول

عن استمرار عبادة الأرباب المحليين) - الموتى وعالمهم ص٢٣٤ .

وكأن هذا طبيعة مصرية ثابتة لامفرّ منها ، تمثلت استيراد آلهة من الدول المجاورة ، واليوم تتمثل فى كثرة القوانين وتراكمها ، حتى أعيا معها كل تنسيق ، كما شق معها سرعة التقَاضى ، والحصول على الحقوق ، ووجد المجرمون وفئران العدالة معها ألف مخرج ومخرج ، ويجب ألا ننسى أيضًا استيراد أولياء اللهَّ الصالحين ، والتنافس فى إعلاء مقابرهم ، وملء خزائنهم بالنذور ، وفرش مساجدهم بأفخر السجاجيد العجمية والعربية .

وما أظن هذه (الطبيعة المصرية) الشاذة إلا تعبيراً عن شعور غير سوى ، بسبب من طول المعاناة . . لقد استبد الكهنة - تحت ستار الملوك الآلهة - بمقدرات شعب حوصر بمئات القوانين والالتزامات ، أو بتراكماتها ، حتى أصبح هذا الشعب (القوى القادر) الحريص على مضاعفة غلة أرض من الذهب - لايكاد يجد قوت يومه ، مع أن جراد الكهنة الملوك الآلهة لايموت إلا من الكظة أو من الحسرة حين يغدُر اللصوص باللصوص .

إرهـــــاصــــــات

هكذا تبدو صورة (الآلهـة) فى حياة مصر القديمة ، كما (أفتى) بذلك علماء المصريات .

آلاف ، بل عشرات الآلاف من الآلهـة ، فى دولة حريصة كل الحرص على وحدة المكان ، ووحدة النظام ، مع أن تعدد الآلهة يتنافى مع الوحدة السياسيـة ، وعـساهم شـعـروا بهـذا حين نزعت نزعـات خـاصـة بمنف ، أو بطيـبـة ، أو بهليوبوليس ، أو بأهناسيا .

(إن «آمون» مستمد من الأصل «آمن» ، أى الخفى ، و «آتوم» من «تم» ، أى الكامل ، و «أفـويس» معناه فـاتح الطريق ، و «نفـتيس» سيـدة المسكن ، و«حاتحور» مسكن حورس) - آلهة مصر ص١٩ .

ومع هذا ، نجد من دعاة (التعدد) من يقول :

(فى الواقع لايوجد مايؤكد لنا أن هذه ليست إلا ألبسة مصرية أضيفت على آلهـة سابقة) - المصدر السابق .

ولايلبث أن يقول نفس المصدر ص٢٤ : (إن آمون - كما تعلم طائفة الكهنة فى طيبـة - كان الواحد ، وليس غيره من الآلهـة الأزلية إلا بعض أسمـائه التى تعبر عن صفة من صفاته فحسب) .

ويقول فى ص ١٢٢ : (إن مفكرى طيبـة الدينيّين كـانوا من أزمنة طوال قد تصوروا الوحدة الإلهية ، وعبروا عنها تعبيراً يبلغ حد الكمال ، غير أنهم كانوا لايـؤدون ذلك بوسيلة تصويرية ، وقد استخدموا لغة مشتركة فيما يبدو ، غير أن

المرء - عندما يقوم بتحليل مناهج تعبيرهم - لايمكن أن يتطرق شك إلى ذهنه حول فكرهم) .

إنه يتحدث عن مفكرى طيبة ، لا أخيتاتون . . ومعروف أن كهنة طيبة هم أرثوزكس الديانة المصرية . . لكنه إزاء نصوص (لايمكن أن يتطرق شك) إلى صدق تعبيرها عن الإله (الخفى) آمون :

(آمون الذى أنجب نفسه فى البدء ، دون أن يعرف سره

لم يوجد إله قبله .

ولم يكن يوجد إله آخر معه ليحدثه عن شكله

ولم تكن له أم لتصنع اسمه

ولم يكن له أب نسله ، وقال : « هذا هو ذا أنا »

ذلك الذى قام بنفسه بصنع بيضته

القوى الغامض الميلاد ، والذى خلق جماله

الإله الإلهى [1] الذى جاء للوجود من تلقاء ذاته)

(إنه خفى عن الآلهة ، لايعرف المرء مظهره

إنه أبعد من السماء ، إنه أعمق من الجحيم

إن أى إله لايعرف شكله الحقيقى

إن صورته لاتبسط فى مطوىّ الكتب

ليس لدى المرء عنه آية شهادة تبلغ الكمال

إنه بالغ الخفاء ، حتى إن مجده لاينكشف

إنه أكبر من أن يفحص ، وأعظم من أن يعرف

إن المرء ليسقط فى الحال ميتا من الرعب

---

(١) لعل هذا الوصف يشير إلى الإله البشرى الذى هو الملك .

إذا تلفظ باسمه الخفى الذى لايستطيع أحد [1] معرفته) .

(إن التاسوع يبقى مجتمعا فى أعضائك ، وإن صورتك هى كل إله اتحد فى جسمك ، لقد كنت أول من تفجر ، لقد استهللت البداية) .

(ثلاثة هى كل الآلهة : آمون ورع وبتاح ، ولا توجد أشباه لها ، آمون هذا اسمه باعتبار أنه خفى ، ورع هو وجهه ، وجسمه هو بتاح) - آلهة مصر - ص١٢٤/ ١٢٦ مع إعادة الترتيب .

ولم يكن «آمون» وحده هو الذى يحظى بمفهوم الألوهية المجردة من الشرك، بل كان أوزيريس كذلك تتمثل فيه الوحدة ، كما جاء فى نقش على شاهد جنازى لرجل يدعى أمينموس ، حوالى ١٥٥٠ ق.م ، توجه بالدعاء إلى أوزيريس ، بوصفه الإله الذى يعبد فى كل المعابد ، ولم تبد منه إشارة إلى الجانب السيئ من مملكته فى العالم الآخر ، وعظّمت الأنشودة مملكة أوزيريس وأعمال إيزيس ، وسعادة مملكة حورس ، دون أن يخرج هذا الإطار الثلاثى عن وحدة الإله ، وماإيزيس وحورس إلا من رموز الصفات الإلهية :

(حمداً لك ياأوزيريس ، يارب الأبدية ، وملك الآلهة

ياعظيم ، ياأول إخوته ، وأكبر الآلهة الأولين

يامُرسى ماعت - القانون - فى أنحاء ضفتى النهر

ومُجلس الابن على مقعد الأب

ومن يحبه أبوه « جب » وتحبه أمه « نوت »

ياعظيم البأس حين يسقط العصاة

وياشديد الساعد حين يقتل أعداءه)

(لقد اخترق تاجه السموات ، واختلط بالنجوم

قائد كل إله ، واضح القيادة

(١) الأدق لايستطيع كل أحد معرفته ، وهذا هو مفهوم الصوفية فى الأديان الكتابية .

ذلك الذى يَحبوُه التاسوع الأكبر ، ويُحبه التاسوع الأصغر

وحَمَتْه أخته ، تلك التى ردّت الأعداء

والتى جعلت أعمال صانع الأذى تتقهقر بقوة فمها

الممتازة اللسان ، والتى لاتخطئ كلماتها ، الواضحة القيادة

إيزيس القوية التى عملت من أجل أخيها ، والتى بحثت عنه بغير كلل

والتى جاءت مصر كالحدأة النائحة لاتستريح حتى وجدته

والتى قوّت ضَعف من كان متعب الفؤاد

والتى تلقت البذرة ، وحملت بالوريث)

(يامن له اجتمعت المحكمة الصحيحة ، والتاسوع ، ورب العالمين بنفسه ، حيث اتحد أرباب ماعت فيها ، وتولى حكم ضفتى النهر ، والتاج الأبيض ثابت فوق رأسه .

واحتسبت له الأرض ملكًا

والسموات والأرض تحت رعايته

وعهد إليه بالبشر ، عامة الناس وكرام الناس والإنسانية

وكانت مصر ، مناطق الشمال ومدار الشمس تحت مشورته

كذلك ريح الشمال ، والنهر ، والفيض ، وأشجار الحياة ، وكل نبات أخضر

الكل يهلل ، والقلوب راضية ، والقلوب مفعمة بالسرور

الكل سعيد ، وكل امرئ يعبد جماله

وما أحلى حبه على ملأ منا) - أساطير العالم القديم ص ٦٥ / ٦٧ .

الأنشودة طويلة ، اقتطفت منها أجزاء أكثر دلالة ، وإن كانت ليست نصّا فى الوحدانية ، لأنها خاضعة لأسطورة ثلاثى الخير والشر ، والموت والحياة ، ومع

ذلك فإن الإطار العام يُخوّل لأوزيريس السيطرة على كل شئ ، لأنه (رب الأبدية ، ملك الآلهة ، مُرسى ماعت » ، قائد كل إله) . . أما ما هو عن إيزيس وحورس فمن شأن العمل المسرحى الذى يجسد المعانى المجردة التى تشغل الناس فى كل زمان .

ولأن أسماء آمون و أوزيريس و حورس مجرد تعبير عن إله واحد ، فإن (متون الأهرام) تتحدث عن حورس بأنه (الأزلى) الذى ظهر فى الوجود البدائى قبل أن تخرج إلى الوجود السماء والأرض ، (وبذلك فقد عرفت فكرة وجود الإله الأزلى الكونى ، منذ أول بدء التاريخ المصرى) - أساطير العالم القديم ص٢٩ .

فإذا جاء أخناتون بعد ذلك ليتحدث عن (وحدانية) أتون ، فهو لم يأت من فراغ ، ولم يَبْتدع هذا المعتقد ، إنما جاء ليجدد ويخلّص العقيدة مما خالطها من أوشاب الزمان ، ومن مخلفات الطغيان السياسى ، ومن غشاء الاضطراب الاجتماعى ، مع قدر كبير من الجهل والغفلة ، والاستسلام لما تلهج به الألسنة ، دون قدرة أو رغبة فى الحوارأو فى التحرى .

* يقول صاحب موسوعة (مصر القديمة) : (تدل البحوث العميقة التى قام بها علماء الآثار على أن فكرة التوحيد كانت متغلغلة فى التفكير الدينى المصرى منذ أقدم العهود ، وهذا الإله الواحد كان يمثل عند المصريين فى أعظم الأجرام السماوية حجمًا ، وأهمها نفعًا ، وأعنى بذلك إله الشمس « رع » ، وقد كان يعبر عنه بصفة مبهمة منذ عهد بناة الأهرام بلقب « غير المحدود ») .

(وقد بدأت فكرة الوحدانية تأخذ شكلاً أوضح فى نصائح « مريكا رع » ، وقد وُصف بأنه الإله العادل ، وأنه يحكم مصر وحسب ، وقد اندمج ملوك فى إله الشَمس ، باعتبار أنهم آولاده ، وكان حكم إله الشمس مقصوراً على مصر إلى أن امتدت فتوحات مصر ، وبخاصة على يد « تحوتمس الثالث » من الشلال الرابع إلى أعلى دجلة والفرات ، وجزر البحر المتوسط فامتد تبعًا لذلك سلطان الإله الأعظم إلى هذه البقاع) .

(من ذلك يتضح أن التوحيد لم يكن إلا السلطان الإمبراطورى فى التدين) .

(لكن « أمنحوتب الرابع » كان فى مخيلته مسرح أفسح وأوسع من القطر المصري ، إذ إن الرمز الجديد قد مثل لنا الشمس بقرص تخرج منه أشعة متفرقة تنتشر فوق الأرض ، كما كان شعاع من أشعته ينتهى بهيئة يد بشرية ، وقد كان ذلك الرمز يدل على السيطرة القوية الخارجة من منبعها السماوى ، وهى تضع أيديها تلك فوق العالم ، وعلى شئون البشر الأرضية) .

(وقد أقام أخناتون لنفسه حاضرة جديدة ، فى منتصف الطريق بين طيبة والبحر المتوسط تقريبًا ، فى بقعة تعرف فى وقتنا هذا باسم « تل العمارنة » ، وسماها « أخيتاتون - أفق آتون » ، كما أسس فى بلاد النوبة مدينة لآتون مشابهة ، ومن المحتمل أنه أقام مدينة أخرى فى آسيا ، وبذلك صار لكل من الثلاثة الأجزاء العظيمة التى تتألف منها الدولة - وهى مصر والنوبة وسوريا - مقر لمذهب « آتون ») - الأدب المصرى القديم جـ٢ ص ١٠٩ / ١١٤ .

وهذا القول - من خلال عرض الأدب المصرى القديم - لم يتجاوز الرؤية العامة التى لهج بها غيره من علماء المصريات .

ويقف الأستاذ العقاد عند أخناتون ، ثم ينطلق كعادته إلى الاستطراد ، وعرض معلوماته ، دون أن يخترق أفق التوحيد من قبل أخناتون ، كأنه نسى المأثورات الفلسفية التى تتحدث عن (إدريس) المصرى الذى تسميه المأثورات اليونانية (هرمس) ، وكأنه نسى طوفان نوح الذى ضربت أخباره كل الآذان ، فقال : (لم تعترف أمه قديمة ترقت إلى الإيمان بالوحدانية - بإله واحد لا إله غيره - غير الأمة المصرية . . فعبادة « آتون » التى دعا إليها أخناتون ، قبل ثلاثة وثلاثين قرنا ، كانت غاية التنزيه فى عقيدة التوحيد ، كما عرفها الأقدمون) .

(ومن علماء المصريات ، وفى طليعتهم بريستيد و ويجال ، من يرى - بعد المقابلة بين صلوات أخناتون والمزامير المنسوبة إلى داود - أن حكماء الإسرائيليين كانوا يطلعون على أسرار المحاريب فى مصر ، ولاسيما الأسرار التى كانت محجوبة عن الدهماء ، إذ كانت أسرار الديانة العليا مقصورة على كبار الأحبار وتلاميذهم المختارين) .

(ومن أسماء الملوك فى بلاد العرب الجنوبية يبدو أنهم عرفوا الوحدانية التى

يغلب فيها إله واحد على سائر الآلهة واسم إيلومى ، إيلوم ، الذى تولى الملك فى بابل الجنوبية معناه ، أن اللَّه هو الإله الحق) .

(ويقول عبد اللَّه فلبى ، فى كتابه « سوابق الإسلام » أن هذه الكلمة - إيلوم - هى شهادة الوحدانية فى طورها الأول ، ومن مرادفاتها فى أسماء الشعب «إيل رب» ، و «إيل ملك» ، و «إيل راب» ، وكلها من قبيل القول بأن اللَّه هو الرب ، وأنه هو الملك ، وأنه هو الرئيس المطاع ، ولايقال هذا إلا لتغليب إله واحد على سائر الآلهة أو لنفى صفة الإلهية عن سواه) - أبو الأنبياء ص ٢١٢ .

هل نقول إن عذر العقاد أنه يتحدث عن النبى (إبراهيم) ، فارتبط بالتيار الدينى الذى أحاط بالبيئة التى نشأ فيها إبراهيم ، وترحّل فى أكنافها ، أم أن ثورة أخناتون على طيبة وكهنتها وأناشيده الصريحة فى الوحدانية وقفت به عند هذا الحد ؟

إن كثيراً من الدراسات تحدثت عن الوحدانية عند أخناتون ، لأنه قال : (أنت الإله الأحد ، لا إله غيرك / فأنت نفس رع الذى يشرق فى السماء . وآتوم خالق البشر / الذى يسمع دعاء من يدعوه / والذى ينجى الإنسان من المتكبر / والذى يجرى النيل لأجل من هو بينهم / والهادى لجميع الأنام / وعندما يشرق يعيش البشر / وقلوبهم تحيا عندما يرونه / والذى يمنح النفس مافى البيضة / والذى يجعل البشر والطيور تعيش / والذى يرزق الفئران بحاجاتها فى أحجارها / وكذلك الديدان والحشرات) - فجر الضمير ص ٣٣٨ .

(أيها الخالق لبذرة الحياة فى الناس / إنك أنت الذى يجعل من البذرة السائلة إنساناً / إنك أنت الذى يعنى بالطفل فى بطن أمه / وأنت الذى يهدئه بما يوقف بكاءَه ، لأنك تعنى به وهو فى الرحم / أنت الذى يعطى النَّفْس ليحفظ حياة كل من يخلقهم / عندما ينزل الطفل من بطن أمه ليتنفس / فى اليوم الذى يولد فيه / تفتح فمه ، وتمده بكل مايحتاج إليه / وعندما يصرخ الكتكوت وهو داخل البيضة / فأنت الذى تمده بالنفس فى داخلها ليعيش / وعندما يتم خلقه داخل البيضة تجعله يكسرها / ويخرج من البيضة وهو يوصوص إذا ما حان موعده / ويمشى على رجليه عندما يخرج منها) - مصر

الفرعونية ص٣١١ - (الماشية جميعها تقول : السلام عليك / وكل مملكة تقول : العزة لك / بمقدار علو السماء ، وعرض الأرض ، وعمق البحر) - فجر الضمير ص ٣٣٦ .

الفقرة الأخيرة قد تلتقى بقول اللّه فى قرآنه : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ .

جاء فى متون الأهرام : (إنى «آتوم» ، أنا الذى كنت وحيداً / وإنى «رع» عند أول ظهوره / وإنى «الإله العظيم» خالق نفسه / والذى سوّى أسماءه ، ورب الآلهة / والذى لايدانيه أى إله بين الآلهة ، البارحة ملكى ، وإنى أعرف الغد) - فجر الضمير ص ٢٥٢ .

أليست هذه من صفات اللّه العظيم فى كتبه السماوية ؟

يقول الدكتور أحمد فخرى : (كان آتون هو الإله الواحد الذى لا شريك له ، ولكن مثل هذا التعبير كان يطلق على عدد غير قليل من الآلهة ، ومنها آمون ، ولهذا لم يكن جديداً على الديانة المصرية ، لكن الجديد - فى عهد أخناتون - هو تحريم عبادة آلهة أخرى فى الوقت نفسه) .

(وكان جديداً أن صار أخناتون هو الرسول والواسطة بين آتون والناس ، ولكن لم يمنع ذلك وجود كهنة لآتون ، سواء فى تل العمارنة أو فى البلاد الأخرى التى نشأت فيها معابد لهذا الإله) - مصر الفرعونية ص ٣٠٧ / ٣٠٨ .

* إن أحدا لايجرؤ على القول بأن ماوصلنا من نصوص مصرية هو نص صريح فى الوحدانية ، بسبب من عوامل كثيرة رهن بتطاول الزمن ، وطغيان السياسة ، ونقص النصوص ، وعدم القدرة على الفهم الكامل للنصوص .

كما لايجرؤ أحد على القول بأن الديانة بدأت فى مصر ، وإلا ترتب على هذا أن أول تجمع بشرى كان فى مصر ، وليس من دليل قاطع على هذا ، كما أنه ليس من دليل يؤكد قيام أول حضارة فى مصر ، لأن الطبيعة التى أنشأت الحضارة المصرية لاتختلف فى كثير عن الطبيعة التى أنشأت الحضارات القديمة الأخرى : سومرية ، وبابلية ، وهندية ، وصينية ، وحضارات سكان أمريكا الأصليين ، هنوداً حمراً أو غيرهم .

إن الأمر يرجع إلى أن التاريخ كان أسبق إلى تدوين أخبار الديانة المصرية ، بحكم موقع مصر من الأحداث ، أو ماسمى أخيراً بعبقرية المكان ، وبحكم قدرتها على التدوين بالصورة وبالحرف على أدوات قادرة على البقاء ، وبفضل قوة فاعليتها فيما حولها ، وبفضل الهياكل الكبرى التى أقامتها فى زمن مبكر .

لكن ماوصلنا من نصوص يؤكد أن ثمة (أثارة) من عقيدة سماوية لاتفتأ تشعّ بين السطور ، سواء فى صفات اللّه الواحد الأحد ، أو فى علاقته بمخلوقاته . . بل إن المعتقد الذى يتردد فى جميع الكتب السماوية عن أن كل شئ كان بكلمة اللّه (كن) ، وأن (فى البدء كان الكلمة) ، إنما هو ماجاء فى (وثيقة **«لاهوت منفيس»** ، أو «تعاليم منف الكهنوتية» ، من أن خلق العالم خطط له عقل الإله ، وكانت وسيلة التنفيذ كلمة نطق بها ، وهذا استباق مذهل لعقيدة الإغريق التى ظهرت بعد ذلك بفترة طويلة حول اللوجوس Logos ، أو الكلمة المقدسة) - المعتقدات الدينية لدى الشعوب ص ٤٧ .

ويقول فرانسوا دوماس : (لقد بدءوا بوضع نظرية تامة للمعرفة ، وفى نهاية الأمر عرفوا نهجًا خالقًا أصيلاً حقًا : تحمل الحواس المعرفة إلى القلب ، وهو يشكل فكرة ، وينفذها بإصدار أوامر نافذة تدرك نتيجتها المادية بالحس ، وعلى هذا فالخلق بالفكر ، ويتجلى بالكلمة الخالقة ، والإله « بتاح » يفكر فى قلبه ، فى الأشياء والكائنات ، ثم يعطيها أسماء ، فتظهر للوجود ، وهذا الخلق بالكلمة الإلهية كان لابد أن يُلقَى باهرا ، ويبدو لنا أنه كانت فيه كفاية ذاتية ، وأنه حلّ بجدارة الفكرة القديمة التى كانت سائدة فى هليوبوليس) ، وهكذا (تمكن الفكر المصرى من أن يفرض نفسه على حكماء العبريين ، وعلى عدد معين من فلاسفة الإغريق ، وذلك لأنه كان يستحوذ على معارف قيمة) - آلهة مصر ص٢٦ / ٢٧ .

ويضيف الأستاذ العقاد معللاً : (نحن نرجح أن العقل الذى خطر له أن اللّه يخلق بكلمة ، ولا يخلق بجهد من جهود الحركة المادية - قد استعار هذه الفكرة السامية من شئ رآه ، لا من شئ بحثه واستقصاه . . وأقرب هذه الأشياء المرئية إليه هى قدرة الساحر على التأثير بكلمة يقولها ، والسيطرة على الأجسام

الضخام بالهمهمة والتعزيم ، وهى ضرب من الكلام . . واللّه أقدر من الساحر ، فإذا قدر الساحر أن يحرك الصخور بكلمة ، ويكسر السلاح بكلمة ، ويقتل العدو بكلمة ، فأولى بالخالق الأعظم أن يملك هذه القدرة ، ويملك ماهو أعظم منها وأدل على المَضَاء ونفاذ المشيئة ، فلا جرم يشاء فيكون مايشاء) - اللّه ص١١٠ .

هامـــــش . .

نشرت مجلة (الهلال مايو ١٩٩٧م) مقالاً للدكتور/ سيد كريم جاء فيه أن (أول رسالة سماوية لتوحيد الإله عرفتها البشرية ، حملها أوزوريس ، ليخرج بها من معبد « أون » عام ٩٥٠٠ ق . م ، وقد استمر العمل بها مايقرب من ثلاثة آلاف عام حتى نهاية ملوك الشمس - كما ورد فى قوائم تاريخ مصر للمؤرخ المصرى مانيتون - تعرضت بعدها إلى الانحلال ، لتحل محلها عبادة الطواطم ومختلف المعبودات فى عصر ماقبل الأسرات ، حتى قام مينا « نعرمر » بتوحيد القطرين ، وبتوحيد العقيدة ، وبعث رسالة توحيد أوزوريس ، واستمرت عقيدة التوحيد طوال الأسرتين الأولى والثانية ، وتطرق إليها الإنحلال ، عندما دبّ النزاع بين كهنة المعابد ، فى أنحاء الوادى ، واستقل كل معبد بعبادة معبود أو إله خاص ، حتى ظهر إيمحوتب فى منف ، حاملاً رسالة التوحيد التى خرج بها من «أون» فكان ثالث أنبياء مصر فى العهد القديم الذين حملوا رسالة التوحيد ، وقام ببعثها فى عصر الأهرامات ، ورمز فيه للإله «رع» بالهرم .

استمرت عقيدة التوحيد التى بعثها إيمحوتب أكثر من ألفى سنة ، رغم ماتصدى لها من عقبات خلال مختلف عصور الاضمحلال ، حتى حمل شعلتها من بعده أخناتون ، رابع رسل العقيدة فى مصر ، ثم خرج بها من مصر النبى موسى ، ونادى بها باقى الرسل والأنبياء الذين قاموا بزيارة مصر أرض التوحيد) .

* هذا القول يؤخذ جملة لاتفصيلاً ، حتى لانلج فى جدال لانملك معه دليلاً ، كما أن معظم الأقوال التى أوردناها مجرد اجتهادات لاتقوم على دليل مادى . . ومن عجب أنهم يتحدثون عن هذه (الأطياف) بلغة الذى يملك كل المفاتيح ، وصدق اللهّ سبحانه ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ .

وهكذا تتبدد الغيوم التى نسجها علماء المصريات الذين خطونا بخطوهم زمنًا ، فإذا **أحمد كمال باشا** يقول فى كتابه (بغية الطالبين فى علوم وعوائد وصناع وأحوال قدماء المصريين) - جـ١ ص ٥١ ومابعدها - إن (غاية ما سلّم به العقل أن هذه الديانة قد أخذت عن ديانة أقدم منها عهدًا ، ألا وهى ديانة سيدنا نوح - عليه السلام - الناطق بها كتاب اللّه عز وجل - أى القرآن الكريم - بقوله تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا** ﴾ . . ولا شك فى أن سلف أهل مصر كانوا يعتقدون وجود إله واحد ، يَرى ولايُرى ، وأزلى لا أول له ولا آخر ، وأنهم كانوا يقدسونه بإجلال نعمه الجليلة ، ويتقربون إليه بعمل الحسنات ، واجتناب السيئات ، وبمعرفة وأداء شعائر عبادته ، وأنهم ارتقوا فى مادة معنى الألوهية إلى درجة قصوى . . وقد ورد فى آثارهم كثير من الجمل والعبارات المثبتة لوحدانية اللّه وقدرته وأفعاله وصفاته) مثل : كل شئ خلقه اللّه العظيم بنفسه - خالق الكائنات والأشياء - الخالق لكل مخلوق - الذى لم يُخلق - فاطر السموات والأرض - الموحد لكل مايكون - أمّاما لم يكن فهو مكنون علمه - اللّه معبود باسمه الإلهى - خالق الأرواح فى الأشباح - تمضى الدهور وهو باق دائمًا - ذو الأزلية ، الذى يْمضى دهوراً لا تحصى ، وهو على حالة وجوده - ذو الأزلية التى لاحدّ لها - لايْمسَك بالذراع ، ولا يُقبض باليد - لاتدركه الأبصار - سميع لمن يتضرع إليه - الذى يكون والذى لايكون مختص به - الواحد الذى لاشريك له - قلاع لاقبور ص ١٥٥ / ١٥٦ .

وقال بيّره **Pierret** : إن الديانة المصرية القديمة تغيْهَبت علينا حقيقَتها ، لكثرة دخول المعبودات فيها ، هى الاعتقاد بوحدانية اللّه عز وجل ، كما ثبت ذلك لدى عموم العالم ، واتضح جليًا من النصوص الأثرية . . أماّ تعدد المعبودات التى قالت بها الآثار فليست إلا أمراً ظاهريًا ، قصد به بيان مظاهر الذات العلية ليس إلاّ ، وإن الإشارات التى نراها فى الكتابة لم تكن صادرة إلا عن تصورات دينية لايمكننا معرفة كهنها لكثرة ماقصد بها من الرموز - المصدر السابق ص ١٥٧ .

وأورد جريبو فى (مدحة آمون) التى ترجمها حقيقة إدراك قدماء المصريين فى معنى الألوهية ، حيث قال : إن مصر اعتبرت معبوداتها الكثيرة أسماء لمظاهر متنوعة بذات واحدة ، وخصت كل معبود بقدرة بالغة من صفات هذه الذات «الإلهية» وهذه الذات الواحدة الثابتة الخفية التى لاتدركها الأبصار - ليس لها شكل ولا اسم ، بل تعرف بصَنائعها - أى بأفعالها - وتنكشف بمظاهر ، نتج عن كل مظهر منها شكل إلهى له اسم ، ويقال له المعبود الأوحد .

وقال : ينبغى حسن التيقظ ، والالتفات إلى أن المراد بتعدد الآلهة عند المصريين ليس هو الاعتقاد بها ، والتعبد إليها ، بل المقصود بها فى الحقيقة إزالة هذه العقيدة الفاسدة من العالم ، بإنكار وجودها الشخصى ، لأن المصريين لايقصدون فى تعبدهم لأى معبود إلا المعبود الخفى الذى اتصف بصفات قديمة ، شبهوها بمظاهر أخذوا عنها المعبودات الدالة على أفعاله وتجلياته . . وإن لسان الآثار يَصفُهُ بالمعبود المنزه عن الشكل ، الذى اسمه مكنون ، فهو روح فعالة لها مظاهر عَديدة تمثلت بها المعبودات التى هى صور مخلوقة سرت فيها الحياة بالروح المتلبسة بها ، وهذه الروح تجرى من مظهر إلى آخر ، دون أن تفقد شيئًا من صفاتها القائمة بذاتها الإلهية ، ولذا كان المؤمنون بها يدعونها دائمًا (بروح جميع المعبودات) ، ويصفونها بالمعبود الذى لاثانى له ، بكل مايليق بها من الكمال والجلال - المصدر نفسه ص ١٥٨ .

وقال مريت باشا : إن قدماء المصريين كانوا يقرون بوحدانية اللّه ، وإنهم وصفوه بما يليق به من الصفات العديدة والأسماء الكثيرة ، و لكنهم لم يثبتوا على هذه الطريقة الجليلة ، والشريعة الجميلة ، فى كيفية إدراك الحقيقة الإلهية ، بل تعدَّوا هذه الحدود ، وجعلوا لأفعال اللّه تماثيل تدل على كيفية أعماله ، واتخذوا كل معبود منها إلها آخر بالتبعية للذات الأصلية .

وقال : التماثيل التى تكاثر عددها كانت عند العوام تماثيل يعكفون على عبادتها ، أما الكهنة وغيرهم ممن كان يقف جيداً على الديانة المصرية القديمة فكانوا يقولون إنها رموز لأفعال اللّه عز وجل - المصدر نفسه ص١٥٩ / ١٦٠ .

وقال سير واليس بدج فى كتابه (الديانة المصرية) : إن جوهر الديانة المصرية

مبنى على وجود إله واحد لا شريك له ، لم يخلقه أحد ، سابق على جميع الكائنات ومُوجدلها ، لايُرى ولا يتجسد ، ولايدرك إلا بأفعاله وقدرته .

ونفى نفيًا قاطعًا أن الشمس ، أو إله الشمس (رع) ، هى هذا الإله الخالق ، وأكد أن (رع) لايعدو أن يكون عندهم هو الصورة النورانية التى تتمثل فيها القدرة الكلية للذات العليا ، وليست هى الذات العليا نفسها ، بل إن الشمس قد انبثقت من جرثومة أوجدتها الذات العليا . . والذات العليا هى الموجدة لكل الآلهة ، التى تتمثل فيها أفعال أو قدرات الذات العليا ، وليست آلهة مَستقلة منفصلة عنها - المصدر نفسه ص ١٦٤/ ١٦٥

وقد جمع بروجش من النصوص القديمة من صفات اللّه : (الواحد - الأوحد - الذى لاشريك له - الموجد لكل شئ - الروح المقدسة - الأول القديم - الخالق - أبو جميع الموجودات - الأبدى - اللانهائى - الأزلى - الخفى الذى لاتدركه أبصار البشر ، ولا أبصار الأرباب - ذو الاسم الخفى - ملك الحقيقة المشكّل لها ، والمستوى على عرشها ، والمنفّذ لها - الحى - واهب الحياة - أبو الآباء ، وأم الأمهات - المنْجب الذى لم ينجبه أحد - موجد نفسه ، وصانع كيانه - هو الوجود نفسه - مَوجود فى كل شئ وفوق كل شئ - لا تجوز عليه الزيادة ولا النقصان - يضاعف ذاته ملايين المرات - متعدد الصور والأعضاء - خالق الكون بكل مافيه ، وكل ماكان ، وكل ما هو كائن ، وكل ماسيكون - خلق الكون بيديه قبل أن تكون ثمة بداية - خالق السموات والأرض والماء والجبال وماتحت الثرى - مايريده كائن ، وأمره نافذ إلى الأبد - أبو الأرباب - أنطق نفسه فوجدت المعبودات ، وخرجت الأرباب إلى الوجود - أوجد الناس والأرباب - السيد العظيم - المصدر الأول الذى شكل الناس والأرباب بيديه ، كما يشكل الفخار - يرفع السموات فوق رأسه - يحتوى فيضانُ النيل على صورته - رحيم بمن يعبدونه - سميع الدعاء - حافظ الضعفاء من سطوة الأقوياء - يسمع دعاء المصفد فى الأغلال - يقضى بين القوى والضعيف - يعرف من يعرفه - يثبت من يخدمه - ويحفظ من يتبع طريقه) [1] - المصدر نفسه ص ١٦٥ .

(١) هذا المنهج غير علمى ، لأن من السهل اصطياد هذه العبارات من مأثورات أى طاغية ، يستوى فى هذا رمسيس الثانى ، والإسكندر المقدونى ، ونيرون ، وأى من طغاة القرن العشرين .

ويعارض بدج بقوة أولئك الذين يعتبرون مفهوم الألوهية عند القدماء مفهوما بدائيا ، أو يشبهونه بعقائد الأقوام البدائيين الذين اكتشف الأوربيون وجودهم ومعتقداتهم فى العصر الحديث ، مؤكداً أنه مفهوم متقدم جداً .

ودلّ على ذلك بأن الكتابات التى وصلتنا منهم تحمل مفهوم التوحيد فى الصورة التى ذكرناها ، مكتوبة كلها بعد أن تطورت حياتهم تطوراً كبيراً عن حالة الأقوام البدائيين ، بعد أن وصلوا إلى درجة من الرقى الحضارى تنبئ عنها مبانيهم العظيمة ، ونظامهم الاجتماعى المركب - المصدر نفسه ص ١٦٧ .

ويعلق المهندس الزراعى الموهوب زهير شاكر - رحمه اللّه - فى كتابه (أهرام مصر . . قلاع لاقبور) على هذه النصوص السابقة بقوله : (من الطبيعى أن الكتابات التى استحقت أن تسجل على جدران المعابد والأهرام ، أو التى استحقت أن يصطحبها أصحابها والمعجبون بها معهم فى قبورهم - لا يمكن أن تكون من الكتابات السوقية أو الأقوال الدارجة [1] ، بل لابد أن تكون من عيون الكلام ، ونفيس الفكر ، مما يصاغ صياغة أدبية راقية ، تتضمن المجازات والاستعارات والصور الفنية ، والمهارات اللفظية ، كالجناس والتورية والمقابلة ، ولذلك لاينبغى أن نأخذها بمعانيها القريبة الظاهرة ، ونحملها على محمل الكتابة التقريرية ، ونفهمها بمعناها الحرفى السطحى ، وإلا بدت عبارات بلهاء جوفاء معبرة عن أفكار سخيفة أو مضحكة) - ص ١٧٣ .

(لابد أن نعى حقيقة هامة ، هى أن مافهمه الدارسون المعاصرون من معانى كلمات وعبارات لغة المصريين القدماء - حتى الآن - لايعدو أن يكون فَهْما إجماليًا تقريباً ناقصًا ، كما أن النطق الذى ينطقون به ألفاظها أقلّ مايقال فيه أنه بعيد عن النطق الذى كان ينطقه المصريون القدماء . . ويقر بهذه الحقيقة - جزئيًا على الأقل - أكثر دارسى التاريخ المصرى تخصصًا ودراية ، ومن بينهم «بدج» نفسه الذى يذكر فى مقدَمة قاموسة الهيروغليفى أن كثيراً من الكلمات والعبارات

---

(١) هذا تعميم لا أساس له ، إذ إن أكثر المدونات قام بها محترفو الكتابة أو النقش - أشبه بالعرضحالجية اليوم - نقلاً عن مروجّى التعاويذ والرّقى ، ولم يكن دور الأدباء إلا فى أضيق الحدود .

قد تعذر عليهم فَهْمُها أصلا ، وكلمات كثيرة أخرى لم يفهموها إلا فَهْما إجماليا ، أو تقريبيًا ، أو احتماليًا ، كما أن نطقهم لها محلُّ شك كبير عندهم هم أنفسهم) - ص ١٧٦ .

(والغريب أن أحدًا لم يسأل نفسه سؤالين هامين :

١- هل يمكن لفرد أو أمة أن تبنى الأهرام ، وفى نفس الوقت تعبد الخنفساء؟

٢- هل يمكن لعقل واحد أن يجتمع فيه الإيمان بإله واحد خلق كل شئ ، حتى الشمس نفسها ، وفى ذات الوقت يعتقد أن الخنافس والصراصير بالذات قد خلقت نفسها ، فضلا عن خلق غيرها من الكائنات ؟) - ص١٧٨ .

(روى هيرودوت أنه رأى بعينيه عملية إطعام التماسيح التى كان يقوم بها الكهنة فى عصره . . فهل يبرر هذا القولَ بأنهم كانوا يعبدون التماسيح ، ويعتقدون أن لها قوى غيبية ، أو خصائص سحرية ، أو أى شئ من هذا القبيل؟)

(إن تماسيح النيل كانت تؤدى - دون وعى منها بالطبع - نفس الدور الذى يؤديه فى أيامنا هذه جنود حرس الحدود ، تهاجم من يحاول أن يتسلل عبر النهر من إحدى الضفتين إلى الأخرى ، هاربا من الجانب المعمور إلى الجانب المهجور ، أو لصًا أو مهاجمًا متسللاً يسطو على إحدى القرى ، فكان وجود هذه التماسيح بأعداد كبيرة يجعل من يحاولون عبور النيل بصورة « غير قانونية » مخاطرة غير مأمونة ، فإذا كانت جماعة مسلحة ، واستخدمت سفنًا لا تقوى التماسيح على مهاجمتها ، فإنها تلفت الأنظار ، ويكون الاستعداد لملاقاتها . . من هنا كان التقدير الشعبى والرسمى لدور التماسيح) .

(وإذا كان المصريون قد خلعوا على التماسيح بعض الصفات الموهمة ، فالقرية المصرية اليوم تسمى الضفدع «الحاجة خضرة» ، وتسمى حشرة «فرسة النبى» ، وفرسة النبى هذه تتغذى فى اليوم الواحد على مئات الحشرات التى تضر النَّبات) - ص ١٨١/ ١٨٤ .

(والخلاصة أن معظم دارسِى التاريخ المصرى القديم - عند ذكرهم لتعدد آلهة

المصريين القدماء - قد صنعوا سلّة هائلة الحجم ، ثم أخذوا يلقون فيها دون تمييز كل صور الكائنات الدالة على أوصاف اللّه ، وكل التعبيرات الرمزية المبينة لقدرته ، وكل الشعارات الإقليمية والمحلية والقبلية ، وكل الشهداء والأبطال القوميين الحقيقيين والخياليين ، وكل الرموز اللغوية التى فى صورة حيوانات ، وكل الحيوانات المكرمة لأسباب بيئية أو دفاعية ، وكل مايصل إلى متناول أيديهم مما يجدون فيه مَظنَّة معنى التكريم والتقديس ، ثم كتبوا على هذه السلة من الخارج «آلهة المصريين القَدماء») .

(وأتخيل لو أنا صنعنا نفس صنيعهم ، بالنسبة لأمة من الأمم المعاصرة «المتحضرة» ، فأخذنا سلة مماثلة ، وجمعنا فيها كل ما يحيط بعقيدة هذه الأمة من أسماء الأنبياء والملائكة والحواريين والقديسين والشهداء والأولياء ، ومن صور القصص الدينى ، وتماثيله ، وأشعاره ، وأغانيه ، إلخ . . ثم زدنا تماثيل وصور الشخصيات السياسية المقامة فى الميادين ، والمضروبة على قطع النقود ، وأعلام المحافظات والقوميات ، والحروف الأبجدية ، إلخ . . تُرى كم آلفا تبلغ هذه الحصيلة ، بالمقارنة إلى عدد مايسمونه « آلهة المصريين القدماء » ؟) ص ١٨٧ .

* لاشك فى أن هذا اجتهاد محمود لشاب يعمل فى غير هذا الميدان . . لكن غيرته الوطنية غلبت على منهجه الفكرى ، بحيث إن نهاية البحث هدمت القواعد التى أقامها كل من أحمد كمال باشا ، و بيّره ، و جريبو ، و مرييت ، وبدج ، لأنهم انْتَقَوْا عبادات (الوحدانية) من (تراث) ، أو بقية تراث ، اختلط فيه الغث بالسمين ، التعدد بالوحدانية ، الأسطورة بالحقيقة ، التجسيم بالتجريد .

ثم إن قصة إطعام التماسيح فى بحيرة يفد إليها السياح ، كما هو حادث اليوم فى أكثر من دولة آسيوية ، وبخاصة تايلاند - لايمكن أن تتحول إلى مايسمى (حرس الحدود) ، لأن هذا (الحرس) يقيم فى النيل لافى بحيرة ، وإطعام التماسيح فى النيل مدعاة إلى السخرية ، لأن فى النيل حاجتها ، وكان يكفى تحريم قتل التماسيح ، حتى نترك لها فرصة التكاثر ، لتطغى ، وتهدد موارد الصيد ، ومراكب النقل والتجارة ! !

- ٣ -

أخناتـــون .. إعـــادة تقويــــم

فـى تقـويمهم لأخناتـون قال الأسـتاذ سليم حسـن (مـصـر القـديمـة جـ٥) : (لسنا مبالغين إذا عددنا أخناتون أول شخصية فى التاريخ أبرز فكرة التوحيد فى معناها الحقيقى ، كما نفهمه ، فقد كان يسير على أسس قوامها أن اللّه الواحد الأحد الفرد الصمد [1] الذى برأ مافى السموات والأرض ، لاشريك له . . وتدل كل الشواهد على أن هذه العقيدة قد انتقلت إلى آسيا ، وضربت بأعراقها فيها ، وبخاصة أن موسى - عليه السلام - قد تعلم فى مصر ، فكان من الأنبياء المتعلمين الذى جاءوا بعد أخناتون ، وورثوا عنه فكرة التوحيد المنزلة) .

وبالوقوف عند وصف موسى بأنه من (الأنبياء المتعلمين) ، ووصف دعوة أخناتون بأنها تحمل (فكرة التوحيد المنزلة) - لانشك فى أن أخناتون نبى مرسل .

وقال الأستاذ فؤاد شبل (أخناتون رائد الثورة الثقافية ص ٥) : (فى الحق لم تعرف الحضارة البشرية هذه النزعة الروحية العالمية قبل أخناتون ، فإنه أول الجنس البشرى إدراكا لوحدانية اللّه جل شأنه وشموليته) .

وأضاف ص ٦٤ : (فأخناتون قد بشر قبل ظهور المسيحية بأكثر من ألف وثلاثمائة وخمسين سنة ، وقبل البوذية بثمانمائة سنة بوحدة البشرية ، باعتبارها من المنجزات الربانية المجيدة) .

(فأخناتون إذا نَبِىّ الإله ، ولم يدع أنه الإله مثلما ادعى الفراعنة من قبله ومن بعده) .

وهذا التقويم لدور أخناتون تردد فى كثير من كتابات علماء المصريات ، وبخاصة بريستيد فى (فجر الضمير) .

وقد نغفر لعلماء المصريات غير المسلمين ، أو غير الملتزمين بالنصوص

---

(١) يؤخذ على موسوعة مصر القديمة استخدام العبارات القرآنية ، والسبب أن هذا الأستاذ الموسوعى كان يستعين باثنين من مدرسى اللغة العربية ، لمراجعة مايكتب ، أو لإعادة صياغته .

السماوية ، تجاهل رسالات نوح وإدريس وغيرهما من أنبياء الله ورسله . . لكن المثير هو أن يصل التجاهل إلى حد الاعتقاد بأن يُترك الإنسان (المتحضر) أكثر من عشرة آلاف عام بدون أنبياء ورسل ، ثم يتتابع اتصال السماء بالأرض في الألف الثانية قبل الميلاد بأخناتون ، وبذرية إبراهيم ويعقوب !!

ومع هذا ، فإن صفحات علماء المصريات الذين أعلَوْا من شأن أخناتون لاتخلو من إدانة (فاضحة) ، لايمكن معها أن يكون نبيًا صاحب رسالة ، إلا على مذهب الفصل بين القول والسلوك !!

إنهم يشيرون إلى أن أول داعية لآتون هو تحتمس الرابع (١٤١٤ - ١٤٠٥ ق . م) الذى رأى (بو الهول) فى رؤيا صادقة (أن ابن الملك المسمى تحتمس أتى راكبا عربته وقت الظهيرة ، وجلس يتفيأ ظل الإله العظيم ، فغشيه النعاس ، عندما كانت الشمس فى منتصف السماء ، فرأى جلالته إلهه المبجل يتكلم بفمه ، كما يتكلم والد مع ابنه ، قائلاً : تأمل ، أنت فىّ ، يابنى تحتمس ، إنى والدك «حور إم أخت - خبرى - رع - آتوم» ، إنى سأمنحك ملكى على الأرض رئيسًا على الأحياء ، وستلبس التاج الأبيض والتاج الأحمر على عرش الإله جب - إله الأرض - وستكون الأرض ملكك فى طولها وعرضها ، وهى كل مايضئ عليه الرب المهيمن ، وطعام الأرضَيْن سيكون ملْكُك ، وجزية كل الأقطار مدة عهود طويلة . . وإنى مولّ وجهى شطرك ، وقلبَى معك ، وستكون أنت المحافظ على كل أشيائى ، لأنى أشعر بألم فى كل أعضائى ، ورمال المحراب الذى أنا فيه قد غمرتنى ، فالتفت إلىّ لتفعل ما أرغب فيه ، لأنى أعلم أنك ابنى وحامىّ ، تأمل ، إنى معك ، وإنى قائدك) .

يبدو أن هذه الرؤيا (الصادقة) كان الهدف منها تمهيد السبيل لقص أظافر كهنة آمون الذين طغوا وبغوا ، وملكوا الأرض ومن عليها . . ومن ثم (كان أول من حاربهم وأراد القضاء عليهم « تحتمس الرابع » الذى بدأت فى عهده - بلا نزاع - حركة إعادة عبادة «رع» ، وهى تلك الحركة التى انتهت بالإصلاح الشامل -؟!- الذى تم على يد أخناتون) .

وقد عثر على جعران من عهد هذا الفرعون يذكر فيه إله الشمس باسم

«آتون» : (وإذا أيقظ نفسه للقتال ، وآتون أمامه ، فإنه يخرب الجبال ، ويطأ الأراضى الأجنبية ، زاحفًا إلى نهرين ، وإلى كاراى - فى الجنوب - ليخضع سكان الأقاليم الأجنبية ، مثل رعاياه ، لحكم آتون أبد الآبدين) - مصر القديمة جـ٥ ص ١٢/ ١٥ .

ويعلل الأستاذ فؤاد شبل هذا (الانقلاب) بأن (كهنة « رع » قد عاونوه فى ارتقاء العرش ، إذ لم يكن أكبر أبناء الملك ، ولهذا أشاد بمناقب « رع » إله الشمس ، كما زين له تصوير قرص الشمس ، تمتد منه ذراعان تنتهيان بيدين بشرتين تحيطان بالملك ، وتحنوان عليه ، وتغدقان عليه البركات . . وكان هذا الفرعون أول من استخدم لفظ آتون تعبيراً عن الشمس ، فكان هذا إرهاصًا بإستخدام أخناتون الاسم تعبيراً عن منحاه التفكيرى ذى الطابع التجريدى) - أخناتون - ص ٤٢ .

ثم جاء أمنحتب الثالث (١٤٠٥ - ١٣٦٧ ق . م) ، ابن الإله « آمون » ، الذى (تمثل للملكة « موت مويا » بشراً سويًا ، فى صورة تحتمس الرابع ، واجتمع بها ، نفخ فيها من روحه ، فوضعت له غلامًا ذكيًا ، اسمه « امنحتب الثالث » ، ومن هنا أقام معبداً يؤله فيه مع أبيه « آمون ») - مصر القديمة جـ ٥ / ٥٩ .

وأقام قصراً فى الضفة الغربية للنيل ، ليتسنى له حفر بحيرة « تاروجا » التى تعد من أحسن مباهج عصره ، وإذ يبلغ طول البحيرة أكثر من ميل ، وعرضها نصف ميل ، وقد أنجزت فى خمسة عشر يوما ، ولا تزال هذه البحيرة باقية .

وأقام فى طيبة الشرقية عدة مبان ، منها طريق لتماثيل « بو الهول » ، الذى يمثل الإله آمون ، برأس كبش ، ويتألف من اثنين وعشرين ومائة تمثال ، نحت من الحجر الرملى ، وتقع هذه الطريق أمام معبد الإله « خنسو » الحالى ، وقد نقش عليها اسم أمنحتب الثالث ، والظاهر أن هذا الفرعون قد أقام معبداً فى المكان الذى يحتله معبد رمسيس الثالث الحالى .

وأقام معبدا للإلهة «موت» زوج «آمون» فى النهاية الجنوبية من الكرنك ، وقد عثر فيه على عدد عظيم من تماثيل هذه الإلهة التى مثلت برأس لبؤة ، وقد وزعت هذه التماثيل على متاحف أوربا .

ومعبده الذى أقيم فى الكرنك أجمل معبد أقيم فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، من حيث الدقة الفنية والتنسيق فى البناء .

وبالإضافة إلى هذه المبانى صنع (السفينة المقدسة) التى يبلغ طولها نحو أربع وعشرين ومائتى قدم - مصر القديمة جـ٤ ص ٥٩ / ٨٠ .

وقد أعانه على هذه المبانى وغيرها أنه جنى ثمرات جهود التحامسة الحربية ، وعبقريتهم الإدارية ، فبلغت مصر فى عهده ذروة قدراتها الاقتصادية ، وقمة إبداعها الفنى ، ورفاهتها الاجتماعية ، وأصبحت مدينتا منف وطيبة مقصد مهرة الصناع فى الشرق الأدنى وأفريقيا .

ونتيجة للسلم الذى حظيت به البلاد فى عهده ، أو نتيجة عزوفه عن الحرب راجت التجارة الخارجية ، وغدت مصر تستورد من غرب آسيا الأخشاب الثمينة لصناعة الأثاث والتوابيت ، وكذلك اللازورد والمنسوجات الأرجوانية ، والفضة والبرونز والخيول ، وتشترى من بابل المجوهرات ، ومن جزائر بحر إيجة المعادن المطروقة ، ومن ليبيا الثيران ، ومن أفريقيا الجلود وريش النعام والعاج والصمغ والأبنوس .

لكنه مع هذا ، ومن أجل هذا ، كان أول حاكم مصرى أقبل إقبالاً يوصم بالشراهة على الاستمتاع بمباهج الحياة الحية . . ومن أجل هذا أيضًا اصطدم بمطامع الكهنة ، ورغبتهم الملحة فى الاستحواذ على السلطان ، فسعى إلى كسر شوكتهم والتحرر من نفوذهم الطاغى ، وأخذت مظاهر الكيد لهم . . وكان أن أجرى فى بحيرة « تاروجا » المقدسة قاربه «تحن أتون» - قرص الشمس يسطع - الذى كان يمخر البحيرة بالملك ، ذلك لأنّ مَزْج اسم القارب بآتون أكد منزع والده تحتمس الرابع ، الذى تحول على يد ابنه أخناتون ثورة دينية .

وعمل على تقليد ابنه البكر ، وولى عهده «تحتمس» ، منصب كبير كهنة «بتاح» ، رب منف ، وطالب ابنه ببذل الجهود لإحياء العاصمة القديمة ، ونشر عقيدتها الإقليمية ، لكن « تحتمس » توفى ، وانتقلت ولاية العهد إلى «أمنحتب الرابع» الذى أجمعت الآراء على اعتلال صحته .

وفى غمرة هذا الصراع لم يحصّنْ أمنحتب الثالث نفسه ضد مكائد كهنة

آمون ، بل بالغ فأرسل مرات عديدة فى طلب غانيات أجنبيات ليكن فى قصره ، حتى بلغ مجموع ماسجلته النقوش أكثر من ٤٢٨ غانية ، أقمن فى البلاط الفرعونى ، ووضعن أولاداً وفتنًا .

هذا على حين كان زوجًا للملكة (تى) ابنة الشعب القديرة التى سيطرت على أمور الدولة ، ووجهت سياسة الامبراطوريّة المصرية .

وقد أنجبت له **أخناتون** ، **و سمنـغ كارع** ، **و توت عنخ آمون** ، من الذكور ، **ونفرتيتى** ، **و سات آمون** ، **و آست** ، **و حنت مرحب** ، **و باقت آتون** ، من الإناث .

ويبدو أن **أخناتون** (المعتل) ، القبيح التكوين ، قد ورث عن أبيه حب النساء ، وولعه بالأجنبيات منهن ، وقد أفرد لهن جناحًا فى قصره ، يزوره كلما برّح به الشوق ، مع أنه كان زوجًا لأخته الجميلة نفرتيتى .

وإنك لتجد فى قصره الذى أقامه فى « **أخيتاتون** » - تل العمارنة - منظراً يجذب الأبصار لجماله وغرابته ، يمثل حُوراً عَينًا كأمثال اللؤلؤ المكنون ، فى مقصورات خاصة بهن ، قد توفرن على التزيين والتجمل ، أفرادا وجماعات ، فمن تزجيج وتكحيل ، إلى تطرية وترجيل ، وبعضهن يتمايلن راقصات ، وأُخَر يتواثبن عازفات ، وإذا أنعمت النظر فى لباسهن وزينتهن وطرق تصفيف شعورهن ، وفى آلاتهن الموسيقية - عرفت أن جمهرتهن أجنبيات وردن إلى قصر الأمير ، من سوريا وغيرها من البلدان التى تدين لمصر بالولاء - مصر الفرعونية جـ ٥ ص ٢٥٤ .

هذا فى عاصمة مذهب (التوحيد) ، مع أنه - وهو الفرعون - كان قادراً على أن يخفى مباذلة هذه ، لكنه كان مصابًا بداء الحقيقة العارية ، ويلقّب نفسه (عنخ إن ماعت) ، أى العائش فى الصدق ، وكان يبين لمثّاليه أن (الحياة فى الصدق) جزء من تعاليمه الدينية ، وأن واجبهم أن يأخذوها مرشداً لهم .

وكان أن سجل الفن مباذله وشذوذه ، فهو يطوق أخاه سمنغ كارع بساعده ويداعبه ، ولقد سجلت النقوش أنه كان على علاقة شاذة بأخيه هذا ، علاقة تخرج عن نطاق العقل والمألوف . . وسجل الفن هذا الفرعون الشاذ متراخيًا فى

وقفته ، متكئًا على عصا تحت إبطه ، وطرفا حزامه الطّويلان ، وأهداب شعره المستعار ، يداعبها الهواء وأمامه الملكة نفرتيتى فى هيئة لاتوصف إلا بالقحة ، ترتدى ثوبًا من الكتان الشفيف يداعبه النسيم !!

أمثل هذا (الأمثولة) يمكن أن يكون داعية دين ، فضلاً عن القيام بدور (النبى) ؟!

والنقوش تقول إنه تزوج من ابنته الثالثة « عنخس إن با آتون » التى صارت زوجا لتوت عنخ آمون فيما بعد ، واستولدها أبوها أنثى سميت باسمها !! - مصر القديمة جـ ٥ ص ٢٥٨ .

ومع هذا تحكى النقوش أن أباه لم يقَصّر فى تربينه ، فقد سعى إلى تعليمه الفروسية والصيد ، وأشركه معه فى حكم البلاد أكثر من تسع سنوات ، ولما مات والده ظل يحكم البلاد من « أخيتاتون » - تل العمارنة - ثمانى عشرة سنة ، أضاع فيها هيبة مصر ، وتساقطت مستعمراتها ، وجرّ الأطماع الأجنبية إلى داخل البلاد ، بل إلى داخل قصره ، مع أولئك الغانيات المزودات بتعاليم ضد سيادة الإمبراطورية .

وقد زعموا أن توجهه إلى الإله « أتون » يرجع إلى أنه فى صباه كان يقوم على تربيته كهنة من عين شمس ذاتها ، ناسين دور جده تحتمس الرابع وأبيه أمنحتب الثالث الذى سجل التاريخ فى عهده أنشودة تقول :

(إنك صانع مصور لأعضائك بنفسك

ومصوِّر دون أن تصوَّر

منقطع القرين فى صفاته ، مخترق الأبدية

مرشد الملايين إلى السبل

وعندما تُقلع فى عرض السماء يشاهدك كل البشر

على الرغم من أن سيرك خفى عن أنظارهم)

إن أناشيد أخناتون التى تحدثت عن (التوحيد) ، وزعموا نُبُوّة صاحبها ،

وأستاذيته لموسى وداود ، سبقت معانيها فى أناشيد (آمون) ، وهاهى أنشودة أمنحتب الثالث العابث اللاهى لاتكاد تخرج أو تنتقص شيئا مما تردد فى أناشيد ابنه .

وأولئك الذين أشادوا بنُبوّة أخناتون ذكروا أنهم وجدوا صورة فى (السلسلة) - جنوبى بلاد النوبَة - يرى فيها أخناتون متعبدا للإله «آمون» ، وفوقه قرص الشمس المجنح - مصر القديمة جـ ٥ ص ٢٦٨ .

وذكروا أن أخناتون كان له بنْتان أخريان هما « نفر نفرو رع » ، و «ستب إن رع» ، (ما يفيد أنه فى أخريات أياَمه لم يتمسك بإضافة اسم « آتون » إلى تركيب أسماء بناته ، كما فعل من قبل ، كأنه رأى أخيراً أن تعصبه لآتون جر عليه المتاعب ، وأثار الفتن ، فارتد إلى التسمية القديمة « رع » وهى التسمية ألفها الشعب منذ فجر التاريخ) - مصر القديمة جـ ٥ ص ٢٨١ .

وهذا وهم ، لأن رع وآتون وآمون وأوزير وبتاح وآتوم جميعًا أسماء لإله واحد ، يقف من وراء هذه الشمس الساطعة .

وإذا كان قد أثار عليه كهنة « آمون رع » ، فليس لأن أتباعه كانوا يطمسون كلمة (آلهة) أينما وجدت ، بل لأنه كان مخرّبًا . . (عندما أراد أن يقيم لنفسه مدينة خاصة لعبادة « آتون » هشم تماثيل « آمون » ، ومَحَا اسمه أينما وجد ، حتى فى سجل خطابات تل العمارنة المكتوبة بالخط المسمارى) - مصر القديمة جـ٥ ص٢٦٩ - هذا على حين لما أراد أعداؤه - بعد ما دالت دولته - تشويه مقابر أخناتون ومعابدها قَصَروا هذا التشويه على محو اسم أخناتون نفسه ، ولم يتعرضوا لرمز الشمس « آتون » بالمحو أو التشويه - مصر القديمة جـ ٥ ص٤٣٣ .

إن كهنة آمون لم يثوروا على أخناتون من أجل الدعوة إلى « آتون » ، إنما من أجل الطريقة التى سلكها فى دعوته ، ومن أجل سلوكه المشين ، ومن أجل تقصيره فى الحفاظ على مكاسب أجداده التحامسة العظام .

وهذا شأن ورثة الدعوات الدينية والدنيوية ، كل فريق يعمل على تثبيت أقدامه ، والغَضّ من كفاح الآخرين » مع أن الشعارات واحدة ، والهدف المعلن واحد .

إن هذا (المتنبى) الأحمق لم يغفر لأبيه أن يدخل « آمون » فى تركيب اسمه ، فمحاه حيث وجده ، مع أنه أعاد لكهنة آمون وظيفة رئاسة معابد القطرين - الدلتا والصعيد - بعد أن انتزعها منهم تحتمس الرابع ، واكتفى بالتنديد بسلوك الكهنة ، مع أن دعوته خلت من أى قيمة أخلاقية ، كأنه يعترف بأن (فاقد الشئ لايعطيه) . . ولهذا سرعان ما انتهى أمر الأخناتونيَّة بموته ، فلم يكن لها أتباع يؤيدونها ويقاتلون فى سبيلها بل كانت أشبه بضوء شمعة ، ضاع بانطفائها .

الطغيـــــان

- ١ -

يقول سبنسر عن طبيعة مصر : إنها (طبيعة نبعت من بطء إيقاع الحياة فى وادى النيل ، حيث تنعدم الحوادث المفاجئة التى يمكن أن تمس حياة البسطاء ، وحيث تتشابه الأيام التى تشغلها أنشطة ذات طبيعة زراعية لأغلب السكان ، وحيث يضفى جوها المشمس على الدوام إحساسًا بتوقف الزمان ، ويلمس المسافر بالقطار من القاهرة إلى الأقصر الطبيعة الرَّتيبة لوادى النيل ، وهو واد مسطح ، تشغله زراعة كثيفة ، فلا يكاد يختلف منه جزء عن الآخر ، فتمتد الحقول الخضراء المزروعة برتابة لمئات الأميال ، تقطعها آجام النخيل ، وقنوات الرى ، وبيوت الفلاحين الطينية ، بينما تؤلف المرتفعات الصحراوية خلفية هذا المنظر) – الموتى وعالمهم فى مصر القديمة ص ٢٢ .

قول حالم لرجل دارت رأسه مع طول رحلة القطار التى تمتد إلى خمس عشرة ساعة ، مع أن تنوع الزراعات فى هذا الطريق تقدم لوحات رائعة متنوعة ، ثم إن حركة الفيضان الموسمية تزيد من تنوع هذه اللوحات ، وتَجمع بين الجمال والرهبة ، فإذا مضينا باللوحة إلى إطارها من الجبل والصحراء ، وسكان الجبل والصحراء ، فإن الخيال يذهب مذاهب ، بقدر مايخبئ الواقع الرهيب فى سراديب الظلام ، وبقدر ما تلتوى الهيئة الحاكمة من (الفرعون) إلى (الملتزم) .

وإذا كانت صحراؤنا وجبالنا قاحلة ماحلة ، وجبالهم خضراء طول العام ، فإن خضرة الجبال ، ومساحات الجليد ، وضبابية الأفق ، ومايحدثه ذوبان الثلوج من فيضانات – لايعنى أن الطبيعة الأوربية تمتاز بالتنوع دون طبيعتنا ، إنما الأمر

مرهون بنظرة السائح التى هى نظرة طائر ، تختلف كثيراً عن نظرة المقيم المتفاعل مع جزئيات الحياة .

ماذا تكون نظرة السائح إلى العاملين فى مصنع ، أو محجر ، أو الجالسين داخل مؤسسة إدارية ، أو الرعاة بين قطيع من الماشية ، أو البحارة فى سفينة تمخر العباب الأزرق والسماء الزرقاء ؟! ألا تشبه هذه الأحكام المتعجلة مايحكى عن العميان والفيل ؟!

ويقول كون : (لابد أن تظل مصر القديمة أبرز مثال معروف فى التاريخ - حتى الآن - منطقة معزولة طبيعًا ، أتيح فيها للأنواع الجنسية المحلية الأصلية أن تمضى فى طريقها لعدة آلاف من السنين ، دون أن تتأثر إطلاقا باتصالات أجنبية) .

إن (التغيرات التى لحقت النمط الجنسى فى أى جزء من أوربا ، خلال السنوات الخمسمائة الأخيرة ، كانت أكبر منها فى مصر خلال خمسة آلاف) - شخصية مصر ص ٢٧ .

فات (كون) أن ثمة هجرات كثيرة كانت تصب فى بوتقة مصر ، أو فى (الزقاق) ، كما يحلو لآخرين الحديث عن (عزلة الوادى) ، وهذه الهجرات ظلت تتدفق - منذ فجر التاريخ - من حول روافد النيل التى تصب هى الأخرى فى مجراه صبًا موسميًا ، أو صبًا دائمًا ، كما أن ثمة هجرات كانت تركب البحر ، عن طريق باب المندب ، أو عن طريق البحر الأحمر جملة ، وكانت هجرات عن طريق البحر المتوسط ، قبل أن يكون التدفق اليونانى ، وكانت سيناء معبراً لكثير من شعوب غربى آسيا ، وشعوب أوربية كانت تكتسح آسيا الصغرى ، ثم تهبط عن طريق سيناء ، أما عن الشعوب التى تتحرك خلف الصحراء الغربية فكانت تصل إلى حدود مصر ، وتعبر صحراء ها ، وقد تمسك بزمام الحكم إلى حين ، أو تظل شغله الشاغل زمنًا يقصر أو يطول .

وعلى فرض أن مصر (زقاق) مغلق أو مفتوح ، فإن (زنقة الستات) فى الإسكندرية ، و (حارة البرابرة) فى القاهرة ، أو شارع الموسكى ، إنما هى موارد بشرية متعددة الشكول والألوان ، لاتلبث أن تتحد فى الهدف ، وأن تشكل

حركة نشطة ، تفيض مع النهار ، وتنحسر مع الليل ، أقرب إلى فيضان النيل صيفا ، وانحساره شتاء .

ومن هنا يصبح مفهوم العزلة رجمًا استهوائيًا للوصول إلى مايسمى (عبقرية المكان) ، مع أن العبقرية فى قدرة هذا المكان - بخصبه المتجدد كل عام - على امتصاص نبضات الحياة فى هؤلاء الوافدين ، وعلى إغراء هؤلاء الوافدين على الانتماء إلى مصر ، والعمل فى ترابها من أجل تعمير هذا التراب .

يقول الدكتور سليمان حزين (حضارة مصر ص ١٩) : كانت مصر بالفعل مكنونة بين الصحارى المجاورة ، وكان واديها محفوظًا بحافتى الهضبة ، التى امتازت بأنها أرض قاحلة شديدة الجفاف ، بحيث لايستطيع أن يقطعها الغزاة القادمون من الخارج إلا فى صعوبة شديدة ، ولاينفذ منها إلا كل مغامر قوى الشكيمة ، وقادر على أن يجتاز الفيافى ، حتى يصل إلى الأرض المكنونة ، أو إلى (الكنّ) الذى احتفظ فى سكانه بخلاصة المغامرين .

وهذا تعليل (مريح) لو أن الغزاة كانوا يمرون (بمصفاة) حقًا ، إنما كانوا أقوامًا يرحلون بخيامهم ونسائهم وأبنائهم وماشيتهم للاستقرار .

لقد (هاجر إلى وادى النيل - بجوار مجارى المياه الغزيرة التى لاتزال موجودة - كل سكان وديان البيداء وصحراء العرب ، وهؤلاء كانوا البقية الباقية من قبائل أخذت تجوب فى خلال الأزمنة السالفة الجبال والهضاب التى كانت تغطيها الغابات البكر) - مصر القديمة جـ ١ ص ٥٠ .

يقول إداورد مير : إن المصريين يرجع أصلهم إلى الجنس اللوبى ، وهم الذين وفدوا على وادى النيل بادئ الأمر ، واستوطنوه بوصفهم صيادين ورعاة مواش ، ثم أصبحوا فيما بعد زراعًا .

وهناك رأى آخر أن (التحنو) كانوا فى الأصل مصريين ، وأنهم سكنوا الوجه البحرى ، ثم هاجروا منه فى وقت ما نحو الغرب ، وسكنوا إقليم (تحنو) الواقع على الحدود المصرية .

وتقص علينا نقوش الملك (بعنخى) أن أمراء الدلتا كان من بينهم فى ذلك

وقت أمراء من أصل لوبى ، لم يسمح لهم بالمثول بين يديه ، لأنهم لم يختتنوا ، هم نجسون ، ومن آكلى السمك (؟!) وقد كان ذلك من الأشياء الممقوتة لبيت لملك - مصر القديمة جـ ٤ ص ٢٦ / ٢٨ / ٥٨ .

ويرى الأستاذ لوريه أنه أتت قبائل وشعوب من بلاد لوبيا ، ومن آسيا صغرى ، ومن جنوب مصر ، واختلط بعضهم ببعض ، وتحاربوا ، وأخذت واحدة منهم تحل محل الأخرى ، ثم تحالفوا فيما بينهم - مصر القديمة جـ ١ س ١٧٤ .

وقد دل الفحص على أن سكان بلاد النوبة ومصر كانوا ينسبون إلى الجنس لحامى ، وكذلك ثبتت نسبتهم - على وجه التأكيد - للُوبيّى شمالى أفريقية ، الأجناس الذين يقطنون فى شرقيها ، وهم سكان الصحراء الشرقية الواقعة بين لنيل والبحر الأحمر وبلاد الصومال - مصر القديمة جـ ١٠ ص ٤ .

ومن المحتمل جداً أن الجنس الجديد قد زحف على البلاد من شمالى سوريا ، عن طريق فلسطين وسيناء ، وأحضر معه مدنيّة أرقى من مدنيّة الجنس الأصلى لحامى الذى لم يعرف إلا الآلات والأوانى الحجرية ، أما الغزاة أو النازحون يقال إنهم أدخلوا فى البلاد معرفة المعادن ، وبخاصة النحاس ، وأدخلوا كذلك عبادتهم للأموات ، وديانتهم وكتابتهم وفنونهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية ، ولا شك فى أن دخول هذا الجنس إلى البلاد قد آتى تدريجيًا من غير عنف - مصر القديمة جـ ١ ص ١٤٣ .

وظلت العناصر الأجنبية تفد إلى مصر بلا انقطاع ، وتقيم فيها بوصفهم أسرى حروب يستخدمون عبيداً للآلهة ولعلية القوم ، أو بوصفهم تجاراً وجنوداً مرتزقة ، يعملون فى الجيش المصرى ، وكان يفد على البلاد طوائف من البدو استوطنوا وادى طميلات ، ومنهم اليهود .

وفى مدينة « بر رعمسيس » ، وفى منف ، وغيرهما ، أنشئت أحياء كاملة لأولئك المهاجرين من الكنعانيين والفينيقيين الذين جاءوا إلى مصر مصطحبين معهم آلهتهم وأربابهم المحليين . . من أجل هذا نجد أن الدم المصرى اختلط بكثير من دماء المهاجرين ، كما أن اللغة المصرية دخلتها كلمات أجنبية ، وبخاصة (أن

الكلمات الكنعانية كانت تتدفق بمقدار عظيم على اللغة المصرية ، ولم يكن ذلك مقصوراً على أسماء السلع والأسلحة والخيل والعربات ، بل تخطى ذلك إلى ألفاظ الحياة الاجتماعية والثقافية ، وكان الأدباء والمتحذلقون من أبناء المجتمع - كما هو اليوم - يتباهون بمزج الكلمات الأجنبية فى تعبيراتهم) - مصر القديمة جـ٦ ص ٥٩٣ / ٥٩٤ .

* هذه جملة آراء لاحاجة إليها ، لأن الهجرات - على مدى التاريخ البشرى - لم تتوقف ، ولم تقتصر على مكان دون آخر ، طلبًا للمرعى ، أو طلبًا للاستقرار ، وهذه بدهية لاتحتاج إلى إعمال فكر .

أما عن قول برودريك : (. . . من الواضح طوال الستة آلاف سنة الآخيرة، أو يزيد ، أنه لم يكن هناك أى تغير ملحوظ فى مظهر جمهرة المصريين، فالبداريون ، وأهل النقادتين ، ومصربو الأسرات ، والفلاحون الذين تراهم يعملون فى الحقول اليوم ، كلهم من نفس النمط القاعدى - المتوسطى) - شخصية مصر ص ٢٨ - فإنه لايختلف فى شئ عما أشرت إليه . . وإن ذهب الظن مذهب الرتابة وعدم التجديد فإنه تجاهل كبير لتنوع الحضارة المصرية ، ولحركة المد والجزر على هذه الساحة الزمنية الطويلة ، على المستوى المصرى والفارسى واليونانى والرومانى والنوبى والمغربى والعربى الإسلامى .

ومن هنا يتحول مفهوم النمطية المتوسطية (خداعًا بصريًا) ، أو (عمى ألوان) .

ومن هنا أيضًا يخرج هذا العنصر من دائرة السببية لأصالة الطغيان .

* أما العنصر الأصيل فهو - كما يقول الدكتور جمال حمدان - أن (النهر طاغية جبار ، يمكن أن يعطى بسخاء حتى الإغراق ، وأن يمنع بقوة حتى الإصحار ، والاستفاده منه تستوجب تعاونًا جماعيًا لمدّ شبكة غطائية كثيفة من الترع ، من كل مقياس ، من قنوات الحمل ، وقنوات التغذية ، إلى مساقى الحقول) .

(وزراعة الرى إذا تركت بلا « ضابط » يمكن أن تضع مصالح الناس المائية فى

مواجهة بعضها البعض ، مواجهة متعارضة دموية ، ذلك أن من يقيم على أعلى الماء يستطيع أن يسئ استعماله ، إما بالإسراف ، أو بحبسه تمامًا عمن يقيم أسفله ، أى أن كل حوض علوى يستطيع أن يتحكم فى حياة أو موت كل حوض سفلى ، وكل من يقع على أفواه الترع يستطيع أن يهدر حقوق المياه لمن يقع على نهايات الترع ، كذلك يمكن للمحاباة والتحيز أن تسخو بالماء لمن تريد ، وتقبضه عمن تريد) - شخصية مصر ص ٤٩ .

وعلى هذا ، كان (العقد الاجتماعى - كما يقول سايس - قائمًا على الماء «أعطنى أرضك وجهدك ، أعطك أنا مياهى» ، ومثل هذا العقد لايمكن أن يقوم فى ظل زراعة المطر ، ومن ثم لم يكن غريبًا أن يكون الحكم الفردى نظامًا فرعونيًا طبيعيًا) .

(وبديهى أن الحكم المطلق ليس مقصوراً على البيئة الفيضية ، ومجتمع النهر الهيدرولوچى ، لكنه فيهما أيسر مثالاً ، وأقرب تحقيقًا) .

(وهذا الحكم المطلق ساعد على وضع أسس الحضارة المصرية ، وأرْسَى دعائمها ، ثم لم يلبث أن تعدى دوره ، حين أصبح موزع الماء هو مالك الماء ، والحاجز بين الرقاب هو المتحكم فى الرقاب) .

(وترتب على هذا التحكم أن احتكر الأرض قلة من الأقوياء ، وبذلك تجمعت كل خيوط القوة فى يد فرعون ، حتى أفسدته السلطة ، وتحول الحكم المطلق إلى طغيان وجبروت) - المصدر السابق ص ٥٢ / ٥٣ .

- ٢ -

(ومما ساعد على إحكام الطغيان أن البلد - المعمور - صغير المساحة ، صارم الحدود ، «عالم متناه» كالزقاق المغلق ، سهل متواضع ، ليس فيه من معاقل الالتجاء ، أو دروب الهرب ماتعرف البيئات الجبلية أو الصحراوية مثلاً ، ولايمكن لهارب أو ثائر متمرد أن يبتعد عن يد السلطان وقبضته ، إلا إذا آثر النفى الذاتى تقريبًا إلى نهاية العالم ، فى مستنقعات وبرارى الشمال المنعزلة ، أو مغارات النوبة المهجورة ، كما فعل المماليك الفارون من محمد على) - شخصية مصر ص ٥٦ .

وهذه الفقرة تحتاج إلى إعادة النظر ، لأنها تعتمد على (أن العزلة الجغرافية التى حَدَّتْ من الهجرات الداخلة حّدت أيضًا من إمكانيات الهجرة الخارجة ، مما مكن الطغيان المحلى أن ينفرد بالفلاح من الناحيتين) - المصدر السابق ص٥٧ - وهذه مغالطة كبيرة ، لأن الهجرات إلى الداخل لم تنقطع ، وطرق الهجرات إلى الداخل كان يمكن أن تكون طرق الهجرات إلى الخارج ، وبخاصة أن كثيرين من المهاجرين إلى الداخل استخدموها فى الخروج ، وإذا كان المماليك - وهم جيش مسلح - قد وجدوا ملاجئ للفرار ، أمام الحاكم الذى يملك كل المقدرات ، فإن الحجة تفقد أهميتها ، وإذا كان الشريط المعمور اليوم لايحتل أكثر من ٤٪ من مساحة مصر ، ومع هذا ، ومع أجهزة الرصد والمتابعة الحديثة ، ومع أن رجال الجيش والشرطة والمباحث المتنوعة التخصصات تمسك بأطراف البلاد ، مداخل ومخارج ، وبكل مدينة وقرية ، وبكل شارع وحارة ، ونصف السكان - لحساب الحاكم - يتجسس على النصف الآخر . . مع هذا كله يكثر التهريب ، بل إن أكثر مُقْتَرفى الجرائم فى صعيد مصر ، يعيشون فى أمان وسلام فى شمال الوادى ، بل فىَ حضانة القاهرة والإسكندرية ، فى أهم مراكز الاستطلاع والترصد !!

ويقولون إن سنوحى وهو ابن البلاط الملكى ، ورجل الجيش المعروف ، فر من أقصى الحدود الغربية إلى أقصى الحدود الشرقية ، فى أيام طويلة ، دون أن يجد من يقول له : إلى أين ، فكيف بسواه ؟!

إن القضية رهن بخيرات مصر التى ماتزال إلى اليوم - بالرغم من تضاعف سكانها ، وبالرغم من عصابات الحكم التى تتحكم فى كل شئ ، حتى فى تهريب (القروض) إلى المصارف الأجنبية - قادرة على تحقيق الاكتفاء الذاتى ، لو أمكن (ترشيد) النهب والتهليب ، ولو أمكن الاستغناء عن الخبرات والمعونات والمكائد التى تحاك بليل أو نهار ! !

* لقد كانت (سيوه) سلة القمح للدولة الرومانية ، ووجد العرب فى مصر (أرضًا من الذهب) ، أو (جنة الله فى أرضه) ، ومن ثم انغرست أقدام المصرى والمتمصر فى هذه الأرض ، فلم يفكر يومًا فى مغادرتها . . ولأنه (مغروس) فى طميها الخَصيب عُدّ انتقاله من مكان إلى آخر - داخل مصر - نوعًا من الاغتراب والنفى . . إنها تحقق له كل طموحاته ، ففيم يتركها لسواه ، وهو ليس أحق بها منه ؟!

من أجل هذا ، تحمل كثيرًا من القسوة ومن المهانة ، يقينا منه بأن (دولة الظلم ساعة) ، ولا تلبث أن تتحلل ، لأنها تحمل فى تكوينها عوامل فنائها .

ومن أجل هذا كان إيمانه بغَده إيمانًا بمن يملك هذا الغد .

إن القول بأن الفلاح (بحث عن التعويض عن الحياة الدنيا فى الحياة الأخرى، فكان الدين ملجأه ومهربه) - المصدر السابق ص ٥٩ - قول بعيد عن الصدق ، لأن دين المصرى ارتبط بطبيعة الخير فى مصر ، فالنيل الذى يأتيه من حيث لايدرى ، دون أن يخلف وعدًا ، والأرض التى تموج بألوان من الزروع والثمار ، والسماء الصافية المشرقة بالنهار ، المزروعة بالمشاعل المضيئة فى الليل ، والمناخ الهادئ الوديع . . هذه الطبيعة الطيبة السخّية لابد أن تكون من عمل قوى قادرة رحيمة ، وفى الوقت نفسه لابد أن تطبع هذه الطبيعة نفوس الفلاحين بالطيبة والسخاء والرضا والثقة فى غد أفضل . . بل كان عمق الإيمان فى نفوسهم مرتبطًا بعمق الطاعة والاستسلام لمشيئة اللّه ، وبهذا يصبح قول المقريزى : (ورجالهم يتخذون نساء عديدة ، وكذلك نساؤهم يتخذن عدة رجال ، وهم منهمكون فى الجماع ، ورجالهم كثيرو النسل ، ونساؤهم سريعات الحمل). . ومثله قول هذا (الأوربى المعاصر) : (إن لعبة الجنس هى الرياضة

المفضلة) - لونًا من العبث الماجن ، لأن المقريزى أو الأوربى لم يقم ببحث إحصائى على مستوى عام ، حتى يخرج بهذا الحكم العام الذى يشبه ما أورده صاحب (عبقرية المكان) من أن (العرب كانت تقول بأسلوب العصر : «قال العقل» : أنا لاحق بالشام ، فقالت الفتنة : وأنا معك ، وقال الشقاء ، أنا لاحق بالبادية ، فقالت الصحة : وأنا معك ، وقال الخصب أنا لاحق بمصر ، فقال الذل : وأنا معك) - شخصية مصر ص ٥٨ .

ألا تشبه هذه الأحكام اتخاذ المصريين التماسيح فى سلاح الحدود ؟!

ومن العجيب أن الدكتور جمال حمدان الذى عُدَّ (عاشق مصر) ، بسبب كتابه (شخصية مصر) الذى ألفه من أجل الإشادة بها وبشعبها - يُروّج هذه المقولات ، ويبنى عليها أن (هذا الإفراط البيولوچى أدى إلى انخفاض المنفعة الجدية للإنسان ، واتضاعه وهوانه على الحكام ، وزاد من فرص الطغيان والاستبداد) - ص ٦٠ .

وهذا لايتجاوز عبثية الفكر الذى يتغنى (محلاها عيشة الفلاح) ، لأنه كان يزور عزبة (البيه) الإقطاعى ، فمُدت له الموائد العامرة ، ومثله ذلك الذى يقول إن الليالى التى كانت تقيمها أم كلثوم كانت سبب ارتفاع أسعار المخدرات ، كأن (الغرز) التى تجمع (المساطيل) تتسع لمصر كلها .

وكأنى بصاحب (عبقرية المكان) رغب فى مراجعة نفسه ، أو شعر بأنه أرخى زمام (المنقولات) ، حتى عاشت فى أرض وتاريخ (كنانة اللّه) ، فقال : (إن مصر فى غضون عصرها الطويل - كمستعمرة - لم تعدم دورات توسعية لاتقل طموحًا وقوة عما عرفت فى أروع مراحل عصرها الإمبراطورى الغابر ، لقد كانت القاعدة الأرضية - البشرية والجغرافية - الاستراتيچية تؤكد وجودها ، وتفرض ثقلها ومغناطيسيتها ، وتشع جاذبيتها ، بصرف النظر عن القشرة الحاكمة ، أو القيادة العابرة التى قد تذهب وتجئ ، من الخارج أو من الداخل ، إنه التناقض - الطبيعى أحيانا - بين الثوابت الجغرافية الصلدة والمتغيرات السياسية السطحية) - شخصية مصر ص ١١٢ .

وكان من واجبه أن يعرف أن (الثوابت الجغرافية الصلدة) لاتعطى عطاءها بدون (الثوابت البشرية الصلدة) ، ممثلة فى هذا الفلاح (المفترى عليه) !!

ومما يثير الدهشة فى منقولات الدكتور حمدان أن يستند إلى قول دورين وارينر : (من حيث تنظيم الإنتاج ، تعتبر مصر بالفعل مزرعة إدارية ضخمة ، تقوم فيها مصلحة الرى بمراقبة كمية الماء الموزعة ، ومعها مساحات المحاصيل ، وللحكومة رقابة على الزراعة ، على أساس من التخطيط أكبر بكثير جداً مما لأعظم وأشد الحكومات اشتراكية فى العالم) - شخصية مصر ص ٦٤ - ليقيم الدليل على الاشتراكية فى مصر ماقبل الثورة ، وهو قول أشبه بمن يستدل على الاشتراكية فى مصر ماقبل الثورة بصوانى الطعام التى كانت تجتمع - من كل بيت فى القرية - يوم العيد فى المسجد أو فى أحد الميادين ، وبمن يستدل على عمق الإيمان المصرى ببدعة (موائد الرحمن) التى انتشرت فى السنوات الأخيرة ، خلال شهر رمضان .

وليس هذا التسطيح بأهشّ قشرة من القول بأن (البيروقراطية فى مصر قديمة قدم الحضارة الفرعونية ، مع الأهرام تبدأ ، وفيها تتلخص ، ويكفى بعدها أن نرى صور «كبار الموظفين» على النقوش والآثار القديمة ، وأن نعرف أخبارهم المتواترة فى البرديات والسجلات العديدة ، حتى ندرك خطورة الدور الذى لعبته الهيئة البيروقراطية فى القديم ، بل إن شئت رمزاً بليغًا ففى النحت تجده ، ابتداء من تمثال «الكاتب» ، حتى تمثال «شيخ البلد» ، فهذه جميعا نصب تذكارية ، وتاريخ محفوظ أو محفور للبيروقراطية الفرعونية الثقيلة ، بل لقد اعتبر ماكس فيبر نظام الموظفين فى الدولة الحديثة «النموذج» التاريخى الذى سارت عليه البيروقراطية فيما بعد) - شخصية مصر ص ٧٧ .

إن اتخاذ التماثيل أو صور كبار الموظفين - دليلاً على أصالة البيروقراطية - هو لون جديد فى الاستقراء المنطقى ، للوصول إلى أحكام قاطعة ، أشبه باتخاذ كثرة الصور الملصقة على جدران الدول النامية دليلاً على حب الرؤساء .

إننا لانستطيع أن ننفى قدم البيروقراطية فى مصر ، لكن ليس عن طريق ذكر أو تصوير كبار الموظفين ، وإلا فثمة نقوش وصور كثيرة لكل قادر على بناء مقبرة .

وإذا عُدّ الكاتب وشيخ البلد من رموز البيروقراطية فإن العمدة والخفير والنقاش والبناء ورئيس العمال ، وكل من ولى أمراً فى مصر ، حتى الملك والقائد والوزير والكاهن - يصبحون جميعا أعمدة البيروقراطية ، ومن ثم لا تكون بيروقراطية إذا انحل عقد النظام الحاكم .

وكتب هيرودوت : (ليس فى العالم قاطبة أناس يحصلون على محصول من التربة بعمل قليل جداً كهذا ، إنهم لايتكبدون عناء شق الأرض إلى خطوط بالمحراث ، أو عناء العَزْق ، أو القيام بما تقوم به الشعوب الأخرى من عمل لإنتاج محصول ما ، فالنهر يرتفع من تلقاء نفسه ، فيروى حقولهم ، ثم ينسحب بعد الرى ، حينئذ يقوم كل منهم بزراعة حقله ، بأن يطلق فيه الخنازير التى يستخدمها لضغط البذور فى التربة ، ثم ينتظر الحصاد) !!

هى نفس الرؤية التسطيحية التى تحكم على المجتمع المصرى من خلال أفلام السينما ، أو من خلال صفحة الحوادث فى الصحف ، أو من خلال (شارع الهرم) . . كأنهم لم يعثروا على المحراث المصرى والفأس فى العصر الحجرى الثانى !! ويأتى المؤرخ الكبير توينبى ، فيقول : (خلال الخمسة أو الستة الآلاف من السنين الماضية استأثر قادة المدنيات المختلفة بثمرة كد الجماعات ، وحرموا عبيدهم حقهم فيها ، دون تردد ، أو وخز ضمير ، كما نفعل بالنحل ، نسطو على خلاياه وعسله) .

وتابعه الدكتور محمد شفيق غربال ، فقال : (البلاء قديم قدم إنشاء مصر ، فها هو ذا فرعون مصر - الملك الإله - يستعرض ما حوله ، ويرى أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، فيستهويه الخاطر المضلل ، فيتوهم أنه هو - وهو وحده - خالق مصر ، وفاته أنه لولا تعاون من جانب فلاحيه ، ولولا سهولة انقيادهم ، لما كان فى وسعه أن يخلق شيئًا ، فمارس السلطان ، وتصرف فيما أنتجه المجتمع بأسره ، كما لو كان ملكًا خاصًا به ، لايشاركه فيه أحد ، ملكًا يخدم أهواءه ، ومسراته ، وتمجيده فى هذه الدنيا ، وخلوده فى الآخرة ، فلا عجب أن نادى فى الملأ «أنا ربكم الأعلى» ، ولا عجب أن انحط شأن الفلاحين ، فلم يكونوا إلا أدوات إنتاج بشرية ، وأخذ المجتمع المصرى القديم يتسم بالجمود ، والمحافظة

على القديم والتقاليد ، كما يتسم بالعقم ، مما ناقض أتم مناقضة ماتصف به المجتمع نفسه عند مولده وفى صباه من صفات الابتكار والإقدام فى لحظة من لحظات البطولة) - تكوين مصر ص ٣٨ .

كأن مصر انفردت بهذه التجاوزات ، ونسوا ماضيعه ملوك سومر وبابل وآشور ، منذ نشأت هذه الدول ، حتى أمسك بزمامها آل بهلوى . . ومافعله الترك والمغول منذ جنكيز خان حتى السلطان عبد الحميد ، ومافعله ملوك أوربا منذ الإسكندر المقدونى حتى الملك الشمس لويس الرابع عشر ، وإيزابيلا وبطرس الأكبر ، ومافعله كثيرون من صغار الأباطرة فى القرن العشرين ، مثل فرانكو وستالين وهتلر وعيدى أمين وسى سى سيكو وعبد الناصر وصدام حسين ، وأسماء أخرى كثيرة ترتدى ثياب الدين أو ثياب البترول .

إن الطامَّة اليوم تحمل شعارات براقة ، وتتحدث بأحدث النظم والسياسات ، وتعمل عمل الضوارى ، وأخطر العصابات !!

الكهـــنـــة

- ١ -

الذين يقرءون عن الباراسيكولوچى ، والقدرة على تجاوز حجاب الزمان والمكان ، ورؤية وسماع ماهو من (الغيب الإنسانى) . . والذين يقرءون فى كتب المتصوفة والأولياء عن ركوب الموج ، والطيران فى الهواء ، والسيطرة على ضراوة النار ، وسعار الوحوش ، والتعرف إلى (المكتوب على الجبين) ، والعلاج بالهمس واللمس . . والذين شغلهم أمر التلباثى ، والتنويم المغناطيسى والحسد والفراسة والتوجس - أحسبهم جميعا لايشكون فى أن السحر محاولة للسيطرة على المادة ، من خلال القوة الروحية ، أو من خلال قوة مغناطيسية يتمتع بها أفراد بهم خصوصية .

وتبعا لهذا التميز تنشأ الرغبة فى فرض سلطان الساحر ، ويتبع هذا استجابة مستسلمة أو مستيئسة ، مما يضاعف رغبات الساحر ، وقد يصبح قوة سياسية من وراء ستار ، كما حدث ويحدث اليوم مع زعماء دول كبيرة ودول صغيرة .

ولأن السحر قوة غير مرئية إلا بآثارها ، ولأن للدين سلطانًا آخر غير مرئى - فقد سهل التنافس بين السحر والدين ، سواء تحقق هذا بسبب من طموحات الساحر ، أو بسبب من طموحات رجل الدين ، وهو مايحدث اليوم على مستوى العصابات التى تنسق بين مصالحها الخاصة ، ومقتضيات نفوذ كل عصابة فى مواجهة سلطة القانون .

ومن ثم كان استغلال الطقوس الدينية لأهواء السحرة ، بقدر ما أصبح رجال

الدين يستخدمون وسائل السحرة . . هذا مع أن الدين سابق على السحر ، وهو أقوى وأوسع انتشاراً . . لكن الدين الذى ارتبط بالخوف والرجاء ، وقام بالطقوس للتقرب إلى القوى الفاعلة فى الكون ، مالبث - مع مرور الزمن ، وسطوة المادة - أن خضع للمحتالين والأذكياء الشريرين . . وكان استغلال هذه الطقوس واصطناع طقوس أخرى متولدة عنها ، لتحقيق سلطان الفرد على الجماعة . . ومن ثم لبس الساحر - على مدى تاريخ طويل - مسوح الكاهن ، واتخذ الكاهن سمات الساحر ، وربما استخدم أدواته .

لقد كان السحر ذاتى الحركة والهدف ، ولهذا انفرد فى مرحلة من مراحل التطور عن الكهانة ، وربما أعلن تفوقه عليها ، وأدى هذا الانفراد والتفوق إلى وقوع الصدام بين الطائفتين .

إن (شعور الساحر بالاستعلاء والاستكفاء ، وموقفه الأحمق المتعجرف من القوى العليا ، وادعاؤه الوقح بقدرته على السيطرة والتسلط . . كل هذا أدى إلى إثارة رجل الدين الذى يحس بالخشية وبالرهبة نحو الجلالة الإلهية ، ويشعر بالذلة أمامها ، مما يجعله ينظر إلى دعاوى الساحر وتصرفاته على أنها نوع من الجحود والكفر والتطاول على الحقوق والامتيازات الخاصة بالإله وحده) - الغصن الذهبى جـ ١ ص ٢٢٢ .

لكن مالبث التنافس الذى باعد بينهما أن قرّب بينهما ، بسبب من (حكمة اللصوص) ، وخشية أن يؤدى الخلاف بينهما إلى كشف عَوْراتهما ، وتجرؤ القوى المعادية على اقتحام حصونهما .

(إن السحر - بأشكاله المختلفة - هو بالضرورة علم زائف ، لأنه لو حدث أن صدق وأثمر لخرج عن دائرة السحر ، ودخل فى دائرة العلم ، ولقد اهتم الإنسان - منذ أقدم العصور - بالبحث عن القواعد العامة التى يستطيع بها أن يخضع نظام الظواهر الطبيعية لصالحه الخاص واستطاع - خلال بحثه الطويل - أن يقوم بتجميع عدد كبير من تلك القواعد التى تتفاوت فى الأهمية والقيمة ، فأما القواعد الصحيحة أو الذهبية فإنها تؤلف مجموعة العلوم التطبيقية التى نسميها بالفنون ، وأما القواعد الزائفة فإنها تؤلف السحر) - الغصن الذهبى جـ ١ ص ٢١٧ .

وهذا قول يمثل الرؤية (الخارجية) ، أو رؤية من أوتوا حظًا من العلم ، لأنه - مع بداية هذا الفن أو العلم - كانت قدرة الساحر علي تغيير الصورة في عيون الآخرين أمرًا ممكنًا ، بدليل قول اللّه سبحانه ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ - بل إن القرآن الكريم يشير إلى تعلُّم السحر ، وأنه يمكن أن يفرق بين المرء وزوجه - سورة البقرة الآية ١٠٢ - ومازال الحال إلى يومنا هذا مع الجماهير التى تستجيب لمن (يخلع الضرس بعود كبريت) » أو يقدم الدواء لكل داء بتلاوة آيات من القرآن ، أو تعويذة ، ومن يجرى أخطر الجراحات بدون مشرط ، وفى كل (سيرك) يؤدى أحد (السحرة) فقرة تهز (إيمان) الجماهير بكل القواعد العلمية ، ولقد قيل إن أحد النصّابين المصريين صدّر لأوربا (مياها معدنية) من مياه الآبار الارتوازية ، فشربوها هنيئًا مرئيًا ، وطلبوا المزيد ، وقد سمعنا منذ سنين عن إعادة الشباب على يد (العجوز) أناّ أصلان ، وفى حى شبرا (الآن) سيدة تعالج كل الأمراض (المستعصية) بالمراسلة !!

من هنا كان للسحر فى مصر القديمة دولة وصولة ، حتى كان (السحرة يدعون لأنفسهم القدرة على إخضاع أعظم الآلهة لرغباتهم ، بل كانوا يهددون الآلهة فعلاً بالدمار ، إذا لم يستجيبوا لهم . كما كانوا يهددون فى كثير من الأحيان بعثرة عظام أوزيرس ، والكشف عن قضيته المقدسة ، إذا أظهر الإله شيئًا من العناد أو التمرد) ، وهذا التهديد دون شك موجه إلى الكهنة ، لا إلى الآلهة ، لأنهم كانوا على يقين من أن الكهنة هم صانعو هذه الآلهة ، (وفى الهند نجد أن الثالوث الهندوكى الأعظم الذى يتألف من «براهما» و «فشنو» و «شيفا» لايزال خاضعًا لقوة السحرة الذين يتمتعون بفضل تعاويذهم بنوع من الشعور بالاستعلاء على أقوى الأرباب ، مما يضطر هذه الأرباب ذاتها للخضوع لهم ، والاستجابة لما يأمرها سادتها السحرة ، وتحقيق مطالبهم فى الأرض أو فى السماء ، وثمة قول شائع فى كل أنحاء الهند ، هو إن «الكون كله خاضع للآلهة ، وأن الآلهة خاضعة للتعاويذ وأن التعاويذ خاضعة للبراهمة ، فالبراهمة إذن هم آلهتنا») - الغصن الذهبى جـ ١ ص ٢٢١ / ٢٢٢ .

جاء فى (بردية وستكار) أن (أحد أبناء خوفو قال لأبيه إنه يعيش فى أيامه ساحر عظيم ، يستطيع أن يأتى بالمعجزات ، فأرسل الملك فى طلبه ، وقام

الساحر ببعض المعجزات أمام الملك ، ومنها إعادة الحياة لبعض الحيوانات بعد ذبحها ، وفصل رأسها عن جسدها . . ثم طلب خوفو من الساحر أمرًا ، فرد بأنه لايستطيع ، لكن الذى يمكنه القيام به هو أكبر أطفال ثلاثة فى بطن زوجة لكاهن حملت بهم من الإله «رع» نفسه ، وإن الإله «رع» أخبرها بأنهم سيتولون عرش البلاد ، وأن أكبرهم سيكون الكاهن الأعظم فى مدينة « إيون » - هليوبوليس - ويضطرب خوفو ، لكن الساحر يطمئنه بأن ذلك لن يكون قريبًا ، وأنه لن يحدث فى عهده ، وأن ابنه سيحكم من بعده ، ثم يأتى بعد ذلك واحد منهم) - مصر الفرعونية ص١٢٩ .

ومادام كل ذلك سيأتى بعد موت كل الأطراف ، فإن باب الادعاء أوسع الآفاق ، كما قال (أبو لمعة) . . لكن المهم أن الساحر وضع بذرة خبيثة ضد الكهنة .

* ولأن السحرة كانوا يجدون من يصدقون ، حتى من الملوك ، كما فعل فرعون موسى الذى جمع سحرته ليواجه (معجزة) موسى - فقد تفننوا فى وسائل الكسب ، أو وسائل السيطرة .

كانوا يكتبون أسماء الأعداء على أوانى من الفخار الأحمر ، أو على قطع صغيرة من الطين ، أو تماثيل من الطين ، منذ العصر المتأخر من الدولة القديمة ، لكنها استعملت فى عصر الأسرة الثالثة عشرة على نطاق واسع ، وقد عثر فى طيبة على أوان من الفخار الأحمر ، غطيت جوانبُها بتعاويذ سحرية لسحق أعداء فرعون - مصر الفرعونية هـ ص٢٣٥ و (لكى يكون للرقَى أثرها الصحيح كان على من شاء أن يتلو وردًا يجلب له الحظ أن يتطهر تسعة أيام ، وبعد ذلك يتضمّخ بنوعين من الزيوت ، وأن يتبخر ، بحيث تكون المبخرة من وراء الأذنين ، وأن يطهر الفم بالنطرون ، وأن يغتسل بماء الفيضان ، وأن يتخذ نعلين من الجلد الأبيض ، ونقبتين جديدتين ، وكان عليه آخر الأمر أن يرسم على لسانه علامة الحق بمداد أخضر ، ثم كان عليه بعد ذلك أن يدخل فى دائرة لايجوز له أن يتركها طوال أداء الطقس السحرى ، ولتلاوة ورْد آخر تلاوة مجدية كان يجب أن يرسم على الأرض صورة كاملة تمثل امرأة « إلَهة » ، على وسطها ثعبان منتصب على ذيله ، وسماء ، وأشياء وأخرى كثيرة) .

(وكان من الخير ألا تتلى الأوراد مرة واحدة ، وإنما أربع مرات ، مع كثير من الدعوات ، فإذا ألحقت بها كلمة « اليوم » كان ذلك علامة على أنها يجب أن تؤتى أثرًا سريعًا) .

(وكان ينبغى أن تتلى هذه الرقى فى صوت مهيب ، ومن ثم كانت عادة تنظم شعرًا) .

(وتتعدد الأغراض التى يستخدم فيها السحر ، على نحو ما تتعدّد ضرورات الحياة ، فهو يصرف العاصفة ، ويحمى من السباع فى الصحراء ، ومن التماسيح فى الماء ، ومن الثعابين والعقارب ، وبه تحارب جميع السموم ، وتعالج جميع الجروح ، والأمراض ، وهو يقى من الموتى الأشرار الذين يتركون مقابرهم ويتربصون بالبشر . . إلخ) .

(وكان إذا صنعت تماثيل الآلهة والبشر من الشمع ، ثم دسّت فى منزل الخصم ، فإنها تشلّ فيه يد الإنسان) - ديانة مصر القديمة - ص ٣٣٨ - ٣٤١ .

(وكانت رعاية السحر من واجبات « دار الحياة » ، مدرسة العلم فى مصر ، كما كانت كتب السحر تؤلف على منهاج منظم ، وكان لها مكانها فى مكتبات الملوك ، إذ كانت فى حقيقة الأمر تنتمى إلى الأدب ، كالكتابات الأدبية ، أو كتب الحكمة ، وكانت جميعها يُدّعى بأنها قديمة جدًا ، فقد ألّف أحدها إله الأرض ، ووجد كتاب ألفه أمنحوتب بن حابو ، وزير أمنحوتب الثالث ، لاستعماله الخاص) - ديانة مصر القديمة - ص ٣٤٤ .

وكان للأمير خَعْموا ست ابن رمسيس الثانى شهرة عظيمة فى المسائل اللاهوتيه الخفية ، وفى علم السحر ، وقد عَزت إليه النقوش تأليف عدة كتب فى السحر ، تحوى إرشارات لاستدعاء الأرواح والعفاريت الخاصة بالدنيا وبالآخرة - مصر القديمة جـ ٦ ص ٤٤٦ .

(ومن كان يملك رقية أبو فيس كان يذب التّنّين عن سفينة الشمس ، ويشتت السحاب ، ويطرد العواصف ، «ويكسب فوائد على سطح الأرض ، وفوائد فى مملكة الموتى» ، كما كانت تمنحه «القدرة على القيام بعمل رئيسه » ، «وتخلصه من كل سوء») .

(وكان مما اختص به السحر فى العصر المتأخر صناعة تماثيل وشواهد صغيرة كانت تقام فى البيوت ، أو تعلق فى الرقاب ، حماية من مختلف أنواع الحيوانات الشريرة) .

(وكان من وسائل الحماية حَبْل صغير تعقد به سبع عقد ، أو تنظم سبع حلقات من الحجر ، وسبع حلقات من الذهب ، فى سبعة خيوط من الكتان ، تعقد بها سبع عقد ، وقد يضاف كيس صغير به عظام فأر ، أو خاتم نقشت عليه صورة يد وتمساح ، أو لوحة صغيرة عليها طائفة من صور الآلهة) .

(وفى سائر هذه التمائم تكمن « الحكا » ، القوة التى تسمو على الطبيعة ، والتى تملكها الآلهة ، وتستقر فى أسمائهم الخفية ، والتى يمكن أن تحل فى الأشياء المقدسة ، كتيجان الملك الزاخرة بالسحر) .

(ومن شأن التمائم والرقى أن تنقل إلى الإنسان نصيبًا من هذه القوة التى كان يعتمد عليها فن السحر) .

(ومازال « الكتاب المصري الحقيقى فى الآحلام » معروفًا فى أوربا ، وهو على غرار كتب الأحلام اليوم) ديانة مصر القديمة ص ٣٤٥ / ٣٤٨ .

هامـــــش ..

ذكر صاحب كتاب (التراث المسروق) ص١٣٠ أن هيرودوت تحدث عن الكهنة المصريين بأنهم كانوا يتمتعون بقوى خارقة للطبيعة ، لأنهم تدربوا على فلسفة مقصورة على عدد محدود من الصفوة الذين كانوا يُهَيْمنون على نظم (الأسرار العظمى) ، وكانوا خبراء فى السحر ، وكانوا يتمتعوَن بقدرة على التحكم فى عقول الناس (التنويم) ، وبالقدرة على التنبؤ بالمستقبل ، وبالقدرة على السيطرة على الطبيعة (قدرات إلهية) ، وذلك بإعطاء أوامر باسم الإله ، وبذا يأتون أفعالاً عظيمة .

ويرى هيرودوت أن مصر موطن أشهر عمليات الوحى الإلهى التى عرفها العالم القديم ، مينيرفا فى سايس ، و ديانا فى بوبسطة ، و مارس فى بابريميس ، وجوبتير فى طيبة ، و أمونيوم . .

إن الكهنة المصريين هم أول كهنة حقيقيين فى التاريخ مارسوا - حسب الزعم السائد - السيطرة على قوانين الطبيعة ، ولعل مما يجدر ذكره أن (كتاب الموتى) المصرى هو كتاب وصفات وتعاليم سحرية ، استهدف توجيه قَدَر النفس الراحلة ، لقد كان كتاب الصلوات الخاص بنظام الأسرار المصرى ، وقد تدرب الكاهن المصرى على ظروف مابعد الوفاة ، وطرق التحقيق منها .

وهذا قول لايرتفع إلى مستوى الحقيقة بنسبته إلى هيرودوت ، لأن هيرودوت - شأن چورچ چيمس صاحب التراث المسروق - بالغ كثيراً فى إضافة أخبار مصرية بعيدة عن المنطق إلى تاريخه .

لكن الأكثر إثارة للدهشة هو ماذكره الدكتور سيد كريم - الهلال مايو ١٩٩٧م - عن إحدى برديات السحر التى وجدت فى مقبرة أحد كهنة معبد بتاح أنه كان - بفضل قوى (إيمحوتب) السحرية - يقيم الأعمدة الشاهقة ويثبتها فى مواقفها ، ويرفع كتل الأحجار الضخام وينقلها من مكان إلى آخر ، ويحركها بدون مجهود .

وهو ماقد يكشف أسرار بناء الأهرامات ، ويفند كل النَّظريات الاجتهادية التى وضعها الكتاب والمؤرخون فى تَخَيّلهم عن استعمال الزحَّافات الخشبية ، وحبال الجر ، والسخرة البشرية لنقل الأحجار ، والتى أثبتت البحوث العلمية بعدها عن الحقيقة .

هذا إذا قلنا إن إيمحوتب هو بانى الهرم المدرج للميكه زوسر ، وطريقة بناء الهرم المدرج لاتحتاج إلى هذا اللون الخارق من السحر ، فهل ورث السحرة عن سيدهم إيمحوتب هذه القدرة التى أقامت الأهرامات الكبرى التى أنفقت فى إقامتها سنوات ، وعشرات الأهرامات الأخرى ؟ وماذا بشأن المسلات والتماثيل الضخمة ؟ وماذا عن ذلك المحراب - (مصر القديمة جـ١٢ ص ٣٠٩ / ٣١٠) - الذى أحضره أحمس الثانى (من حجر واحد) ، من مدينة ألفنتين ، وقد خصص لنقله ألف رجل لمدة عامين كاملين ، وكل هؤلاء الرجال كانوا بحارة ، وطول هذه الحجرة من الخارج إحدى وعشرون ذراعًا ، وعرضها أربع عشرة ذراعًا ، وارتفاعها ثمانى أذرع ، وهذه هى الأبعاد الخارجية الحجرية من حجر واحد ، ليضع فيها تمثال الإلهة (نيت) على مايظن !!

- ٢ -

أثمرت تعاويذ السحرة سلطة ومالاً ، مما أثار رجال الدين ، فأسرع الكهنة وركبوا التيار . . وكان أن بالغوا فى صناعة الآلهة ، وفى اتخاذ الطقوس ، وتحالفوا مع السحرة ، أو صاروا سحرة ، جمعوا بين الدين والسحر فى وعاء ، وجعلت الطقوس تتنامى ، والتعاويذ تتوالد . . ولما صار لهم (هيل وهيلمان) ، اتخذوا الشكل الذى يميزهم عن باقى الناس ، فرءوسهم حليقة ، ولم يكن مسموحًا لهم بارتداء الملابس الصوفية فى أماكن عامة ، بل الملابس الكهنوتية الكتانية فقط ، (وكانوا يغتسلون مرتين ليلاً ، ومرتين نهاراً ، ويحلقون رءوسهم كل يوم ، ويتخذون نعالهم من البردى) - ديانة مصر القديمة - ص٣٧٧ .

وكان على الكاهن أن يجيد فنونًا من المعرفة ، (وأن يكون ضليعًا فى الكتب المقدسة ، وأن يعرف الأيام والساعات المحددة للشعائر المقدسة ، وأن يتخلق بالأخلاق الفاضلة ، وأن يكون «ذا فم قويم ، وشفتين عَذْبتين» ، حتى يكون لتسابيحه - عند تقديم القرابين - جرس جميل ، وما كان له أن يعجل فى خطوه ، ولا أن يتحدث بصوت عال) - المصدر السابق ص٤٤٦ .

و (على قمة الكهنوت يوجد خدم الإله ، وآباء الإله الذين نسميهم الأنبياء ، وهم الذين يفتحون أبواب السماء ، أى الذين يدخلون إلى قدس الأقداس ، ويعرفون كل أسرار الإله ، ويمكن أن نميز بينهم - عدا آباء الإله المعتادين - أربع طبقات أكثر سموا) - المصدر نفسه ص ٢٢٦ .

(وفى عهد الأسرة الخامسة ظهر بجانب الكهنة المرتلين - خرحب - طائفة أخرى من الكهنة تسمى «حنك نيسوت» ، وهم الذين كانوا يقدمون القربان للملك ، وليس من بينهم من أولاد الملك من يحمل هذا اللقب ، ولابد أنهم كانوا أقل من المرتلين . . وهؤلاء الكهنة ينتخبون جميعهم من بين الشخصيات العظيمة ، وبخاصة من كبار رجال القصر الملكى . . وإلى جوارهم كان الكهنة المطهرون الذين كانوا يحتفلون يوميًا بإقامة الشعائر ، ويؤلفون فرعًا مميزاً من رجال الدين لهم إدارة خاصة منفصلة ، وكان الكهنة المطهرون ورؤساؤهم ينتخبون من بين رجال القصر وعظماء رجال الدين فى الأسرة الرابعة ، أما فى

الأسرة الخامسة فكان بعضهم ينتخب من بين كبار الموظفين . . وثمة نوع آخر من الكهنة يسمى «حم كا» ، أى خدام الروح المادية ، وهم الذين كانوا يحتفلون بإقامة الشعائر الملكية فى القصر ، وفى معابد الأهرام ، وفى معابد الشمس ، وفى الهياكل العظيمة ، وكذلك فى المعابد المحلية ، حيث يوجد للملك مذابح) - مصر القديمة جـ٢ ص ١٢ / ١٣ .

وأحاط الكهنة أنفسهم بعباءة من الأسرار ، حتى لاتقتحم حصونهم .

ولهذا أورثوا أبناءهم وظائفهم ، وحرصوا على تعليمهم قواعد اللغة والكتابة والحساب والكيمياء والطب ، و (أن يعرفوا صور المعبودات وألقابهم وصفاتهم ومزاياهم وقصصهم ، وأن يلموا بكل مايختص بالشعائر الدينية والعقائد ، وأن يؤدوا امتحانًا فى نهاية الدراسة ، ومن كان جديراً بالاندماج فى هذه الهيئة كان يخلع ملابسه ، ويستحم ، ويحلق ، ويتطيب ، ثم يرتدى زى رجال الدين كاملاً ، قبل أن يسمح له بدخول أفق السماء) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٣٧٩ .

* وإلى جانب الكهنة كان للآلهة فى الدولة الحديثة هيئة من الكاهنات لم يشغلن سوى دور ثانوى فى العبادة ، وهن مغنّيات الإله ، وكان عددهن كبيراً فى خدمة آمون ، وكانت سيدات العائلات الكريمة يتشرفن بالانتماء إلى هذه المجموعة ، وكانت على رأسهن عادة زوجة الكاهن الأكبر ، بالإضافة إلى سيدة من الأسرة المالكة ، هى زوجة الإله ، ممثلة الإلهة «موت») .

(وكانت أول سيدة عرفت هى إيحموزه - نفر - إيرى - والدة الملك أمنوفيس الأول التى اختيرت فيما بعد حامية لمدينة طيبة . . وكانت حتشبسوت زوجة إلهية ، قبل اعتلائها العرش ، وبعد أن صارت ملكة أسبغت هذا الشرف على ابنتها «نفرو رع») - ديانة مصر القديمة ص٢٢٦ .

(وكان لكل معبد فريق من المغنيات ، كان عليهن أن ينشدن ويتغنين ويحركن الصلاصل ، أو الصاجات ، أثناء إقامة الشعائر الدينية ، ولم يُقم هؤلاء النسوة فى المعبد ، بل كن يُقمن مع أسرهن) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص٣٧٨ .

ثم ظهرت خرافة تقول : (إن طيبة لن تتبع بعد هذا أميراً من البشر ، فقد كان لها سيد إله هو آمون ، ولم يكن ممثل سلطانه على الأرض كاهنه الأعلى ، كما قد يظن ، وإنما كانت «الزوجة المقدسة» ، أي زوجة الإله في الأرض ، وبهذا غَدت طيبة أشبه بإمارة روحية ، تقوم بالحكم فيها سيدة من الطبقة الراقية ، ولابد أن كل أسرة حاكمة كانت تطمح في الحصول لإحدى أميراتها على هذه الوظيفة السامية ، ومايرتبط بها من ثروة ، وقد حدث هذا كثيراً في أواخر دولة الفراعنة ، أو في الألف الأولى قبل الميلاد) - ديانة مصر القديمة ٣٥٦ .

* وقد ظهرت شخصيات ذات أثر بارز في مسيرة الكهنة ، منهم « باك إن خنسو » الكاهن الأكبر خلال حكم رمسيس الثاني (١٢٩٢ - ١٢٢٥ ق.م) ، (تلقى تعليمه الأول في مدرسة معبد «موت» ، ومن السنة العاشرة حتى الواحدة والعشرين تلقى تعليماً عسكرياً ، إذْ أُلحق بالإسطبل الملكي ، أي كان عضواً في فرقة الممتازين ، ثم دخل خدمة آمون بصَفته كاهناً ، وبعد أربع سنوات صار أباً للإله ، لمدة اثنتي عشرة سنة ، وفي سن السابعة والثلاثين صار نبياً ثالثاً ، وفي سن الثانية والخمسين صار نبياً ثانياً ، وأخيراً جعل منه آمون - وهو في سن الرابعة والستين - نبيه الأول ، أي كاهنه الأكبر ، وهو يفخر بأنه كان أبا لمرءوسيه ، وأنه كان يمد يده للبؤساء ، وأنه كان ينال تقدير الفقراء والأغنياء ، لأنه كان يعطي كلاً مايستحق ، واهتم بجنازة من لا أولادلهم ، وحمى الأرامل والأيتام ، وثَبّتَ للابن وراثة أبيه ، وأنه أبعد ذوي السيرة السيئة) - المصدر السابق ص٢٢٧ .

ويقول سليم حسن إنه أمضى نحو سبعين سنة في سلك الكهانة ، ولايبعد أنه جاوز المائة قبل أن يوافيه الأجل - مصر القديمة جـ٦ ص ٤٨٩ / ٤٩٠ .

وقد خلفه (رومع - روى) ، الكاهن الأول الجرئ (الذي أمكنه أن يمد من جديد سلطان الكهنة العظام لآمون على رجال الدين ، ومعابد الوجه القبلي والوجه البحري ، واستفاد من انعدام السلطة المدنية بعد موت «مرنبتاح» ، حتى بلغت به الجرأة أن نقش اسمه ورسم صورته على غرار ماكان يفعله الفرعون على أحد جدران معبد الكرنك ، على مقربة من مسكن الكهنة العظام ، وهو المكان الذي كان على مايظهر ينبغي على «حريحور» أن يخرج منه ليتوج ملكاً على البلاد ، عندما حانت له الفرصة) .

(وحـركـة الانقـلاب التى رسم خُطّتـهـا «رومع- روى» هذا لـم يكن لـهـا مايشجعها مباشرة . . وذلك لأن النشاط البارز الذى أظهره رعمسيس الثالث كان كافياً لوقف إرادة كهنة «آمون» العظام المتأرجحة نحو الاستقلال ، ولكن عندما اختفى من على عرش الفراعنة آخر ملوكها العظام لم تلبث البلاد أن اضطرب أمرها ، وعضها الفقر بنابه . . وفى هذا الوقت كان على رأس كهنة «آمون» أسرة بقى أفرادها يتوارثون وَظيفة الرئاسة حوالى أربعين عامًا . . وفى الواقع كان أفراد هذه الأسرة هم القابضين على زمام الأمور فى البلاد من كل ناحية ، وكان من بينهم الوزير ورئيس المشرفين على الضرائب ، وغير ذلك) .

(وقد وصل نفوذ الكاهن الأكبر إلى درجة أمكنه بها أن يجعل مالية آمون مستقلة ، وأن يرسم صورته على جدران معبد الكرنك ، بنفس الحجم الذى مثلث به صورة الفرعون نفسه) .

(وقد استطاع «حريحور» أن يجمع بين يديه القوة الدنْيوية والسيطرة الدينية ، فكان رئيسًا لكهنة «آمون» الأثرياء ، وقائدًا لكل الجنود ، ورئيسًا للمالية ، ونائب الفرعون فى بلاد النوبة ، ووزيراً ، والمدير الإدارى للأرضين - مصر - وذلك فى عهد فرعون نكرة) .

هذا (مع أن «حريحور» لم يكن من أسرة كهنة ، ولم يتربَّ تربية دينية ، إنما استعان بطائفة الكهنة ، لعلمه أنه لن يصل إلى هدفه بدونها) .

(وكان من الطبيعى - بعد أن بقى نحو عشرين سنة يشغل وظيفة عمدة القصر الملكى لفرعون خامل ، قام فى خلالها بالقضاء على رذائل كثيرة شائعة ، وبإطفاء نار الثورة التى كانت مندلعة فى طيبة ، وبالقضاء على الأجانب الذين كانوا يجتاحون البلاد من كل حدب وصوب - أن يجد نفسه سنة ١٠٨٥ ق . م الفرعون ، بعد أن اختفى رعمسيس الحادى عشر ، الفرعون الدمية ، وبهذا صار مؤسس الأسرة الواحدة والعشرين) - مصر القديمة جـ ٨ ص ٦٢٤ / ٦٢٥ .

هذا بينما كان الوزير (سمندس) الذى استولى على الألقاب الملكية قد صار الفرعون فى (تانيس) ، ومؤسس الأسرة المالكة بها ، وقد حكم ٢٦ عامًا ، وتلاه

(بسوسنس) ٤١ عاما ، و(نفرخرس) ٤ سنوات ، و(أمنوفيتس) ٩ سنوات . [١]

(وعندما أصبح «حريحور» فرعونًا على الجنوب فى «طيبة» ولى ابنه «بيعنخى» كاهنا أكبر لآمون ، وولاه قيادة الجيش ، غير أنه مات قبل أن يتولى عرش طيبة) .

(وقد خلف «بيعنخى» ابنه «بينوزم» الأول ، وعندما نودى ليتولى العرش كلّف بكر أولاده «ماساهرتا» القيام بالمهام الدينية) .

(وعندما خاف «أوسركون الثالث» من الخطر الذى يمكن أن يهدد هذه الأسرة التى كان أمراؤها من الكهنة - ألغى وظيفة الملك الكاهن ، ووضع على رأس أملاك آمون وكهنته «الزوجات الإلهية» ، والمتعبدات الإلهية ، وقد بدأت سلسلة أولئك السيدات بابنته «شابت أبت») .

وقد قال ماسبيرو عن هؤلاء الزوجات الإلهية : (إنهن يؤلفن طائفة المحظيات المقدسات كاللاتى يوجدن فى فينيقيا وسوريا وكلديا ، وهذا القول فيه شك ، ولكن يحتمل أنهن كن يؤلفن مجرد رفيقات ، وبمثابة حرس شرف للكاهنة التى كان لها علاقة جسمية مع الإله ، وهى التى كانت تحل على الأرض محل الإلهة «موت» زوج الإله «آمون» ، كما كانت فى الأصل الإلهة «حاتحور» زوج الإله «رع» الذى وحدّ آمون معه فيما بعد ، فسمى «آمون رع» ، ولذلك كانت تسمى «الزوجة الإلهية لآمون») .

(وأقدم زوجة إله معروفة لنا حتى الآن هى الملكة «اعح حتب» والدة الفرعون «أحمس الأول» ، وقد أصبح تقريبًا كل آمهات الملوك يحملن هذا اللقب على غرارها ، وذلك قبل عهد الانقلاب الدينى الذى قام به أخناتون) - مصر القديمة جـ٨ ص ٦٢٤ / ٦٢٨ .

* ومن أهم أعمال «حريحور» أنه أتم بناء معبد إله القمر خنسو ، ثالث آلهة طيبة ، الذى بدأ بناءه رمسيس الثالث ، وكان من عادة الفراعنة - إذا أرادوا بناء معبد - افتتاح محجر يمدهم بالحجر اللازم للبناء ، أما حريحور فقد هدم المعابد القديمة ، واستخدم أحجارها فى مبناه ، وقد رُصّت الأحجار بحيث تختفى

(١) الأسماء فى المصادر الأخرى مختلفة !!

نقوشها فى البناء ، فإذا تعذر ذلك أزيلت منها النقوش ، أو غشّيت بطبقة من الجص - ديانة مصر القديمة ص ٣٥١ / ٣٥٢ .

ومن المعلوم أن بدعة القبور الحجرية أو المنقورة فى الصخر ، والنقوش التى تكتب على جدرانها ، إنما هى من إيحاء الكهنة ، وإن تولى أمرها مهندسون ونقاشون ، ولأنها من إيحائهم فقد سهل عليهم العبث بها .

والنقوش لاتقف عند التعريف بصاحب المقبرة ، بل تمتد إلى تعاويذ تيسر له الطريق إلى الخلود فى مرضاة الإله ، أو الآلهة ، والتجاوز عن شروره ، والاستمتاع بالنعيم الأبدى .

ومن خلال هذه النقوش أمكن السيطرة على كل القادرين ، هذا بالإضافة إلى أن خدمات المقبرة والقيام على صيانتها كان يتطلب توظيف طائفة كبيرة من الكهنة ، وتوسيع القاعدة الكهنوتية التى تعين على توسيع نفوذ الكهنة الكبار ، ومضاعفة ثرواتهم .

كان الشريف يقوم بعمل وصايا مدونة بعناية ، وهبات يوقف دخلها كله لتموين قبره ، وتقديم القرابين من البخور والدهان والطعام والشراب والملابس ، بمقادير وفيرة ، وفى فترات متقاربة ، ومن الجائز أن يكون هذا الدخل مصدره أملاك الشريف نفسه ، وقد يكون من المربوط على وظائفه السابقة ومرتباته الإضافية التى تقتضيها مكانته فى الدولة . ذلك أن (هذه المخصصات تقى المتوفى شر الجوع والعطش والبرد فى الحياة الآخرة ، وتعينه على الاشتراك فى إقامة أعياد السنة واحتفالاتها الدينية ، فلا يصح - بعد مافارق الحياة الدنيا - أن يتخلى عن استمتاعه بهذه الاحتفالات الخاصة بكل أيام التقويم الهامة فى العالم الآخر ، كما كان يفعل مع أصدقائه فى الدنيا) - فجر الضمير ص ٧١ / ٧٢ .

* لقد لعب الكهنة دوراً خطيراً فى العقائد الجنازية . . وإذا كان المصريون - لسبب أو لآخر - تعلقوا بموتاهم ، وواصلوا الاتصال بهم ، عن طريق زيارة القبور ، أو الاحتفاظ بصورهم ، أو تلاوة بعض الصلوات أو التعاويذ ، فقد كان دور الكهنة فى تعميق هذه المشاعر ، وفى توظيفها لصالحهم ، وفى تحويلها إلى طقوس وقرابين ومعابد وأبنية شامخة .

لم تكن شعوب كثيرة تتحدث عن مصير موتاهم ، بل كانوا يتحرجون من الحديث عنهم ، على حين كان المصريون يفكرون فيهم بغير انقطاع ، ولا يدخرون وسعا فى العناية بهم والاهتمام بسعادتهم ، ويعملون على بقاء ذكراهم - ديانة مصر القديمة ص ٢٣٢ .

ولا يمكن أن يكون هذا بسبب من الوفاء المتأصل فى النفس المصرية ، بحيث يتهم الآخرون بعدم الوفاء . . ولا يمكن أن يكون مرد هذا إلى طبيعة مصر الخيرة ، فما أكثر الخيرات فى بلاد مابين النهرين وغيرها من البلاد التى كانت على صلة دائمة بمصر . . إنما يمكن أن يرد هذا إلى عمل الكهنة المتواصل على احتلاب هذا الشعب (المسكين) ، فقد سدوا عليه كل المنافذ ، وعلقوا على كل نافذة أكثر من (إله) ، ومئات التعاويذ (السحرية) ، حتى سجنوه فى مقابر من الحجر .

(وكانت الصيغ التى يلقيها الكهنة الجنازيون تقدّر بـ ١٧٨ صيغة ، كانت تشمل أسماء مايقدم من الطعام والشراب والملابس والدهان والعطور والبخور)- فجر الضمير ص ٧٦ .

أى كما يقول المثل الشعبى اليوم (موت وخراب ديار) ، لأن بقية من هذا الميراث ماتزال بيننا ، ولقد صنع حاخامات اليهود ، وبابوات ومطارنة النصارى ، مالا يقل استبدادًا وعسفًا . [(١)]

وكان الكهنة حريصين على وقوع الملك تحت سلطانهم ، أو يوهمونه بأنهم يعملون تحت سلطانه ، ليضمنوا السيطرة على جميع الأمراء وكبار الملاك .

وكان من وسائل السيطرة على الملك اعتباره (قرينا لأوزيريس) حتى يكون له حق البعث والاستمتاع بالحياة الخالدة .

ومن ثم كانت تعويذة : (استيقظ أيها الملك ، وانهض ، وخذ رأسك ، واجمع عظامك معا ، وانفض عنك التراب ، واجلس على عرشك الحديدى) .

(يالحم الملك ، لاتتحلل ، ولا تتعفن ، ولا تخرج رائحة كريهة) - الموتى وعالمهم ص ٤١ / ٤٢ .

---

(١) انظر كتابى (دراسة فى التوراة والإنجيل) ، وكتابى (مسيحية بلا مسيح) .

ومادام فى الإمكان تحقيق هذا (الحلم) ، وما أكثر الملوك الذين يحلمون - فإن من السهل سقوط الذين يدينون بالولاء للملك ، والذين يتحلون بأكفان الملك ، أما غير القادرين فقد يُكتفى بمصّ دمائهم على طريقة (العلَق) الذى يلتصق بالجسم ، ولا يسهل انتزاعه .

هذا رئيس الشون (نختمين) - من أشراف الأسرة الثامنة عشرة - يرجو لنفسه (مجداً فى السماء ، وقوة فى الأرض ، وتبريراً فى العالم السفلى) ، إلى آخره .

وهؤلاء أهل (باحرى) أمير الكاب ينقشون على قبره مايتمنون له (إنك تدخل وتخرج بقلب جَذّلان ، وبما يكافئك به سيد الآلهة . . إنك تغدو روحا حية ، ولك التصرف فى الخبز والماء والهواء) ، إلى آخره .

ولم يكن الموتى يكتفون فى بعض التعاويذ والصلوات بأن يبعث الجسد ثانية ، وإنما ينبغى أن يبعث فى شباب غضّ على نحو ما كان ، وأقوى مما كان . . وهذا مايسَّر على الكهنة الإيحاء بكثير من «المأكولات» والقرابين .

يقول إرمان : (لم يفت المصريين - فى أقدم عصورهم - تزويد موتاهم بما يلزمهم من أثاث جنازى ، فكان يوضع إلى جانب الميت قبل كل شئ قدور وصحاف فيها طعام وشراب ، حتى لايجوع أو يعطش ، وكان يتلقى الخطاطيف والنصال من الحجر ، ليصطاد طعامه ، ويحمى نفسه ضد أعدائه ، ورقعة اللعب ليزجى بها وقته ، ودبابيس الشعر ، وصلايات من الحجر لصحن الصبغ الأخضر ، حتى يحسن ترجيل شعره وصبغ ماحول عينيه ، كما فعل من قبل فى حياته ، وكانت تضاف إلى هذا أشياء أخرى لايمكن أن تفيده إلا عن طريق خارق للعادة ، مثل قارب صغير من الصلصال يساعده فى عبور المياه التى تحيط بحقول الأبرار فى السماء ، والخادمة من الصلصال لتعجن بقدميها عجين الشعير ، وتعدّ له الجعة ، شرابه المفضل ، وتماثيل لنساء يمنحنه ملذات الهوى) - ديانة مصر القديمة ص ٢٧٥ .

ويلاحظ أن هذه التماثيل تزوَّد بتعاويذ تعينها على (التجسد الحى) ، مما يؤكد أن كل ماتزود به المقبرة من وحى الكهنة ، وأكثره من صناعتهم .

ويقول إرمان إن ثمة احتفالات فى (العالم الآخر) يشترك فيها كبار القوم مع الآلهة . وهذه الاحتفالات (تتضمن وجبات حقيقية من الخبز الجيد واللحم والكعك والرقاق ، وكان ذلك كله مكوما فى سلال مختلفة الأشكال تتفق ومقام الأضياف ، وكانوا يحتاجون فى كل عام ١٥ سلة احتفالية ، وأكثر من ٣٥ سلة ذهبية ، وحوالى ٣٦٥ سلة طعام ، وعلاوة على ذلك ١٢٠ كأسًا) - ديانة مصر القديمة ص ٢٢٣ .

ويضيف سبنسر أنه عثر على إحدى الوجبات فى منطقة سقارة - الأسرة الثانية - تتألف من ، (رغيف عيش - عصيدة الشعير المطحون - سمكة مطهية - حساء حمام - سمّان مطهى - كليتين مطهيتين - ضلوع وأرجل بقرية - فاكهة مسلوقة - نبق طازج - فطائر العسل والجبن - إناء من الخمر) - الموتى وعالمهم ص ٥٠ .

- ٣ -

يقول صمويل كريمر : (لقد نتج التطور المرموق للقبور والشعائر الجنازية فى مصر - خلال الألف الثالث ق . م - عن نمو واسع النطاق لفكرتين أساسيتين ، كانت الأولى عقيدة أن الأموات الذين يواصلون بعض أشكال الوجود الطيفى يمكن أن يكونوا به مصدر خطر أو خير لأخلافهم من الأحياء ، كما كانوا أنفسهم فيه عرضة لمختلف الأخطار - وكانت الفكرة الثانية ما أظنه الدافع البشرى الطبيعى لإمداد المتوفى بما يخصه ، وما يحتاج إليه ، وما كان يحبه على الأرض، حتى يتمتع به ويستخدمه ، طالما وكيفما استطاع) .

(لقد نشأ تطور هاتين الفكرتين الأساسيتين فى المقر الملكى ، وليس فى أى منهما أن الروح أو النفس البشرية خالدة) .

(وربما كان اتخاذ البناء للقبور ، وعمق غرفة الدفن ، بما فيها من ودائع ، وإقامة القرابين الدائمة ، والأدعية ، وصور الحياة اليومية على الحوائط ، والشعائر الجنازية ، والتمثال أو التماثيل للموت ، وغير ذلك من السمات ، بما فيها التحنيط - مُعينا وحده على الهدف الوحيد بتهدئتهم ، وإمدادهم بما اعتادوا خلال حياتهم) .

(ولما كانت هذه العادات والهدايا والقرابين مقامة من أجل الأبدية ، فلقد تطورت تدريجيًا - فكرة الحياة الخالدة بعد الموت) .

(وفضلاً عن ذلك ، فلقد كان القبر يبنى إلى جوار الهرم ، ولما كان الهرم سكنا لجسد الإله العظيم ، وهو الملك الإلهى ، المتحول ، فلقد نطقت نقوش القبور عن الرغبة فى أن يُقبَل المتوفى الذى كان خادمًا صادقًا لمليكه أثناء حياته ، ليكون فى رحابه ، وأن يمكَّن من «المسير على سُبله المقدسة» ، وكان ذلك ينطوى على الحياة الأبدية كذلك) .

(وكان هدف نصوص التوابيت إعطاء هؤلاء الذين استكتبوها على توابيتهم قوّة على أن ينالوا إمّا شكلاً من الوجود ، فيه قدر من النعيم فى الآخرة ، وإما - وهو الأرجح - تأليها من أجل حياة أبدية ، لم تكن محتوياتها أسطورية فقط ،

فكثيراً ما أضيفت حواش إلى المتلوات الفردية لإعلام الميت لأى غرض سحرى تتلى) .

(وفضلاً عن ذلك ، فقد كانت هناك متلوات أنسب للأحياء منها للأموات) .

(وفيما عدا تلك الأخيرة ، فإن الحواشى المضافة إلى المتلوات إنما تمثل نظرة التشاؤم السائدة بالنسبة للوجود فى الآخرة) - أساطير العالم القديم ص٤١ / ٤٢ .

* والتفكير فى الآخرة استتبع التفريق بين القادرين على مرضاة الآلهة ، من خلال مرضاة الكهنة ، وأولئك الذين خرجوا على طاعة السلطة الدنيوية ، ممثلة فى الملوك والكهنة ، والقوانين التى سنها الملوك والكهنة .

والتفريق بين المطيعين والعصاة استتبع وجود محكمة أخروية ، شكّلها فكر الكهنة ، بحيث (يجلس أوزيريس على العرش ، داخل معبد صغير ، وتقف خلفه شقيقتاه إيزيس و نفتيس ، بينما يصْطَفّ فى الداخل أربعة عشر من النواب ، وقد نصب فى وسط القاعة ميزان كبير ، حُلِىّ مسنده - فى أعلاه - تارة برأس الحقيقة ، وتارة برأس أنوبيس ، أو رأس تحوت ، ويتربص وَحْش بجوار الميزان لحراسته ، ويلاحظ فى وسط القاعة كل من تحوت و أنوبيس ، وفى بعض الأحيان حورس والحقيقتان ، وهم جميعا منهمكون فى العمل ، ويقوم أنوبيس ، بإدخال الميت مرتديًا ثوبًا من الكتان ، فيحيّى القاضى وكافة الآلهة الحاضرين) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٤١٣ .

واستتبعت الهيمنة على الدنيا والآخرة وضع كثير من النظم والتعاليم فى الدنيا ، ووضع كثير من النظم والتعاليم فى الآخرة ، بحيث يسهل على كل من الحى والميت أن يجد طريقَهُ محددة مرسومة ، حقًا وباطلاً ، ثوابًا وعقابًا .

- ٤ -

كان لابد أن يظل الكهنة على صلة بالآلهة ، تدعيمًا لنفوذ الكهنة والآلهة ، وتقديسًا لتعاليمهم ، ومن هنا كان (الوحُى) ، وتلقى التعليمات الإلهية - أحدَ الأسباب التى تؤكد هذه الصلة .

وقد عرف هيرودوت على ضفاف النيل (ما لا يقل عن سبعة آلهة ، كانوا يوحون بالغيب ، وكان مهبط وحى الإلهة « بوطو » فى البلد المسمى باسمها يعتبر من أكثر مهابط الوحى تمتعًا بثقة الناس ، وكانت الآلهة - فى بعض الأحيان - تعلن عن مقاصدها ، عن طريق بعض الأحداث المفردة الغريبة ، وكان الناس يذهبون إلى أن حَظ كل إنسان إنما يتقرر وفقًا ليوم مولده ، لأن كل يوم إنما ينتمى لإله معلوم) - ديانة مصر القديمة ص ٣٧٦ - وقد لعب (الوحى) دوراً خطيراً فى السياسة المصرية ، وفى علاقة مصر بغيرها من الدول .

يقول الدكتور أحمد فخرى ، (اشتهرت فى بلاد اليونان ، وعلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، بعضُ مراكز النبوءات ، كان يؤمن بها الناس إيمانًا أعمى ، واشتهرت من بينها شهرة كبيرة نبوءة ، آمون فى سيوه ، التى كان يحج إليها حكام وقواد بلاد اليونان ، يسألونها عن المستقبل ، فتحققت نبوءاتها ، وسئل كهنة آمون فى سيوه عن قمبيز وغزو الفرس لمصر ، فجاء الجواب بأن الفرس سيرحلون ، وأن قمبيز سيلاقى بئس المصير فى القريب العاجل) .

(وكان التنافس شديداً بين الفرس واليونان ، لهذا كان رد نبوءة آمون مشدّداً للعزائم ، وداعيًا إلى اتحاد الإغريق ، فأراد قمبيز أن يثبت تفاهة هؤلاء الكهنة ، فأرسل عليهم الجيش لهدم المعبد وقتل كهنته ، لكن آمون - كما روى هيرودوت - أرسل عليهم غضبه وانتقامه ، فقامت زوبعة رملية شديدة ردمتهم) - مصر الفرعونية ص ٤٣٤ .

ولأهمية (الوحى) فى مسيرة الحياة العامة كان الاهتمام بالمعابد التى يصدر عنها هذا الوحى ، ليكون التأثير أبلغ وأعمق .

أرسل الملك سنوسرت الثالث (حوالى ١٨٦٠ ق.م) خازنه الأمير (إيجر

نفرت) إلى أبيدوس ، ليزين تماثيل الإله والأدوات الدينية بذهب اغتنمه من النوبة .

وتجلى الإفراط فى الزَّهْو داخل المعابد ، إذ كانت تنصب أمام البوابات ساريات ذوات أعلام متعددة الألوان ، أطرافها مذهبه ، وكانت البوابات من النحاس السورى المكفت بالذهب ، كما كانت الأعمدة وإطارات الأبواب تلتمع بالذهب ، بل إن الأرض كانت تكفت فى بعض الجهات المقدسة بالذهب أو الفضة . . وكانت اللوحات الكبيرة من الحجر تزين كذلك بالذهب ، وتزخرف بحلى من الذهب السورى ، وهى تستقر فوق قواعد مكفتة بالفضة وحُلىً ذهبية - ديانة مصر القديمة ص ٢٠٤ و ٢١٩ / ٢٢٠ .

* وبتتابع هذا الاهتمام تحول المعبد إلى مايسمى (بيت الحياة) .

(كانت أكثر المعابد تتضمن داخل أسوارها مدارس ، وليس فقط مدرسة للأولاد الصغار ، تعلم القراءة والكتابة ، بل أيضًا معاهد فنية يتعلم فيها الرسامون والحفارون والمثالون الذين يستخدمون مواهبهم فى تمجيد فرعون والآلهة . . وكانت هذه المعابد تضم أيضًا مكتبات تحفظ فيها وثائق المعبد ، ومجموعة من النصوص التى نسخها عدد كبير من الكتاب ، وبها أيضًا كتب فى علم الأخلاق والآداب والفلسفة التى كان يحتاج إليها صغار الطلبة ، كما كانت تضم كتبًا فنية) .

(ويذكر رمسيس الرابع أنه كان يتردد بانتظام على بيت الحياة فى أبيدوس ، واطلع على مدونات « تحوت » السنوية التى تذكر أن أوزيريس هو أشد المعبودات غموضًا ، وأنه هو القمر ، وهو النيل ، وهو الذى يملك فى العالم الآخر ، ويهبط إليه إله الشمس فى كل ليلة ، ويكون الروح المتحدة التى تحكم العالم ، ويدوّن « تحوت » أوامره . . ووجد فى المدونات أخبار البعثات التى أحضرت الكثير من التوابيت والتماثيل إلى « مكان الحقيقة » والمعابد) .

(وعندما عين رمسيس الرابع الأمراء والعسكريين وكبار الموظفين الذين يكونون الهيئة العليا لبعثته ، أضاف إليهم كائنًا من «بيت الحياة») .

(وعندما استقبل أحد الرعامسة سفير أمير بَخْتان **Bakhtan** استشار كتّاب «بيت الحياة» قبل أن يردّ عليه) .

(ويمكن أن نستنتج أن «بيت الحياة» هيئة مكونة من العلماء ورجال الدين وذوى الخبرة العباقرة ، وهم الذين يحافظون على التقاليد الدينية ، وهم الذين يحدّدون حوليات الملوك والمعابد ، وهم الذين يسجلون الاكتشافات العلمية وتقدم الفنون ، وهم الذين اخترعوا الكتابة السحرية ذات الرموز الخاصة) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة - ص ٤٠٤ / ٤٠٥ .

هامـــــــش ..

يقول جورج جيمس (التراث المسروق ص ٤٤ ومابعدها) ، وهو كتاب مبالغ فى التعصّب للحضارة المصرية : كانت المعابد المصرية محاطة بأعمدة تسجل عدد أبراج الفلك ، وعلامات دوائر البروج ، وكان المفترض أن كل معبد بمثابة الكون الصغير .

وقد بنيت المعابد المصرية من الحجارة ، بينما بنيت الساحات الخارجية بالآجر ، وثمة طرق واسعة تفضى إلى المعبد ، ملائمة للمواكب . . أما المدخل المباشر فتحف به التماثيل على الجانبين ، تماثيل لأبى الهول وحيوانات أخرى .

ويتشكل السور الأمامى من برجين مرتفعين ، كأن كلا منهما صرح كامل ، يطلق عليهما اسم البوابتان ، وتتصدرهما مسلتان من الجرانيت ، وتؤدى البوابتان مباشرة إلى فناء واسع ، حيث يتجمع حشد المصلين . . وتفضى قاعة محفل الصلاة مباشرة إلى قاعة رجال الدين والكهنة ، وتلى قاعة الكهنة غرفة (قدس الأقداس) التى لايدخلها إلا كبير الكهنة ، وهى المزار المقدس ، مستقر الرب .

كانت الأسقف مغطاة برسوم تمثل السماء والنجوم ، بينما الأرض مثل المرج تجمع بين اللونين الأخضر والأزرق .

ويجب على من يدخلون المعبد أن يطهروا أنفسهم فى مجرى مائى قريب . . وتطور هذا الطقس إلى رشّ المصلين بالماء المقدس قبل دخول المعبد . .

وقد استفادت المحافل الماسونية كثيراً من طقوس المعبد المصرى .

* وتشمل المعابد مدارس لتلقين الأسرار ، سواء كانت هذه المعابد داخل مصر أو فى خارجها ، وكثيراً ما كان يشار إلى هذه المدارس باعتبارها مذاهب خاصة ، أو فلسفية ، لطقوس دينية سرية ، ومؤسسوها من مريدى (نظام الأسرار) المصرى . . وكان المعبد الأيونى فى ديديما ، ومعبد إقليدس فى ميجارا ، ومحفل فيثاغورس فى كروتونا ، ومعبد دلفى - علاوة على مدرستى أفلاطون وأرسطو - من تلك المعابد والمدارس التى تخضع لتوجيه المحفل الأعظم المصرى ، وكانت تتم زيارات بين المحافل المختلفة لضمان تقدم الإخوة الأعضاء فى العلوم السرية .

قيل فى محاورة طيماوس لأفلاطون : إن الطامحين إلى الصوفية قد زاروا مصر ليبدءوا حياة المريدين .

* ولما احترق معبد دلفى عام ٥٤٨ ق . م قرر أعضاؤه الاستعانة بالإخوة فى مصر ، واتصلوا بالملك أحمس الثانى (أماسيس) فلم يتردد فى تزويدهم بما أعاد بناء المعبد ، وما أعان الإخوة على استمرار نشاطهم .

وبالغ جورج جيمس - كعادته - فذكر أن جميع القادة العظام للديانات الكبرى فى العصر القديم كانوا مريدين لنظام الأسرار المصرى ، ابتداء من موسى ، ووصولا إلى المسيح (؟!) .

ويضيف أن موسى الذى كان مريداً من مريدى نظام الأسرار المصرى ، أصبح كاهنًا فقيهًا من الأعلام المنوط بهم مهام الشرح والتفسير ، وقد تعلم ووعى حكمة الشعب المصرى ، ولم يكن هذا ميسوراً لأحد إلا عن طريق الالتحاق مريداً فى نظام الأسرار ، والتقدم التدريجى بداخله ، حيث يثبت المريد الجديد أنه كفء ملائم ليسلك الطريق .

ويستطرد : كان اسم موسى مصريًا يطلق على جميع المتقدمين الجدد لتعميدهم ، ويعنى (المُخلَّص بالماء) ، أى من نَعم بفضل الماء المقدس ، وهو لايبعد كثيراً عما تردد من أن لفظ (موسى) فى الهيروغليفية بمعنى (طفل) .

* ويروى جورج جيمس أن بطلميوس الأول ، الملقب بالمخلص ، أراد أن يستكشف أسرار الحكمة المصرية ، فأمر (مانيتون) كبير كهنة إيزيس فى مدينة سيبينيتوس فى الدلتا (سمنود) أن يكتب فلسفة المصريين ، وتاريخ ديانتهم ، فنشر مانيتون عديداً من المجلات (؟!) عن هذين الموضوعين ، وأمر بطلميوس بحظر ترجمة هذه الكتب ، مفضلاً الاحتفاظ بها فى مكتبه الإسكندرية لتعليم اليونانيين على أيدى الكهنة المصريين ، (أى شفاها ، حتى يتم نقل الفكر المصرى ، دون تحريف) .

ويروى أن بطلميوس الثانى أمر إراتوستين أن يكتب تاريخًا للملوك طيبة ، فأنجز ماطلب منه بمساعدة رجال الدين المصريين فى طيبة . (هناك من ينسب هذا العمل إلى مانيتون) .

* ويخص مدرسة منفيس بمايسمى (فقه إلهيات منفيس) ، نقش على حجر محفوظ الآن بالمتحف البريطانى ، يحتوى على آراء المصريين القدماء بشأن الإلهيات ، والكوزمولوجيا (أصل الكون وبنيته ونواميسه) والفلسفة .

ويرجع تاريخ هذا النقش إلى سنة ٧٠٠ ق . م ، ويحمل اسم فرعون ، يقرر فيه أنه استنسخ نقشًا لأسلافه ، وأمكن التحقق من هذا الرأى ، على أساس اللغة ونظام ترتيب النص . . ولهذا يرجع التاريخ الأصلى لهذا النقش إلى فترة مبكرة جدًا ، إلى الأسرة الأولى التى اتخذت منفيس ، مدينة الإله بتاح ، عاصمة ، فيما بين ٤٠٠٠ و ٣٥٠٠ ق . م .

ويتألف النص من ثلاثة أجزاء متكاملة :

الجزء الأول يقول : (بتاح كبير الآلهة ، حمل فى قلبه كل ماهو موجود ، وبكلمته خلقهم جميعًا ، ظهر أولاً من مياه المحيط الأزلى – نون – فى صورة تل سَرْمدى ، وإلى جوار التل مباشرة ظهر الإله أتوم من المياه ، واستوى فوق بتاح «التل» ، وبقى فى الماء أربعة أزواج من الأرباب الذكور والإناث ، وهم الثمانى الربوبى الموحد : ١- نون ونونيت ، أى محيط الماء الأزلى والسماء المقابلة . ٢- هوه وهوهيت ، أى اللا محدود وضده . ٣- كوك وكوكيت ، أى الظلمة وضدها . ٤- آمون وآمونيت ، أى الخفى وضده) .

ويستنتج من هذا النص : أ- أن الماء مصدر كل شئ . ب - الخلق إنجاز تحقق بفضل وحدة مبدأين خالقين : بتاح و آمون ، أى وحدة العقل نوس **Nous** مع كلمة الخلق لوجوس **Logos** . جـ- آتوم هو الصانع الأول ، أو الإله الوسيط فى عملية الخلق ، وهو أيضًا إله الشمس ، أو إله النار . د- المبادئ المتضادة تحكم حياة الكون . هـ- عناصر الخلق هى النار (آتون) والماء (نون) والتراب ، و بتاح ، والهواء .

والجزء الثانى يقول : (آلهة النظام والترتيب فى الكون يمثلها تسعة آلهة فى وحدة ربوبية واحدة ، يسمون التاسوع ، وآتوم مصدر الثمانى الربوبى الموحد ، وهو أيضًا مصدر النظام والترتيب ، اتخذ أربعة أزواج من أعضاء جسده أربابًا ، بحيث يتألف معه التاسوع ، وهذه الآلهة الثمانية هى أول المخلوقات فى هذا العالم ، وهى : **شو** أو الهواء ، و **تفنوت** أو الرطوبة ، **وجب** أو الأرض ، و **توت** أو السماء . . وقد تولد عن هذه الأربعة أربعة آلهة أخرى ، هى **أوزوريس** ، إله الوجود فى الكل ، والمعرفة المحيطة بالكل ، و **إيزيس** ، زوج أوزير والمبدأ الأنثوى، و **ست** ، إله الشر ، و **نفتيس** ، المبدأ الأنثوى فى العالم الخفى) .

والجزء الثالث يقول : (يتمثل فى كبير الآلهة «بتاح» الفكر واللوجوس ، والقوة الخالقة صاحبة النفوذ فوق جميع المخلوقات ، إنه ينقل القوة والروح إلى جميع الأرباب ، ويدير حياة جميع الموجودات ، بما فى ذلك الحيوان والإنسان ، من خلال فكره وأوامره سبحانه ، إن جميع الموجودات فيه سبحانه تحيا وتتحرك وتملك وجودها الخالد) .

ويعلق جورج جيمس على هذا النص بأن فقه إلهيات منفيس هو مصدر المعرفة العلمية الحديثة ، لأن أرباب النظام والترتيب فى الكون يمثلها تسعة آلهة فى ربوبية واحدة ، تسمى التاسوع ، وإذا ماقارنا هذه (الكوزمولوجيا) مع الفرض السديمى عند (لابلاس) فسنجد أوجه شبه (مذهلة) بين النصين ، إذ يقضى الفرض السديمى أن نظامنا الشمسى الراهن كان فى السابق سديما غازيًا منصهرًا ، ودار هذا السديم على محور بسرعة مذهلة ، ثم تقلصت الكتلة مع البرودة ، وتولدت سرعة أكبر ، وأسفر هذا عن انتفاخ عند خط الاستواء ،

وانفصال تدريجى لحلقات غازية تشكلت ذاتيا فى كواكب ، وأطلقت هذه الكواكب بدورها طاقات غازية تشكلت هى الأخرى فى صورة أجرام أصغر حجمًا ، إلى أن أصبحت الشمس أخيراً البقية الباقية من السديم ، الأب الأصلى . . ويبدو من هذا النص أن السديم المنشأ الأصلى ، كان النار أو الشمس، وأنه إذ أطلق أجزاء من نفسه خلق بعض الكواكب ، التى أطلقت بدورها أجزاء منها ، وخلّفت غيرها ، وهذا ما يتفق مع نص فقه إلهيات منفيس .

***

ومع هذه (التلفيقات) يفسح جورج جيمس مجالاً للحديث عن (نظام الأسرار) الذى استحدثه المصريون القدماء مذهبًا دينيًا شديد التعقيد .

يرى هذا المذهب أن جسد الإنسان سجن النفس التى يمكن أن تتحرر من قيودها البدنية ، وذلك عن طريق التمرس على فروع المعرفة ، من فنون وعلوم ، وبذا ترتقى وتسمو إلى مستوى إلهى خالد .

وكان هذا هو مفهوم الخير الأسمى الذى ينبغى أن ينشده جميع الناس ، وأن يطمحوا إليه ، لأنه أساس جميع المفاهيم الأخلاقية .

وكان (نظام الأسرار) يتوخى السرية ، كما كانت عضويته رهن المبادرة الشخصية ، والتعهد بالحفاظ على السرية .

كان المريد المبتدئ يتلقى التعاليم شفاهة ، فتتدرج هذه التعاليم وفق مراتب متصاعدة ، وطور المصريون فى ظل السرية نظمًا للكتابة والتعليم ، وحظروا على الأعضاء تدوين مايتلقون .

كان أهم أهداف (نظام الأسرار) تأليه الإنسان ، أى التشبه بالإله ، لأن تحرير النفس من قيود البدن يسمو بها ، بحيث ترى الأرباب ، وتبلغ مرتبة الكشف الصوفى ، وتتصل بالأرواح الخالدة .

واشتملت هذه الحرية على عملية متصلة من المجاهدات والرياضيات ، أو التطهر لكل من الجسد والنفس .

ونظراً لأن نظام الأسرار يقدم للإنسان خلاص النفس ، فإن الخلاص يتم من

خلال ثقافة منظمة ، ذات ثلاث مراتب ، كما يرى بيتشمان ، وهى :

١- البشر الفانون ، الطلاب الذين يخضعون لفترة التجربة والاختبار ، ويجرى تلقينهم العلوم ، وإن لم يعاينوا تجربة الكشف الباطنى ، أو البصيرة .

٢- الأذكياء ، أولئك الذين عاينوا تجربة الكشف الباطنى ، واتصلوا بالعقل الكونى .

٣- الخالقون . أبناء النور ، الذين توحدوا بالضوء ، وتحقق لهم الوحى الروحى الحق .

وهذه المراتب - فى رأى مارشام آدمز - مكافئة لدرجات التلقين ، والكشف ، والكمال ، حيث يمارس الطلاب رياضات ومجاهدات فكرية ، وتنسكًا وزهدًا فى الأمور البدنية . مع فترات اختبار مواجهة محن أو ابتلاء ، لتحديد مدى ملاءمة كل منهم للمضى إلى عملية أكثر جدية وجلالاً ورهبة ، من عمليات التلقين .

ولم يكن التعليم يتألف فقط من الفضائل العشر التى تمثل أساس السعادة الخالدة ، بل يتألف أيضًا من الفنون العقلية التى تستهدف انعتاق النفس ، بالإضافة إلى تعلم قواعد اللغة والخطابة والمنطق ، باعتبارها مباحث ذات طبيعة أخلاقية تطهر من النوازع البرية اللاعقلانية .

وتعد علوم الهندسة والحساب علومًا سامية تتعلق بالفضاء ، تهيىء لصاحبها مفتاحًا لكل مشكلات الوجود المرئى ، ويتناول علم الفلك المعلومات التى تتعلق بالقوى الكامنة فى الإنسان ، وتوزيعاتها ، ومصير الأفراد والأعراق والأمم . . أما الموسيقى ، أو التناغم ، فتعنى بتصحيح الحياة البشرية لملاءمتها فى تناغم مع اللّه ، إلى أن يتم توحّد الروح الشخصى مع اللّه ، حين تسمع الروح وتشارك فى موسيقى الأفلاك السماوية . . وكانت الموسيقى وسيلة علاجية لشفاء الأمراض .

* والمنهاج التعليمى لنظام الأسرار المصرى يتألف من :

١- القواعد العقلية التى تشكل أساس التثقيف لجميع المبتدئين : النحو والصرف والحساب والخطابة والجدل والفلك والموسيقى .

٢- علوم كتب هرمس الـ ٤٢ . . يقول كليمنت السكندرى : إن نظمها وموضوعاتها كالآتى :

آ - المرتل ، ويجب عليه الإحاطة بكتابين من كتب هرمس ، خاصة بالموسيقى ، أى التسابيح الإلهية .

ب- المنجم ، ويجب عليه الإحاطة بأربعة من كتب هرمس ، خاصة بالفلك .

جـ- حامل الرموز السرية ، ويجب أن يجيد اللغة الهيروغليفية والكوزموجرافيا ، أى وصف معالم الكون ، والجغرافيا والفلك وطبوغرافيا مصر . ومساحة الأراضى .

د - حاملو الأرواب المزركشة ، وعليهم معرفة مافى كتب هرمس ، بشأن عملية التحنيط ، وذبح الحيوان .

هـ- المتنبئ ، وهو رئيس المعبد ، وعليه الإحاطة بكتب هرمس الخاصة بالمستوى الأرفع ، من فقه الإلهيات للنخبة ، فضلاً عن كل مايتعلمه الكهنة .

و - الباستو فورى ، وعليه معرفة ستة من كتب هرمس ، تتناول وظائف الأعضاء والتشريح والأمراض والعقاقير والآلات الطبية .

٣- علوم الآثار : عمارة وبناء ، ونجارة ، وهندسة ، ونحتا ، وزراعة ، وتعدينا : وجراحة ، ورسما وتلوينا .

٤- العلوم السرية : الرموز العددية ، والرموز الهندسية ، والسحر ، وكتاب الموتى ، والأساطير ، والحكم والأمثال .

٥- النظام الاجتماعى وحمايته : إذ كان الكهنة محامين ، وقضاة ، وموظفى دولة ، ورجال أعمال وتجارة ، وملاحين ومن ثم عُنُوا بالاقتصاد ، والتربية المدنية ، والقانون ، والحكم ، والإحصاء ، والتعداد ، وبناء السفن وقيادتها ، وحركة الرياح والموج ، والشلالات ، والعلوم العسكرية ، وصناعة العربات ، وتربية الخيول .

* ومع هذا يقول بريستيد (تاريخ مصر ص ٨٩) : إن اهتمام المصريين بالعلم كان لفائدته العملية فقط ، ولم تَتُقْ نفوسهم إلى دراسة أصول الطبيعة والكون إلا إذا اضطرتهم الضرورة لذلك ، وهذا أمر طبيعى فيمن لايميل إلى البحث فى الحقائق الغامضة ، ولذلك لم تتقدم معارفهم إلا فيما يتعلق بمعيشتهم اليومية وأعمالهم الدائمة (؟!) . (١)

كأن الفائدة العملية ليست أهم الدوافع العلمية ، وكأن المعيشة اليومية بعيدة عن الدراسات الميتافيزيقية ، إلهية وأسطورية !!

ورغم هذا فقد أشاد بريستيد فى كتابه (فجر الضمير) بسبق المصريين فى جميع المجالات الإنسانية علومًا وفنونًا وآدابًا ، وجمعوا بين المبانى الشامخة والفتوحات الباهرة ، وبين وسائل الاستمتاع بالحياتين الدنيا والآخرة .

* وكما خلع الكهنة على بعض المعابد مايميزها ، أو مايقدسها ، فعلوا كذلك ببعض المقابر .

(من بين القبور التى يرجع تاريخها إلى عهد الأسرات الأولى فى «العرابة المدفونة» قبر أوزير الذى صار بسرعة المقام المقدس فى مصر ، تحج إليه كل طبقات الشعب ، وكانت أعظم البركات التى ينالها الإنسان هى أن يدفن بجوار ذلك القبر المقدس ، ولذلك كان كثير من الموظفين عند قيامهم بمأمورية رسمية فى هذه الجهة ينتهز الفرصة لإقامة قبر له هناك ، وإذا تعذر عليه بناء قبر حقيقى كان يقيم لنفسه مقبرة وهمية ، ويكتب عليها اسمه وأسماء أفراد أسرته وأقاربه ، وإذا تعذر ذلك أقام لوحة تذكارية ينقش عليها أدعية للإله أوزير العظيم خاصة به وبأسرته) .

(وقد كان بعض حكام الأقاليم يوصى بنقل جثمانه إلى «العرابة المدفونة» بعد وفاته ، لتقام له شعائر خاصة هناك ، ثم يجلب معه بعض التذكارات المقدسة ، لتوضع معه فى قبره المقام له فى مقاطعته) - مصر القديمة جـ٣ ص٥٠٥ / ٥٠٦ .

---

(١) وانظر تاريخ مصر ص ٤٧١ .

وظل التوسع فى سلطان المعابد ، وفى اختصاصاتها ، حتى كان فى معبد آمون شرطة وسجن ، وفى البر الغربى كان رجال الحدود على أتم استعداد لتنفيذ أحكام المعبود بالقبض على المخطئين ، دون إمهال - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٣٨٧ .

وتبع هذا النفوذ الكبير للكهنة أن صاروا يُعوّذونه بتعظيم الملوك ، وأن يجمعوا بين السلطتين التشريعية والتنفيذية فى كيان واحد ، بحيث يصبح الإله ملكًا ، والملك إلها .

هذا أمنحوتب (١٥٥٧ - ١٥٣٥ ق . م) أول ملوك الإمبراطورية الحديثة ، الذى نحت له مقبرة فى وادى الملوك ، انتشرت عبادته ، حتى أصبح له عدة هياكل فى طيبة وفى البر الغربى .

وكان عيد هذا الشفيع الطيب يستمر أربعة أيام ، لايكف العمال خلالها هم وزوجاتهم وأولادهم عن الغناء والشراب ، وكان رجال الدين يحملون التمثال أثناء سير الموكب ، وأولئك الذين يُظلّونه ويُروّحون له بالمراوح ويُبَخّرونه كانوا جميعا من العمال ، لأنه بنى لهم مدينة ، وكفل لهم حقوقا .

(كان العمال يثقون فيه إلى حد كبير ، حتى إنهم كانوا يطلبون منه أن يفض منازعاتهم ، وكان قضاؤه ينطوى على السلام ، ويتصف بالسرعة وقلة النفقات) - الحياة اليومية ص ٣٨٤ .

(كانت تجرى استشارته عن طريق الوحى ، وكانت هذه الاستشارات تتعلق بدعاوى الممتلكات ، وليس الوظائف ، وكان الإله « أمنحوتب » يُدعى ليتخذ قرارًا إذا نشب نزاع حول المحكمة المدنية ، أو لم يتم الذهاب إلى المحكمة أصلاً ، وكان العمال الكهنة يحملون صورة الإله أثناء استشارة الوحى ، أمام ملتمس الدعوى الذى يشرح قضيته ، وربما قام كاتب المقبرة بإعادة شرحها ، ثم كان الإله يُملى بعد ذلك قراره) .

(وتدل الوثائق المتبقية على أن الإله يلقى خطابًا مطولاً حول القضية ، وإن

كان قوله لايعدو - فيما يرجح - التسجيل الرسمى للحكم ، والأكثر ترجيحًا أن الإله كان يجيب على أسئلة محددة بالإيجاب أو النفى ، أو يومئ إلى ماوقع عليه اختياره من الالتماسين المكتوبين ، وتبعًا لهذا الاختيار كان حامل الصورة ، ومن ثم الصورة المقدسة نفسها » تتحرك دون شك إلى هذا الجانب أو ذاك ، أو ربما إلى أعلى أو إلى أسفل ، للدلالة على القبول أو الرفض) - صنّاع الخلود ص ١١٨ .

وأدى تأثير هذا الوحى فى نفوس العامة - و «المندل» اليوم صورة منه - إلى محاولة الاتصال المباشر ، عن طريق الرسائل ، كما حدث فى مصر المعاصرة ، إذ وجدت رسائل مرسلة إلى الإمام الشافعى لقضاء الحوائج ، ولابد أن يكون لأئمة وأولياء آخرين حَظ من الرسائل لم يكشف النقاب عنها !!

(فى هيكل «سكنو بايو» ، على حافة صحراء الفيوم ، على الشاطئ الآخر من بحيرة قارون ، وجدت رقاع من الفلاحين وصغار الطبقة الوسطى فى هذه المنطقة ، تكشف عن رغباتهم وآلامهم . . فهذا يسأل الإله إذا كان عمدة القرية قد باع بقره ، وهذا يريد أن يعرف هل يفحص حاكم المقاطعة الوثائق ، وتلك المرأة ترجو أن تعرف هل لها أن تشترى عبد امرأة أخرى ، وآخر يكتب على رقعته : «أيُقَدَّر لى أن اتزوج تابتويس ، وهل لن تكون زوجة رجل آخر ، بيّن لى ذلك ، وحقّق لى هذا الرجاء المكتوب ، لقد كانت تابتويس زوجة لحوريون من قبل» . . أضاف العبارة الأخيرة حتى يتبين للإله أى امرأة مقصودة بهذا الاسم) .

(وقد ازدهرت هذه الطريقة فى المعابد الكبيرة ، كما فى أبيدوس ، حيث كان «بس» يجيب على رقاع الأسئلة . . وفى هليوبوليس حيث كانت تقدم للإله رسائل مختومة ، كان يجيب عليها كتابة) - ديانة مصر القديمة ص ٤٤٨ .

* كان الكاهن الأكبر فى طيبة يستتر وراء الإله آمون الذى كان يعد - منذ بداية الألف الثانية قبل الميلاد - ملك الآلهة والناس أجمعين ، فكان مايوحى به هذا الإله - فى كل أمور الدنيا - هو القول الفصل ولا راد لحكمه ، وكانت تهرع إليه الناس فى الأعياد لتقديم شكاياتهم ، فى صورة بطاقات مكتوبة أحيانا ، يجيب عليها تمثال الإله الذى كان يحمل فى قارب خاص على أعناق الكهنة ، بإيماءة خاصة تدل على الرضا ، وبأخرى تدل على الرفض .

ولما كان هذا (الغزو) لقلوب الشعب وجيوبه يمكن أن يثير ثائرة رجال البلاط - من غير الكهنة - وبالتالى يثير حفيظة الملك ، فقد كان الحرص الشديد على توثيق علاقة الملوك (الأقوياء) بالإله آمون ، أو أن يكونوا آلهة على مثاله .

هذا سنوسرت الثالث (١٨٨٧ - ١٨٤٩ ق . م) فاتح النوبة صار إلها يعبد ، وقد عثر على نقش فى جهة (توشكا) شمالى (بو سمبل) يمثل منظر أسرة تقدم قربانًا له ، ولما جاء تحتمس الثالث ، الفاتح العظيم تعبَّد لهذا الإله سنوسرت ، وبعد ألف ومائتى عام وجدنا الفرعون النوبى (تاهرقا) يتعبد له .

وقد سبقت الإشارة إلى أن حتشبسوت صارت ابنة الإله عن طريق قصة شائقة صنعها الكهنة ، وقد سجلت هذه القصة على جدران معبدها فى الدير البحرى ، وفى أكثر من معبد . . وكذلك فعل زوجها اللدود تحتمس الثالث الذى تقول نفوشه : (إنه الإله آمون ، والدى ، وأنا ابنه ، حينما لا أزال فرخا فى عشه، ولقد أحبنى حقًا من لبه ، وخصّنى بالملك ، وليس فى ذلك مبالغة ولامَيْن) . . وجاء رمسيس الثانى فأعاد كتابة قصة حتشبسوت ، ودوّن على جدران معبد (بو سمبل) قصة ميلاده الإلهى ، وثناء الآلهة عليه .

ومن هنا كانت سيطرة الكهنة مؤيدة بسيطرة الملوك ، وقد أعانهم - كما يقول هيرودوت - (أن المصريين كانوا يعتقدون أن كل شئ فى العالم ملك للآلهة ، وأنهم منبع كل خير ، وأنهم على علم برغباتنا الدنيوية ، وأن فى استطاعتهم فى كل وقت أن يتدخلوا فى أحوال البشر) .

لهذا ، (ومنذ أن تولى أحموزا العرش ، أصبحت الأموال التى تفيض عن الحاجة ، وكل مايقتصد ، يكدس فى المعابد ، وكانت تشيد معابد جديدة ، أما التى كانت موجودة فقد أصبحت توسّع وتجّمل ، وترسم أسوارها وأبوابها ، وذلك فضلاً عن صناعة المراكب المقدسة ، وإقامة تماثيل ، واستبدال الأحجار باللبن وتغيير الأخشاب المحلية بأخشاب ثمينة مستوردة من الخارج ، وعمل تكسيات بصفائح الذهب لقمم المسلات الهرمية الشكل ، وجدران البيت الكبير - المعبد أو قصر الفرعون - وتزويد كل القاعات بالأثاث المطعم بالذهب والأحجار الكريمة) .

(وكان لكل مدينة شجرتها المقدسة ، كما كان لها معبودها المحلى ، ولكن هذا المعبود لم يكن كافيًا ليرضى حماستهم الدينية ، وفى كل مدينة - مهما كانت ضئيلة الأهمية - كان الإله المحلى يتحد مع معبودات أخرى قد أتت فى يوم ما من مدينة قريبة أو بعيدة . . فعندما شيد رمسيس الثانى مقر إقامته الموجود فى الدلتا الشرقية - بر رعمسيس - جمع فيه طائفة من المعبودات ، فكان «آمون» موجودًا بجوار «ست» عدوه اللدود فى الماضى وفى المستقبل ، و«توم» معبود أون ، و«بتاح» معبود منف ، ومعبودات الدلتا مع معبودات سوريا وفينيقيا ، كأن لم يكن لدى المصريين آلهة كافية ، فراحوا يتعبدون لآلهة البلاد المجاورة) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٣٧١ / ٣٧٥ .

قد يكون جمع رمسيس الثانى للآلهة المصرية وغير المصرية إعلانا عن سعة فتوحاته ، واكتمال قدراته ، وإعلانًا عن أنه مؤيد من الآلهة ، وأنه منصور لامحالة .

ويبدو أن رمسيس سنّ سنة (حميدة) أمكن تطويرها زمان احتلال مصر ، فانضم آلهة الرومان - زيوس وهرقل وأرتميس وأفروديت وديونيسيوس وبرياب - إلى قائمة الآلهة المصرية ، وتمصرت هذه المعبودات فى أكثر الأحيان ، حتى كان على « هليوس » نفسه أن يحمل على يده تمساحًا ، كأنما أراد الكهنة إثبات قدرة مصر على (قهر الغزاة) ، باغتصاب آلهتهم . . وما دام فى الإمكان الاستيلاء على آلهتهم ، فعن طريق هذه الآلهة يمكن تطويع القوى المحتلة لصالح مصر ، و (تطبيع العلاقات) بين الغزاة والمحتلين ! !

* ولما ثار أخناتون على (البابوية الآمونية) - كما يقول بريستيد - وقيد كثيراً من سلطاتهم ، سرعان ماكادوا له ، وانتصروا عليه ، واستردوا كل مافقدوا ، وعاثوا فى مصر فسادًا ، حتى إن (حورمحب المحارب المحنك الذى تولى الحكم بالنيابة ، فى الفترة بين اعتلاء ذرية أخناتون و رمسيس الأول للحكم - كان يعلم أنه خلال سنى الاضطرابات التى تلت الثورة الدينية ، كان الكتاب ومحصلو الضرائب وكل من حاز سلطة يضغطون على صغار المولين بصورة شنيعة) ولهذا سنّ مرسومًا ضد المفسدين ، فكل قاض يثبت عليه أنه أساء استعمال سلطته كان

يحكم عليه بجدع أنفه ، ويُنْفَى فى شبه معتقل ، فى سيلا ، فى برزخ السويس) .

(وتناول مرسوم سيتى الأول تحذيرات بلهجة شديدة إلى الوزراء وكبار الموظفين والقضاة وحاكم كوش ، وإلى قواد حملة السهام ، وإلى حراس الذهب ، وإلى الأمراء ورؤساء القبائل فى الجنوب والشمال ، وإلى الفرسان ورؤساء الاسطبلات ، وحملة المظلات ، وإلى جميع حرس القصر الملكى ، وجميع المبعوثين . . وكان المقصود من هذا كله حماية « معبد ملايين السنين » الذى كان الملك قد شيده فى أبيدوس ، وخصص له فى سخاء الأملاك والخدم والمواشى لمنع هؤلاء الموظفين من استغلالها) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٣٤٨ .

ولعل قصة فلاح وادى الملح تعبر عن إحدى صور هذا الفساد الذى سيطر على الجهاز الحكومى .

(وما لم يكن فى مقدور البلاد أن تقاوم تلك القوة السياسية الكهنوتية ، التى كانت بمثابة دولة داخل الدولة ، وكانت البلاد دائمًا فريسة لتعديها الاقتصادى ، فإن مصر هوت بذلك إلى الانحطاط بسرعة ، إلى أن صارت حكومة كهانة فقط ، حتى إنه حوالى سنة ١١٠٠ ق.م . سلّم الفرعون صولجانه إلى رئيس القوة الحاكمة التى صارت وقتئذ هى حكومة المعبد) .

(وفى خلال التطور الطويل الذى كان من جرائه استيلاء الكهنة على إدارة شئون العرش ، لبست المظاهر الخارجية والرسمية للتدين من حلل الفخامة والأبهة ، ما لم تصل إليه من قبل أى قوة دينية فى تاريخ التدين القديم ، ولذلك ، فإن معابد ذلك العصر ستبقى دائمًا من أروع الآثار الباقية من العالم القديم) - فجر الضمير ص ٣٥٧ وأعانهم على هذا تلك الثروة الهائلة التى صارت تصب فى أوعيتهم .

- ٦ -

أصدر الملك (نفر إر كا رع) - الأسرة الخامسة - مرسومًا لرئيس الكهنة (حمور) يقول :

(إنى لا أسمح لأى إنسان له السلطة أن يأخذ أى كاهن من الكهنة الذين فى المقاطعة التى أنت منها لأى عمل فى المقاطعة تسخيراً أكثر من العمل الذى يقوم به للإله شخصيا فى المعبد الذى هو فيه) .

(ويجب كذلك المحافظة على المعابد بواسطة الكهنة القائمين فيها ، ولايفرض عمل ماتسخيرا على حقل ما من حقول الإله المكلّفة به كل الكهنة ، ولا يؤخذ لأية سخرة كانت فى المقاطعة فلاحون ، أيا كانوا ، من الذين فى أى حقل من حقول الإله المكلفة به كل الكهنة ، وذلك لأنهم مُعْفَوْن لمدة الأبدية ، وذلك طبقًا لمرسوم ملك الوجه القبلى وملك الوجه البحرى - نفر إر كا رع - ولا توجد أية وثيقة فى هذا الموضوع فى أية مصلحة) .

(وكل فرد من المقاطعة سيستولى على كهنة ممن فى حقل الإله المكلفين به فى هذه المقاطعة ، ويسخرهم فى المقاطعة - يجب عليك أن توجهه إلى بيت زراعة المعبد ، حتى يشتغل فى كل أعْمال التسخير الخاصة بمصلحة الحرث هذه فى هذا المعبد ، وهكذا مع كل فلاح فى حقل الإله) .

(وكل أمير من أمراء الجنوب ، أو كل موظف ، أو قريب للملك ، أو رئيس شرطة ، يعمل ضد تعليمات هذا المرسوم الذى اتخذ لقلعة « حور » ، وذلك بالتصرف فى ممتلكات الإله ، أو فى الرجال ، أو فى الممتلكات الأخرى أيا كانت مما يتملكها - فإنه سيكون تحت طائلة أى تسخير من أعمال المقاطعة) .

(ختم فى حضرتى أنا الملك فى الشهر الثانى من فصل الصيف اليوم العاشر) - مصر القديمة جـ ١ ص ٣٣٨ .

وكان (رع ور) من رجال (نفر إر كا رع) يحمل من ألقاب الدولة مالا يقل عن ثلاثين لقبًا ، منها أنه كان الكاهن لآلهة الوجه القبلى ، والكاهن لآلهة الوجه البحرى ، وأكبر كاهن فى الدولة ، والسمير الوحيد ، ومدير القصر ، ورئيس

أسرار الملك ، وكان له خدم وموظفون بنوا قبورهم داخل مقبرته أو حولها - المصدر السابق ص ٣٤٠ .

واستمر هذا الحال حتى جاء الفاتح العظيم رمسيس الثانى الذى أنجب ١٢٠ من الذكور ملكوا البلاد وأمسكوا بوظائفها طويلاً ، لكن كل هذا تم بالتنسيق الكامل مع نفوذ الكهنة ، أو مع إرادتهم ، ذلك لأن رمسيس الثانى كان من الممهدين لاستيلاء كهنة آمون على العرش الفرعونى ، إذ (ألقى فى أيديهم رياسة الكهانة فى « الكرنك » ، وفى « العرابة » . . واعترف لهذه الطائفة بأن تنصيب الكاهن الأكبر لآمون قد جاء من وحى اللّه وبإذنه ، وأنه لادخل له فيه) - مصر القديمة جـ٦ ص (ن) .

وأصدر قوانين صارمة ضد كل من يتعدى على (المؤسسات الدينية . . يُجدع أنفه ، ويُجلد مائة جلدة ، ويكوى بالنار كيّا ، ويلزم بغرامة تبلغ أحيانا مائة ضعف لما اغتصبه) - المصدر السابق ص (م) .

(ولقد بلغ من شأن رجال الدين ونفوذهم أن أصبحوا أصحاب ثروة عظيمة ، ومكانة قوية) - المصدر السابق ص (ن) - وكان أكثر الفراعنة اهتمامًا ببناء عمائر الآلهة ، وبخاصة فى النوبة ، فقد نحت فى الصخر معبد (بو سمبل) ، الذى يعد مفخرة الزمان ، ومعبد (بيت الوالى) ، ومعبد (السبوع) ، ومعبد (جرف حسين) ، ومعبد (الدر) وغيرها مما غمرته مياه السد العالى ، فضلاً عن منشآته فى طيبة وفى الدلتا .

وتبعه ابنه رمسيس الثالث الذى أعلن مفاخرًا : (قمت بأعمال مجيدة ، وإنعامات عظيمة العدد لآلهة وآلهات الجنوب والشمال ، وصنعت صورهم التى فى بيوت الذهب ، وبنيت ماكان قد سقط مخربا فى معابدهم ، وأقمت بيوتا ومعابد فى ردهاتهم ، وغرست لهم خمائل ، وحفرت لهم بحيرات ، وأسست لهم قُربا إلهية من الشعير والقمح والنبيذ والبخور والفاكهة والماشية والطيور ، وبنيت « ظلال رع » لأجل الأقاليم ممكّنا بالقرب المقدسة اليومية ، ووضعت المراسيم العظيمة لإدارة معابدهم ، مسجلة فى قاعات السجلات سرمديا) .

وأتبع هذا (الإعلان) ببيانات تفصيلية لأعماله - مصر القديمة جـ ٧ ص٤٥٤ - ٤٧٨ .

وإلى جوار هذا (جدد معبد «موت» فى طيبة ، وهو مبنى من الحجر ، بمثابة أعجوبة أسست لتكون عملاً خالدًا ، مدخله من حجر الجرانيت ، والأبواب والعوارض من الذهب ، ومحرابه من الجرانيت الجميل ، ومصراعاه من النحاس المطروق ، ومائدة قربانه من الفضة المطروقة مشغولة بالذهب ، وزوده بمخزن مجهز بالعبيد والإماء ، وبمئونة الخبز والجعة والثيران والطيور والخمور والبخور والفاكهة والخضر ، كما أقام تمثالا للإله من الذهب المطروق ، ولوحات عظيمةمن الذهب المطروق ، نقش عليها اسم جلالته ، ولوحات أخرى من الفضة ، ومنخل من الفضة المشغولة بالذهب لإقامة الشعائر ، وتماثيل الشعائر ، وتماثيل من الذهب لكل من «موت» و «خنسو») .

(وقدم للإله عشرة آلاف حقيبة من الحب ، لتموين القرابين الإلهية اليومية ، تحمل إلى طيبة كل سنة ، كما قدم له هدايا الأراضى والممالك التابعة لمصر) .

(وضع سفينة فاخرة طولها ثلاثون ومائة ذراع ، من خشب الأرز ، منشأة بالذهب الجميل ، حتى سطح الماء ، فى وسطها محراب عظيم من الذهب المطعم بالحجر الثمين ، كأنها قصر مزين برءوس كباش من الذهب ، من قدام ومن خلف) .

(وقدم إليه من بلاد بُنْت أشجار المر ، لكى تعطر بيت الإله ، وغرس له جميزًا معطرًا فى ردهة المعبد) .

(وصنع أسطول نقل مزود بسفن وزوارق حربية ، لنقل محاصيل أرض «زاهى» ، والمماليك التى فى نهاية الأرض) .

(وخصص له قطعانا من الحيوانات الكبيرة ، والدجاج ، وحيوانات صغيرة ، بمئات الألوف ، يشرف عليها كتّاب ومفتشون ورعاة ، لديهم علف يفيض عن الحاجة) .

(وأنشأ كروما للنبيذ فى الواحات الجنوبية والشمالية ، وأخرى فى الجنوب ، دونت فى قوائم عديدة) .

(وأقام كذلك معبداً للإله «خنسو» ابن الإله «موت» ، على نفس الطراز) .

(وأقام بناءين جديدين فى «منف» للإله «بتاح» ، زودهما بكل ماتسع له سخاؤه من خيرات مصر) .

هذا ماسجله كتاب مصر القديمة جـ ٧ ص ٣٦٤ / ٣٧١ أما ما دونه عن ثروات المعابد وأملاكها والقرابين والهبات التى أوقفت عليها ، فقد أفسح لها الأستاذ سليم حسن من كتابه الصفحات ٣٧١ إلى ٤٩٣ . [١]

* وبهذا (صار «آمون طيبة» - وهو متوج بتاج من العظمة ، لم يسمع بمثله فى بذخ الشرق كله - فى أيدى كهنته الماكرين ، مجرد مصدر للقرارات السياسية والإدارية ، بل إن الأحكام القضائية المعتادة كان يصدر الفصل فيها بإيحاء من الإله ، كما كان غير ذلك من أمور الوصايا والهبات خاضعًا كذلك لما يوحى به الإله) - فجر الضمير ص ٣٥٧ - حتى قيل إن (ماكان يدعيه حورس معبود إدفو من أملاكه الخاصة مالا يقل عن ٣٣ كيلو متراً مربعًا ، موزعة قطعًا صغيرة وكبيرة فى الوجه القبلى ، عدا الممتلكات العقارية ، وما كانت تبلغه بقية ثروة المعبد من أموال معدة ، ومن دخول وفوائد ، وعدا ما كان يُنْتِجُه صناع المعابد من الكتان والدقيق والزيوت ، وما كانت تقيمه المعابد من حمامَات ومخابز ومصانع الجعة لاستثمارها) - ديانة مصر القديمة ص ٤٣٣ .

وكان « مين » سيد إيبو وقفط (يمتلك - بجانب العديد من رجال الدين - موظفين إدارين كثيرى العدد ، من كتاب ورؤساء الأعمال ومشرفين على قطعان الماشية ، وآخرين يشرفون على أصونة للثياب والنقل وأمناء المخازن ، بالإضافة إلى المحاسبين) .

أما آمون (فكان يمتلك ثروات طائلة ، حتى أنشأ لإدارة هذه الثروات هيئة مثقفة ، رتبها ترتيبًا منظمًا واعيًا) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٣٤ .

(كان الذين يديرون ثروة أمون وحقوله وقطعانه كتاب وموظفون خاصُّون ، ومعماريون ونقاشون ونحّاتون ، بالإضافة إلى قائد جيوش آمون وضباطه وكل

---

(١) وانظر (تاريخ مصر) لبريستيد ص ٢٢٧ و ص ٤٠١ .

الموظفين المكلفين بتجهيز التقدمات والأطعمة ، من خبازين وطباخين وحلوانية وصناع الجعة والكرامين والزارعين ومجهزى الزيوت والبخور ، كما كان النساجون والغزالون والصباغون والحلاقون والموكلون بإدارة عقار آمون ، كموظفى المساحة ، ووكلاء صوامع الغلال ، ورؤساء الفلاحين والطحانين وصيادى الوحوش والسماكين) .

(وطبقا لأرقام مستند وجد فى قبر رمسيس الثالث – ١١٩٨ – ١١٦٩ ق.م- كان آمون يملك من بين مايملك ٣٢٢ر٨١ عبدا ، و ٣٦٢ر٤٢١ رأسا من الماشية ، و٦٥ مقاطعة ، و ٤٣٣ حديقة ، و ١٦٨ر٨٦٨ أورورا [1] من الحقول ، و٩٣ قاربا ، و ٤٦ مصنعا ، و ١٦٤ر٥ تمثالا إلهيا .

(وخلال الـ ٣١ سنة من حكم رمسيس الثالث ، زادت ثروة الإله بمقدار ٥١ كيلو جراما من الذهب ، و ٩٩٧ من الفضة ، و ٣٩٥ر٢ من النحاس ، و ٧٢٢ر٣ قطعة من الملابس ، إلخ) .

بل كانت له مناجم الذهب فى النوبة ، وتسع مدن فى سوريا ، تأتيه محاصيل أرضها وضرائبها بانتظام ، كما كانت له حدائق فى طول البلاد وعرضها .

هذا على حين لم يكن (لهليوبوليس سوى ٩٦٣ر١٢ من الرعايا ، و٥٨٤ر١٦٠ أورورا من الحقول ، وكان لمنفيس ٠٧٩ر٣ من الرعايا ، و٤٨ . ر١٠ أورورا) .

(ومن ثم كان لآمون خمسة أمثال هليوبوليس ، و ٨٦ ضعفًا لمنفيس) – ديانة مصر القديمة ص ٢٢٨ / ٢٢٩ .

وأورد الأستاذ سليم حسن بيانًا بالرعايا التابعين للمعابد فى عهد رمسيس الثالث على النحو التالى :

معبد مدينة هابو ٦٢٦ر٦٢ – معبد الكرنك الصغير ٢٦٢٣ – معبد الإلهة موت

---

(١) الأورور مقياس يونانى ، يقابله بالمصرية القديمة (أستات) ، وهو يساوى نحو ثلثى فدان .

٩٧٠ - معبد خنسو ٥٤١ - معبد الأقصر الصغير ٤٩ - معبد هليوبوليس ٢١ر٣٦٤ - معبد منف ٠٧٩ر٣ - المعابد الصغيرة ٥٦٨٦ .

كما أورد توزيع الأراضى المنزرعة لحساب المعابد على النحو التالى :

طيبة ٣٦٩٢ كيلو متراً مربعًا - هليوبوليس ٤٤١ - منف ٢٨ - المعابد الصغيرة ٩٩ - مصر القديمة جـ ٧ ص ٤٨١ .

* ونتيجة اتساع مطامع الكهنة ، وسيطرتهم على رمسيس الثالث - ١١٩٢ - ١١٦٠ [1] - انصرف الملك عن تقوية ملكه ، واستمع إلى نصيحة من أحاطوا به من الأجانب والمتملقين ، حتى صار من بين الأحد عشر أمينًا فى القصر الملكى خمسة غير مصريين ، أحبَّ الاستماع إلى نصيحتهم له فى الإكثار من الجنود المرتزقة الأجانب ، ليكونوا عونًا له ضد المصريين الذين أخذوا يئنون من الأزمة الاقتصادية التى سببت ارتفاعا فى الأسعار ، لاعهد للبلاد به ، مما اضطر عمال الجبانة فى طيبة إلى الإضراب عن العمل ، لأن مقرراتهم لم تصرف لهم لمدة شهرين فى العام التاسع والعشرين من حكم الملك ، وحاولوا أن يلفتوا نظر رؤسائهم دون جدوى ، وفى اليوم التالى تجمعوا وهاجموا مخازن معبد الرمسيوم ، وهم يصيحون بأنهم جائعون ، بينما تكدست الحبوب وأكوام الذهب فى مخازن إحدى زوجات الملك - بردية هاريس - فتآمرت مع اثنين من كبار موظفى القصر لقتل الملك وتولية ابنها بنتاءور . . لكن بعد قتل الملك قبض على جميع المتآمرين ، واستولى الكهنة على العرش ، وصار كبير الكهنة (حريحور) ملكا على مصر .

ومع سيطرة الكهنة صارت المحاكم لاقيمة لها ، إذ كانت الكلمة العليا فى كل شكوى مايحكم به الإله ، فإذا اتهم أحد الناس آخر بالعدوان ذهب الشاكيان إلى المعبد ، ووضعا ورقة أمام تمثال الإله ، وطلب الكاهن من ذلك التمثال أن يحكم بينهما ، ثم يبلغ المتقاضين بما حكم به الإله ، وهو حكم لارجعة فيه ، ومن ثم كان يعتمد على مايقدم المتقاضون للكهنة ليتحقق الفوز بالحكم - مصر الفرعونية ٣٧٦ و ٣٨١ .

---

(١) يلاحظ الاختلاف فى توقيت حكم هذا الملك بين إرمان والدكتور أحمد فخرى .

شعائـــــر وطقـــــوس

- ١ -

لم يكـن رمسيس الثالث أول مـن سقط بين أنياب الكهنة ، ولا كان آخرهم ، لأن تاريخ الكهنة ربما كـان أسـبق كثيـراً من تاريخ الملوك ، وسطوة الكهنة على الملوك لاتبدأ بالعناية بالمقابر ، وبالأهرامات ، وإن كانت هذه علامات كبرى على هذه السطوة .

ولعلنا لا نبـالغ إذا قلنا إن الملكيـة نشـأت فى حـجـر الكهـانة ، واتصلت مصالحهما منذ عهد بعيد ، أو منذ قيام الملكية .

بل إن الملكية لم تقم إلا وفق شروط الكهنة ، وبالرغم من الصورة الخارجية التى تبين أن الملكية ثمرة النزاعات القبلية التى انتهت إلى سيطرة الأقوى ، لكن الكهنة يمثلون الطيـور الجارحة التى تجهز على الفريسة ، بعد أن ينال (السبع) منها ، وكـان حسـب السبع من يثنون على شجاعته وقوته ، وسخائه وأريحتيه ، ثم يجمعون بين قوته وسخائه ، وقوة الإله وسخائه ، ثم يخترعون له نسباً إلهيّا ، ثم إذا هو إله . . وحين يصبح الإله صنيعة إفكهم وبهتـانهم يجد نفسه مقَيداً بمرضاتهم أو بأطماعهم أو بأحابيلهم وبما يلوحون له من فنون شيطانية .

يقول إرمان : (اصطنع كاهن مقبرة أمحوتب بن حابو وثيقة زعم أنها ترجع إلى عـهد أمنحوتب الثالث ، تقول : إن الملك عـهد بمقصورة المقبرة إلى أسـمى من كـان على سطح الأرض إذ ذاك ، وهـو «آمون رع» ، ملك الآلـهة ، وإن أى موظف كبير فى المستقبل لايعنى بهذا الوقف وبعبيده ، «ويستحوذ على أى رجل منهم لينسبه إلى أى من أملاك فرعون ، أو إلى عمل له هو نفسه ، أو لايتدخل

من أجلهم إذا أضّر بهم غيرهم - فإنه سينْزَلق إلى مكان الإعدام لآمون رع ، سيد الكرنك ، إنه لن يدعهم يشبعون في وظائفهم . . . سيلقي بهم في لهيب الملك يوم مقته ، وسينفث تاجُه النار على رءوسهم ، وسيغرقون في البحر حيث تخفى أجسادهم») .

وزعم هذا الكاهن (أنه في عهد الملك القديم زوسر - حوالي ٢٧٠٠ ق . م - امتنع الفيضان سبع سنين ، فأقبل الملك على وزيره الحكيم ، وهو أمحوتب نفسه ، وسأله الرأي ، فبحث هذا في الكتب القديمة ، وتبين منها أن أخنوم إله اليفانتين هو الذي يُجري الفيضان ، وظهر الإله في الحلم للملك ، ووعده ألا يتخلف الفيضان تارة أخرى ، لهذا أهدى الملك إلى خنوم وآلهة آليفانتين سائر منطقة الشلال الأول ، بخراج حقولها ، وجميع أنواع الضرائب والمكوس) - ديانة مصر القديمة ص ٣٦٦ / ٣٦٧ .

الخبران ، أو الترهتان - كما هو واضح - تعبران عن (وسيلة) لجعل الملك في خدمة الإله ، وجعل الإله في خدمة الملك ، وكلاهما يعمل في خدمة الكهنة .

* وقد يبدو أن دعوى (الملك الإله) أريد بها (عزل) الملك عن شعبه ، أو تحريك الملك داخل الدائرة التي رسمها الكهنة ، كما هو الشأن مع كثير من الملوك ورؤساء الجمهوريات الذين تُرسم لهم السياسة ، وتكتب لهم الخطب ، ولا يتحركون إلا بإشارات مهبط الوحي ، أو هيئة المستشارين ، أو مدير مكتبه ، وقد يطفو على السطح «راسبوتين» . فيمسك بدفة السفينة .

ومن طريق (العزْل) صار الملك يؤدي شعائر خاصة بالمعبود ، لايحضرها غير الكاهن (راسبوتين) الذي يكون همه الأكبر التعبير عن مدى صلته بالله ، والإيحاء بقدرته على امتلاك هذا الإله .

(كانت الشعائر التي تقام في جميع معابد مصر ، باسم الملك ، وعلى نفقته - تعد سراً يتمّ في دجى الظلام ، في قدس الأقداس ، دون أن يشترك الشعب فيه ، ويطهر الكاهن القائم بالعمل نفسه في «بيت الصباح» ، ويأخذ المبخرة ويشعلها ، ويتقدم نحو المذبح ، مطهّرا الأماكن الملحقة به برائحة البخور . . ولما كان التابوت الذي يحوي التمثال الخشبي المذهّب للمعبود أو

المعبودة مغلقًا ، فإن الكاهن يفض الختم المصنوع من الطين ، ويسحب المزلاج ، ويفتح المصْراعين ، فيظهر التمثال المقدس ، وعندئذ يسجد الكاهن ، ويبخّر التمثال ويدهنه بالطيب ، ويسبّح بالأناشيد التعبدية ، والتمثال - حتى هذه اللحظة - عبارة عن قطعة فنية لاروح فيها ، فيهبه الكاهن الحياة ، بأن يقدم له على التوالى عين حورس التى انتزعها منه عدوه «ست» ، وعثرت عليها الآلهة ، وتمثالاً صغيراً للمعبودة «معات» - الحقيقة - ابنة « رع » ، ثم يسحب المعبود بعد ذلك من التابوت ، ويأخذ الكاهن فى تزيينه ، كما لو كان يزين الملك ، فيغسله ويُبخّره ويلبسه ثيابه ويعطره ، ثم يعيده إلى داخل التابوت ، ويضع أمامه كل أنواع الأطعمة التى كانت تأتى عليها النيران بعد ذلك ، وبعد إتمام التطهير النهائى بالنطرون والمياه والتربنتين ، كانت تختم الشعائر الدينية ، ثم يغلق التابوت ، ويسحب المزلاج ، ويوضح الختم ، ثم ينسحب الكاهن إلى الخلف ووجهه نحو الإله ، مزيلا أثر خطواته) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٣٨٠ .

ويضيف إرمان طقوسًا يومية ، هى - فى جملتها - صورة من الطقوس السابقة ، لكن الكاهن يجد نفسه منفردًا بالإله ، فى قدس الأقداس ، عند انبثاق الفجر ، فينبسط فى تقربه من الإله ، ويحيّيه بالركوع عدة مرات ، مرتلاً أو منشداً بعض الأناشيد ، (ثم يتناول الأدوات الدينية الموجودة فى صندوق بالقرب منه ، ويأخذ فى التزيين اليومى للإله ، فينضح التمثال بمحتويات أربع جرار من الماء ، ويكسوه بشرائط من الكتان الأبيض والأخضر والأحمر والمائل للحمرة ، ثم يدهنه بالزيت ، ويزجج عينيه بمساحيق خضراء وسوداء وغيرها ، ثم يضع أمام الإله مختلف أنواع الأطعمة والشراب ، من خبز وإوز وأفخاذ بقر ونبيذ وماء ، ولابد من الزهور التى لاتخلو منها مائدة مصرية) .

(وحين يحل الكاهن الحبل ، ويفض الختم الذى كان قد أغلق به مسكن الإله خلال الليل ، فإنه يجب أن يقول : « إن الرباط قد حُلّ ، والختم قد فُضّ لاجتياز هذا الباب ، كل ماكان فىّ من شرّ قد ترك جانبا ، أنا آت وأحضر إليك عين حورس ، إن عين حورس لك ، أنا «تحوت» ، حين كان يصلح «العين» ، وكان معنى هذا أن الكاهن مطهر) .

(ثم يُدخل المفتاح فى القفل ، ويسحب المتراس ، ويقول : «إن إصبع ست خرج من عين حورس ، وكانت هذه سليمة» . . ومن الواضح أن الإصبع هى المفتاح) .

(وحين يرفع الكاهن الغبار عن المحراب ، بواسطة قطعة من القماش ، يتصور نفسه حورس ، وقطعة القماش عينه ، ويقول : «أنا حورس ، أنا آت وأبحث عن عينى ، أنا لا أسمح لها أن تكون بعيداً عنك») .

(وحين يمسح الدهان القديم ، ويأخذ فى دهان الإله من جديد ، يقول : «إنى آت ، لأملأك بالدهون التى خرجت من عين حورس ، أنا أملؤك بها حتى تربط عظامك ، وتضم أعضاءك ، وتطرد كل رطوبة شريرة») - ديانة مصر القديمة ص١٩٥ / ١٩٦ .

ويبدو أن هذا الطقس كان يهيئ لزيارة الشعب ، إذ (كان فى إمكان من يريد أن يدخل إلى قصر المعبود ويرتاده أن يقدم قربانًا يسيراً للمعبد ، فيعبر الفناء ، ويخترق المرج الذى يمرح فيه بحرية تامة الكبش أو العجل المحظوظ الذى يتجسد فيه المعبود ، وأن يقترب من بركة الماء التى يسبح فيها التمساح الذى يمثل المعبود «سوبك» ، ثم يضع تحت أقدام المعبود لوحة تذكارية صغيرة من الحجر الجيرى ، حفر عليها شكل المعبود ، وبجانبها أُذُن أو آذان وعيون ، لإجبار المعبود على الاستماع له ، والنظر إليه ، وإجابة طلباته المختلفة) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص٣٨١ .

ولعل الكهنة كانوا يعملون على جذب الزوار بتلاوة الأناشيد ، كما كانت الموسيقى تعزف بواسطة الكاهنات (اللواتى كن يطقطقن ويصلصلن بشخاليلهن وصنوجهن وعقودهن الكبيرة) .

(وكانت الحيوانات التى تذبح فى ساحة المعبد تمثل أعداء الإله التى تقتل لإرضائه) - ديانة مصر القديمة ص ١٩٧ .

* ويضيف كنت أ. كتشن (رمسيس الثانى) ص٢٢٠ / ٢٢٢) أنه (كانت للإله عاداته مثل البشر ، يصحو فى الصباح ، يفطر ويعمل ، ثم يتناول غداءه وعشاءه ، ثم ينام) .

لذلك كانت الورش والمخازن ، مع خيوط الشمس الأولى ، تعّج بمن يجهزون قربان الصباح : خبزاً طازجًا ، وكعكًا ، وعجة ، وإبريقًا من النبيذ ، وخضراً وفاكهة ولحومًا ، (لحم طير ، ولحم عجل وثورًا كاملاً فى المناسبات والأعياد ، وباقات زهور) .

وأول ما يفعله كهنة الخدمة يوميا هو الاغتسال ، (طقس التطهر) ، ثم يمشى موكب كهنة الخدمة ومعهم العبيد يحملون مواد القرابين ، يتقدمهم كاهنان ، أحدهما يحمل مبخرة تنشر روائحها الشذية ، والآخر يحمل التمثال الرمزى للملك ، وهو يقدم القربان للإله . وهذا التمثال الملكى يمثل نائب الملك فى هذه الطقوس ، لأن المفروض أن يقود الملك بنفسه مثل هذه الطقوس .

بعد ذلك توضع مواد قربان الصباح على المناضد والمذابح ، ثم تبدأ شعائر طقس الصباح ، وأول هذه الشعائر نشيد إيقاظ الإله ، بعده يرفع كاهن أقفال أبواب المقصورة ، ثم يفتح بابها فينكشف الوجه المقدس ، ثم يتقدم الكاهن من الإله (تمثاله) ، ويضعه فى أبهى زينته ، ثم يبخره ، ويقدم له الشراب ، ثم يقوم بإبدال (أربطته التيلية) ، ويدهنه بالمراهم الشذية ، ويجدد زينته . . بذلك يكون الإله مهيأ لتناول فطوره ، فترفع إليه عينات من كل أصناف القربان الموجودة على المناضد ، وكل ذلك له إجراءات طقسية طويلة بطيئة معقدة ، بمصاحبة شعائر قولية (أناشيد) . . وكان المعتقد أن الإله كائن روحانى يحل فى تمثاله ، ولذلك هو يستمتع بما تنطوى عليه العطايا من إيماءات ذات مغزى .

بعد ذلك يبدأ الجزء الثانى من خدمة الصباح ، فيعاد الإله إلى مكانه بالمقصورة ، ويعاود إغلاقها ، وينصرف الكهنة .

ثم يجرى طقس يسمى (عكس القرابين الأول) ، وفى هذا تؤخذ من قرابين الإله هبات رمزية ، وتجرى شعائر معينة تقدم فيها هذه الهبات للفراعنة السابقين والفرعون الحالى ، تأكيدًا لارتباطهم بالآلهة ، بل هم فى مصاف الآلهة ، ثم ترفع الأطعمة الفاخرة من جميع الموائد .

بعد ذلك يجرى طقس (عكس الهبات الإلهية الثانى) ، وفيه توزع القرابين كطعام عادى على كهنة الخدم ، وهم خدمة المذبح .

أمـا الغـداء أو العـشـاء الذى يقـدم للإله كل يـوم فكانت طقـوسـه مـقـتـضـبـة وقصيرة .

وعلى مـدى الأربع والعـشرين سـاعـة كـانت تجـرى طقـوس أخرى قـصيـرة وبسيطة .

وعندما يهل القـمر الجديد كل شهـر ، ثم عند ظهـور أوجه القـمر المختلفـة ، كـانت هناك شعـائر أخرى تضـاف للطقوس المعتـادة ، وبالمثل كـانت هناك شعـائر وطقوس خاصة بالأعياد الدينية للإله ، تجرى داخل حرم المعبد ، ولا يشارك فيها الجمهور .

وفى مقابل هذه الخدمة والعناية كانوا يتوقعون من الإله أن يشمل مصر كلها برعايته وبركته .

* بمقارنـة روايـة كتشن بما سبق من روايات يتبين أن كل راو لا يتقيـد بنص ، ولا يستعين أو يلتزم بما ورد فى نقش أو بردية ، بل إن كل راو يستهدى بثقافته العامة فى استنطاق اللغة التصويرية ، ومن ثقافته العامة تلك الطقوس والشعائر التى تأخذ بها الكنائس الغربية والشرقية والمعابد اليهودية ، والفارسية والبوذية .

– ٢ –

وزيادة فى الاستهواء الشعبى كان ثمة (موكب الخروج) ، إذ كان المعبود يخرج من مكانه فى المعبد مرة واحدة على الأقل كل عام فى موكب كبير ، يطوف بالمدينة وبالضواحى المحيطة بها ، وكان الأهالى يحتشدون فى هذا الموكب ، وقد شاهد هيرودوت حشداً من المراكب مملوءة بالرجال والنساء يعزفون على الناى ، ويضربون بالصاجات ، ويتغنون ، ويصفقون ، وهم متجهون إلى باسط Bast – الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص٣٨٧ .

وكان ثمة أعياد ، مثل عيد ذكرى ميلاد الإله ، أو انتصاره على عدوه ، وعيد رأس السنة ، وأول يوم فى الشهر . . وفى هذه الأعياد كانت صورة الإله تخرج من محرابها ، وتنقل خارج قدس الأقداس ، فيما يشبه صيوانًا خفيفًا ، بعد تزيينها لهذه المناسبة بالتمائم وقلائد الذهب ، وكانت تحمل أمامه أعلام مزينة بصور إلهية – ديانة مصر القديمة ص ٢٠٢ .

وكثيراً ماكان الإعداد المسرحى لهذه الأعياد يأخذ شكل الإبهار ، مبالغة فى الإمساك بزمام الجماهير ، وتَضْفير مشاعرهم .

حينما كان حورس معبود إدفو يريد الاحتفال بعيده الكبير ، يزوره بهذه المناسبة إلها المعبدين الصديقين فى دندرة والكاب ، ويصحبه رفيقه « خنسو » ، والحراب الأربع التى حارب بها الإله « ست » ، وكان على هذه الآلهة أن تُحيى معًا عيداً يستغرق عدة أيام ، احتفالاً بانتصار حورس على ست ، واعتلائه العرش .

وكانت الموسيقى تأخذ مكانها فى سفينة أمير إدفو ، كما كان على أمير الكاب – عند رسوّ سفن الوافدين عند المعبد – أن يمسك سفن الآلهة من مقدماتها ، على حين يجّر بها من مؤخراتها أمير مدينة أخرى ، وكان على أمير دندرة أن يجلب هو ورجاله الهدايا ، وعلى أميرين أن يقدما ثور الأضحية ، وعلى آخر أن يؤدى خمسمائة رغيف ، ومائة قدر من الجعة ، وفخذ ثور ، وثلاثين عنزا ، لطعام أهل المدينتين الأخريين الذين رافقوا آلهتهم لهذا المعبد ، فإذا ما وصل هؤلاء إذا هم يجلسون ويشربون ويحتفلون بالعيد بين يدى هذا الإله

الجليل ، ويشربون ويتضمخون بالدهون ، ويهللون فى صوت صاخب مع سكان المدينة .

وفى أول أيام العيد كانت الآلهة تصعد مع مرافقيها الذين أمضوا ليلتهم بجانب المعبد إلى (معبد علوى) كان يقع على حافة الصحراء ، وهناك يستقر الجميع على الأرض ، ويقدم شئ من القربان ، وطرف من الشعائر ، ثم تعرض الآلهة ، ويحتفل (كاتب كتاب الآلهة) بانتصار حورس ، وكان يهتف أربع مرات : (لقد عاد حورس منتصراً ، وتم كل ماعهد به إليه ، إن أمه إيزيس فرحة ، لأنه نال وظيفته هذه بقلب مبتهج) ، وكان آلهة إدفو (الأرواح الحية تجلس على عروشها) ، وترنو ببصرها إلى (سيد الآلهة)، وكان (الفرح يعم إدفو) ، أما الكهنة فكانوا يجيبون مردّدين (افرحى ايتها الأرواح الحية ، لقد انتصر حورس ، وتم كل ماعهد به إليه) .

وفى غمار هذه الهتافات كان الكوكب يستأنف سيره إلى (قاعة المدرسة) ، حيث تجلب أولاً عنزة حمراء ، وثور أحمر ، تنزع أحشاؤهما ، ويحرقان قربانا ، بعد أن يحشى جوفاهما بكافة الأعشاب المعطرة ، ويصب عليهما (عصير العنب الطازج والنبيذ) .

ومن ثم كان كاتب كتّاب الآلهة يتلو كتاب (تمجيد حورس الذى ثبّت له إرثه) ، ثم أربعة كتب أخرى ، وكان القربان يقدم لرع ، بحيث (يدعى بأسمائه جميعا) ، وكان يجلب له مائة رغيف أبيض ، وقدور خمسة من الجعة ، وفطائر وبلح ولبن وإوز ونبيذ ، وكان الكهنة يرتلون أثناء ذلك (الحمد لك يارع ، الحمد لك ياخبرى ، بسائر أسمائك هذه الجميلة ، إنك تُقبل قويًا شديداً ، وقد أشرقت فى جمال وبهاء ، وقهرت التنين ، أمل محياك الجميل إلى الملك) .

وكان الأمر يستمر على هذا النحو ثلاثة عشر يوما ، حتى تئوب فى النهاية الآلهة الغريبة إلى مواطنها ، وآلهة إدفو إلى معبدها - ديانة مصر القديمة ص٤١٦ / ٤١٨ باختصار .

التعـــاويـــــذ

- ١ -

تتمثل أهم التعاويذ التى احتفظت بها النقوش وأوراق البردى فى كتابين :

١ - متون الأهرام : وهى التى وجدت فى أهرام الأسرتين الخامسة والسادسة ، وأكثرها ما كان منقوشًا فى حجرة دفن الملك (وناس) الذى تنحصر شهرته فى هرمه الذى بناه فى سقّارة ، وقد وجدت على جدران حجرة دفنه تعاويذ وصلوات دينية ، كان الغرض منها أن تحفظ المتوفى فى آخرته ، وهذه هى أول مرة نجد حجرة الدفن فى الأهرام منقوشة جدرانها بمتون دينية ، ثم عرفت النقوش فى حجرات دفن الملوك (تيتى) ، و (بيبى الأول) ، و (مرن رع)، و (بيبى الثانى) ، وكلها فى منطقة سقارة ، متشابهة ، وتحتوى على آلاف الأسطر .

ولما جاء عصر الدولة الوسطى وجدت متون مشابهةلها مكتوبة بالمداد الأسود على توابيت خشبية لعلية القوم . . أما فى عصر الدولة الحديثة فقد وجدت متون أكثر نموًا وأغزر مادة ، مكتوبة على ورق بردى ، كان يوضع مع المتوفى فى قبره ، ويسميها علماء الآثار الآن (كتاب الموتى) [(١)] - مصر الفرعونية جـ١ ص ٣٥١ / ٣٥٢ .

ويذكر أن ماسبيرو هو الذى اكتشف هذه المتون سنة ١٨٨١م ، ثم ترجمها إلى

---

(١) جاء فى كتاب (كنوز الفراعنة ص ١٧٣) أن (كتاب الموتى) روجع فى العصر الصاوى مراجعة دقيقة ، وأضيفت إليه نصوص جديدة ، وحذفت غيرها .

الفرنسية سنة ١٨٨٢م ، وترجمها سيث **Sethe** إلى الألمانية سنة ١٩٠٨م .

وقد اتفق العلماء على أن هذه النصوص تترجم الكثير من عقائد وتقاليد تذهب فى قدمها إلى ماقبل الأسرات ، إذ توجد فيها إشارات إلى تلك الحروب التى استعر أوارها فى أوائل أيامها ، مشاراً إليها كحروب بين الآلهة المختلفة ، الذين كانوا يعبدون فى ذلك الوقت – على هامش التاريخ المصرى القديم ص٥٤ .

وليست النصوص الواردة فى داخل كل هرم مطابقة لما فى الهرم الآخر ، بل إن الكهنة الذين أشرفوا على اختيارها لكل ملك كانوا يختارون مايرونه (صالحًا) لكل ملك ، وقد أمكن جمعها ودراستها ، ومقارنة بعضها ببعض ، ومجموعها ٧١٤ تعويذة – مصر الفرعونية ص ١٤٠ .

وكان الهدف منها إعطاء هؤلاء الذين استكتبوها على توابيتهم قوة على أن ينالوا إما شكلاً من الوجود ، فيه قدر من النعيم فى الآخرة ، وإما – وهو الأرجح – تأليها من أجل حياة أبدية ، لم تكن محتوياتها أسطورية فقط ، فكثيراً ما أضيفت حواش إلى المتلوات الفردية ، لإعلام الميت لأى غرض سحرى تتلى ، وفَضْلا عن ذلك كانت هناك متلوات أنسب للأحياء منها للأموات ، وثمة حواش مضافة إلى المتلوات تمثل نظرة التشاؤم السائدة بالنسبة للوجود فى الآخرة ، إذ يوصى بها – مثلاً – لإبقاء عمل القلب وسائر الأعضاء ، والحصول على الهواء الذى يتنفس به ، وعدم المشى مقلوبًا ، أو أكل الغائط ، وتجنب موت آخر . . ثم متلوات أخرى لتحويل النفس إلى أى شكل ممكن ، مثل التحول إلى الصقر الإلهى ، أو الإلهة حتحور ، أو إلى تمساح ، أو لهب ، أو إلى أى إله يشاء – حياة الروح فى ضوء العلم ص ٤٢ / ٤٣ .

وخوفًا من عواقب (المحاكمة) الأوزيرية اخترع الكهنة صيغة سحرية شديدة القوة والتأثير ، لدرجة تجعل إله الشمس ، القوة الحقيقية الكامنة وراء تلك المحاكمة ، يسقط من سماواته فى (النيل) إذا لم يخرج ذلك الميت برئ الساحة من محاكمته – مصر القديمة جـ ٥ ص ٢٤٢ .

وهذا يدل على الشك فى تحقيق العدالة ، لأن الآلهة يزنون بأكثر من ميزان ،

فالجنة السماوية للفرعون وتتبعه أسرته وكبار موظفيه وحاشيته ، كهانا وقادة وخدما ، فالسعيد فى الدنيا سعيد فى الآخرة ، (إن ماءك - ذريتك - مأواه السماء ، أما الآلاف فمأواهم الأرض) . . (إن ماء الملك «تيتى» فى السماء ، وشعب «تيتى» على الأرض) . . (إنك تدخل أبواب السماء التى حرمت على المواطنين) . . (لقد فتح لك مصراعا باب السماء ، وانفرجت لك أبواب السماء ، وهى التى تصد الناس بعيداً عنها) .

هذه العبارات - سواء صاغها الكهنة ليؤرثوا الضغينة ضد الملوك ، حتى يثبوا إلى العرش ، أو صاغتها المعاناة الشعبية - تعبر عن فجوة لاتزال تتسع بين الحاكم والمحكوم ، وتعبر عن السرف والسَّفَه الذى يمتص عرق ودماء الكثرة الكادحة .

ولهذا لم يمتد حلم الشعب إلى أكثر من أن تكون جنته فى (حقل القربان) ، فى بلدة هليوبوليس التى كانت بمثابة المركز الرئيسى لعبادة الإله رع ، أول من حكم الدنيا ، ناشراً العدل والمساواة بين الجميع ، لكنه تخلى عن حكم العالم الدنيوى ، ورفع نفسه إلى عالم السموات . .

وعند نهاية الدولة القديمة ، وانتشار المذهب الأوزيرى ، طالب الشعب بحق التمتع بالجنة السماوية التى وُعد بها الملوك ، فأجيب إلى طلبه بعد حرب شعواء قلبت خلالها الأنظمة الاجتماعية رأساً على عقب - مصر القديمة جـ ٢ ص ٥٢٧ / ٥٣٣ .

وكتاب (تحذيرات نبى) للحكيم إيبور يعبر عن أسباب تلك الثورة الدموية ، فيصف البؤس العام الذى حل بالبلاد من سرقة وقتل وتخريب وقحط ، وتشريد الموظفين ، وتفكك الإدارة ، والقضاء على التجارة الخارجية ، وغزو الأجانب البلاد ، وتولية الغوغاء مراكز الطبقات العليا . . أصبحت البلاد ملأى بالعصابات . . أحجم الفلاحون عن الزراعة خشية اللصوص وقطاع الطريق . . انتزعت مومياوات علية القوم وألقيت فى الطريق العام . . أصبح الرجل الأحمق يشك فى وجود الإله ، ويقول : (إذا عرفت أين يوجد الإله قدمت له قربانا) .

ويقول الحكيم إيبور لمليكه : (إن القيادة والفطنة والصدق معك ، لكنك لاتنتفع بها ، فالفوضى ضاربة أطنابها فى طول البلاد وعرضها ، لكنك مع ذلك

تغذّى بالأكاذيب التى تُتلى عليك ، فالبلاد قش ملتهب ، والإنسانية منحلة ، ليتك تذوق هذا البؤس بنفسك) - مصر القديمة جـ ١ ص ٤٠١ / ٤٠٥ .

هذه الثورة (الانقلابية) فى الدنيا أحدثت حلمًا انقلابيًا فى الآخرة ، مما يفيد قوة ارتباط بالآخرة فى الوجدان الإنسانى ، ومما يفيد طبيعة السلطة الكهنوتية التى تتشمم حركة الريح ، فتنشر القلوع فى اتجاهها .

٢ - أما كتاب الموتى فقد ألفه كهنة المعابد للكسب منه ، إذ زعموا فيه أن يكون وسيلة تساعد الميت على التخلص من العقوبة بمخادعة وتضليل ذلك القاضى الرهيب ، قاضى محكمة الآخرة - فجر الضمير ص ٤١ .

وقد كتبت النسخ الأولى بالخط الهيروغليفى فى سطور رأسية بالحبر الأسود، أما عناوين الفصول والفقرات الهامة فقد كتبت بالحبر الأحمر لتمييزها، ثم أخذت البرديات تزين برسوم خطية صغيرة بالحبر الأسود ، ثم صارت تلك الرسوم فى عصر الأسرة التاسعة عشرة تلون حتى تحولت إلى أعمال فنية قائمة بذاتها .

وكان الاسم القديم لكتاب الموتى (تعاويذ الخروج نهارًا) ، وهو عنوان يوحى بقدرة تلك النصوص على أن تمكن المتوفَّى من مغادرة قبره - الموتى وعالمهم ص١٦٤ - أو لأن النهار هو أسوأ وقت عندهم ، إذ لاتضيء الشمس لهم بأشعتها إلا حين تغرب ، (عندئذ يفتحون عيونهم عندما يشاهدون الشمس ، فتطفح قلوبهم بالفرح حين يرونها ، ويهللون عندما تكون من فوقهم ، إنها تمنح أنوفهم الهواء) ، ويفرحون ، إذ يستطيعون مساعدة الشمس بدورهم ، فيمسكون الحبْل المعقود بمقدم سفينة الشمس ، ويجرونها فى العالم السفلى الذى لاتهب فيه أى ريح ، وذلك على نحو ما تجرّ السفن فى النيل حين تسكن الرياح - ديانة مصر القديمة ص ٢٥٤ .

* وإلى هذين الكتابين كان كتاب (الأبواب) ، وكتاب (إمدادات) من كتب السحر التى نقشها ملوك الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين على الجدران ، وعلي التوابيت ، لتساعد على الخروج من المآزق التى تحيق بالموتى - المصدر السابق ص ٢٦٨ .

كل هذه الكتب وكتب أخرى لم تصلنا – دون شك – كانت من وحى عبادة أوزيريس ، التى أساسها الأول أن الإنسان – ملكًا أو مملوكًا – مسئول بعد الموت عن أعماله فى الدنيا ، أمام محكمة إلهية ، يتولى القضاء فيها أوزيريس نفسه ، ويساعده فيها «توت وأنوبيس وحورس ومعات» ، واثنان وأربعون قاضيًا ، فإذا حكمت هذه المحكمة بأن حسنات الميت ترجح سيئاته كوفئ بالنعيم الخالد ، وصار مثل أوزيريس ، أما إذا حكمت المحكمة بأنه أساء فى حياته فجزاؤه أن يفترسه الوحش ، أو أن يلقى به فى النار ، أو أن يضرب عليه نوع آخر من العذاب – على هامش التاريخ المصرى القديم ص٥٥ .

ويبدو من (كتاب الموتى) ، أن مثل هذه المحكمة قد اجتمعت فى كل من أبوصير وبوتو وأبيدوس وهيراكليوبوليس ، وفى معبد سكر فى منف ، وفى أماكن مقدسة أخرى ، وكان « تحوت » فى كل منها هو الذى (برّر) الميت ، بصفته أوزير جديدًا ، وقد أشار إلى محكمة الموتى ذلك الملك الشيخ الذى ترك تعاليمه لابنه «مريكارع» ، إذ حذره فيها من (القضاة الذين يفصلون فى قضايا المظلومين ، إنك لتعلم أنهم غير رحماء فى ذلك اليوم الذى فيه يُقضى للمسكين) – ديانة مصر القديمة ص ٢٥٥ .

وقد ألف الكهنة تلك المحكمة من اثنين وأربعين قاضيًا قَصْدَ الإشراف على أخلاق المتوفّى ، من أى ناحية كانت من أنحاء البلاد ، حيث يجد المتوفى نفسه تواجه قاضيًا على الأقل من بين أولئك القضاة قد جاء من البلدة التى كانت موطنًا له ، فيكون ذلك القاضى على علم بسيرة ذلك المتوفى المحلية – فجر الضمير ص ٦٧٤ .

* وقد بينت نصوص (التوابيت) أن الثواب هو الصعود إلى السماء ، بعد رحلة جمة المخاطر ، للإقامة فيها مع الآلهة ، فى مجموعة من الجزر تحيط بها المياه ، أشبه (بالجزر) الكائنة فى (نهر المجرة) . . ولهذا تقول المتون :

(يامخْلبَى حورس ، ويا جناحى تحوت ، اعبرا به ، ولاتتركاه دون أن يعبر) . . وتقول : إن الممجدين يقيمون فى جزر فى السماء ، فيها حقل يسمى (حقل الطعام) ، ومن هذا الحقل يتناول الممجدون أطعمة شهية مختلفة تتجدد

ولا تنفد ، وهناك حقل آخر يسمى (حقل يارو) ، وشجرة جميز تسمى (شجرة الحياة) ، يجلس إليها الآلهة . ويأكلون منها .

وإن السماء « نوت » ، والثعبان الذى يحمى الشمس ، يعطيان الصاعد إلى السماء - حين وصوله إليها - ثدييهما ، ليرضع منهما ، فمتى رضع عاد صبيا .

وهو يأكل الخبز مع الآلهة ، ويشرب الخمر ، وصحته تزداد تحسنا على مر الأيام .

ويذكر فصل عنوانه (ضم أهل بيت الرجل إليه فى العالم السفلى) أن من الثواب (اجتماع شمل أهل البيت من الأب والأم والأطفال والأصدقاء والأقارب والأزواج والحظيات والعبيد والخدم ، بل وكل مايملكه الرجل ، ليكون معه فى العالم السفلى) - فجر الضمير ص ٢٤٥ - وهذا ماأشار إليه القرآن الكريم بقوله فى ثواب أهل الجنة : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ - كما أن الجنة لايدخلها عجوز تمثل فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ - وشجرة الجميز التى هى (شجرة الحياة) فى الجنة أقرب إلى ﴿سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ التى ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ - فإذا عرفنا أن الجميزة فى مصر تماثل السدرة فى الحجاز ، أيقنا بهذه (الإشارات) أن ثمة (أثارة) سماوية فى التراث المصرى القديم ، ويذكر (كتاب الموتى) من مظاهر الثواب أن الميت يجلس فى قاعة أمام أوزيريس ، ويخرج إلى (حقل يارو) ، ويأكل خبزاً وفطائر ، ويكون له حقل من القمح والشعير يبلغ علو النبات فيه سبعة أذرع ، ويقول كتاب (الموتى وعالمهم ص ١٧٢) : إن ارتفاع القمح خمسة أذرع وطول السنبلة ذراعان ، تعبيراً عن وفرة الخيرات ، ومثل هذه (التعبيرات) تروج فى الكتب الشعبية (الإسلامية) !! ويذكر أن خدام (حورس) يحصدون له هذا الزرع ليأكل منه ، وله أن يدخل العالم السفلى ويخرج منه ، وله أن يقيم فى حقل يارو، أو فى حقل الطعام ، وفيهما يكون ممجّدا يزرع ويحصد ، وتكون له نساء (حورعين) يتمتع بهن ، ويعمل كل ماكان يعمله على الأرض .

أما العقاب فقد تقدم أن من صوره وحشا له رأس تمساح وجسم أسد يلتهم المذنب ، وناراً يلقى فيها وهناك صور أخرى هى أن يبقى فى قبره فريسة الجوع

والعطش ، محرومًا من رؤية الشمس ، وأحيانا يتولى القضاة الاثنان والأربعون الذين يجلسون فى محكمة أوزيريس ضرب المذنب بالسيوف ، وقد يتم تركيز محور باب على عينه ، وهذا الباب يفتح ويقفل ، والميت يصيح من الألم ، كلما فتح أوأقفل ، وقد يعلق طعام فوق رءوس المذنبين ، فهم يقفزون للوصول إليه ، وكلما قفزوا بعد عنهم الطعام - على هامش التاريخ المصرى القديم ص٥٨ / ٥٩ .

* وكان مما يخشاه الميت ألا يكون له فم يتحدث به مع الآلهة ، وأن يسلب منه قلبه ، وأن تقطع رأسه ، وأن يفسد جسده بالرغم من تحنيطه ، وأن تنتزع منه بعض الكائنات المعادية (مكانَه وعرشَه) ، وأن يضل طريقه (فيقع على مذبح الإله) أضحية تعيسة ، وقد يعوزه الطعام والشراب . . إلخ .

وكان من شأن أوراد (كتاب الموتى) أن تساعده على هذه الأخطار وما يماثلها .

(طوبى إذن لمن يكون بجانبه هذا السحر ، ويعرف كيف يحتفظ به ، لأنه يعرف الورد الذى يفيد ضد التماسيح التى تسلب الميت سحره) .

ومعرفة سائر الأوراد تحقق كل المراد :

(من يتلُ هذا الورد على نفسه كل يوم يسلَم على الأرض ، ويخرج من كل نار ، ولايلقى سوءًا أبدًا) - ديانة مصر القديمة ص٢٥٢ .

وكان من تقاليد القوم (وضع رقية سحرية مع المتوفى ، حتى لاينزع منه قواه السحرية ، حينما يكون فى العالم السفلى) .

ومن جرّاء ثقة الناس العمياء فى تلك التعاويذ صارت يد الكهنة فرصة لاحدّ لها للكسب ، وقد ازداد خصب خيالهم فى إنتاج التعاويذ باستمرار ، وكانت بطبيعة الحال تباع للمشترين السذج الذين كان عددهم فى ازدياد ، وقد ساعدت تلك الوسيلة كثيرًا على زيادة مخاوف الشعب من أخطار الحياة الآخرة .

كانت التعاويذ تشمل كل ما يخاف منه المرء . . لدفع الثعابين والتماسيح عن الميت ، والخروج من النار التى تحكم المحكمة بالعذاب فيها ، وحتى لايفقد فمه

أو رأسه أو قلبه ، ولتساعده على تذكر اسمه ، وعلى التنفس والأكل والشرب ، وعلى تقمص أى شكل يريده .

وكانت تعاويذ أقرب إلى الشفاعة أو الوسيلة لدى القضاة :

(لا تبلغوا عنى شراً لذلك الإله التى تتبعونه . . لاتقدموا ضدى أية شكاية أمام الإله العظيم . . إنى إنسان طاهر الفم ، طاهر اليدين) .

كانت مناظر المحاكمة فى الآخرة ، ومتن إعلان البراءة ، تنسخ بكثرة على صفحات البردى ، يقوم بنسخها الكتبة ، ثم تباع لكل الناس ، ولا يكتب اسم المتوفى فى هذه النسخ إلا بعد شرائها ، كما جرى بعد ذلك فى (صكوك الغفران) البابوية .

وكان فى الإمكان الحصول على شهادة تقول : (إن فلانا - الذى ترك مكان اسمه خاليا - كان رجلاً فاضلاً) .

وبلغت جرأة بعض التعاويذ تهديد أكبر الآلهة إذا هو لم يستجب لتحقيق مايطلب منه .

يمتاز (كتاب الموتى) بأنه دوّن مرافعة يلقيها أمام المحكمة الكاتب أوزيريس - آنى [1] (عسى ألا يكون هناك شئ يعوقنى أثناء المحاكمة) .

وقد تضمنت هذه المرافعة مايسمى بالاعتراف السلبى ، وفيه ينفى (آنى) ارتكابه كل مايخالف القيم الأخلاقية التى استمدها - دون شك - من قانون عام ، أو من كتاب مقدس .

ومهّد لهذه المرافعة بشفاعة حورس بن أوزيريس التى تقول :

(لقد أتيت إليك يا «أون - نفر» ، وأحضرت إليك «أوزيريس - آنى» . . قلبه كان على الميزان نقيا . . لم يرتكب خطيئة ضد إله أوآلهة . . لقد وزنه «تحوت» وفقا لأمر هيئة الآلهة ، وإنه بالحقيقة عادل وحق . . امنحه الفطائر والجعة ، ودعه يدخل إلى حضرة « أوزيريس » ، عسى أن يكون شأنه شأن أتباع حورس إلى الأبد . . إلى الأبد) .

وأيّد « آنى » هذه الشعائر بقوله :

(إنى لم أرتكب إثما . . لم أسرق بالإكراه . . لم أسط . . لم أقتل . . ولم أرتكب أذى . . لم أختلس القرابين . . لم أقتطع من التقدمات . . لم أسلب إلها . . لم أنطق بالأكاذيب . . لم أستلب طعاما . . لم أسبب ألما . . لم أرتكب الزنا . . لم أتعامل بخبث . . لم أمارس انتهاكا . . لم أفعل الفحش . . لم أسبب خراب الأرض المحروثة . . لم أكن بالمتلصص . . لم أرتكب نميمة . . لم أكن حانقا غاضبا إلا لسبب حق . . لم أغرر بزوجة رجل . . لم أغرر بزوجة إنسان . . لم أدنس نفسى . . لم أسبب الرعب لإنسان . . لم أصم أذنى عن كلمات العدل والحق . . لم أتسبب فى حزن . . لم أمارس التكبر . . لم أشعل نار عراك . . لم أحكم دون روية . . لم أسع فى وشاية . . لم أضخم الكلمات . . لم أسبب ضرا و علة . . لم ألعن أبدا المالك . . لم ألوث أبدا المياه . . لم أنطق باستهزاء . . لم ألعن أبدا إلها . . لم أدنس قرابين الآلهة . . لم

(١) كان اسم المتوفى لايرد فى النصوص الجنازية إلا مرتبطًا باسم أوزيريس .

أسرق قرابين الموتى المباركين . . لم أحرم الرضيع طعامه . . لم أرتكب خطيئة ضد إله مدينتى . . لم أذبح بنيّة شريرة ماشية الآلهة) - كتاب الموتى ص ١١٧ .

مع أنى حذفت بعض العبارات المكررة ، فإنه لايزال بعض المعانى المتداخلة ، بسبب من سوء الترجمة ، أو بسبب الجمع بين أكثر من ترجمة .

وفى موقف آخر من المحاكمة يتكرر هذا الاعتراف السلبى - ص ١٢٤ / ١٢٨ .

وفى ص ١٢٩ نجد خطابًا إلى آلهة العالم السفلى يقول :

(اضمنوا لى أن أحضر إليكم ، لأنى لم أرتكب ذنوبًا ، لم أفعل خطايا ، لم أقم بالشر ، لم أتهم إنسانًا زيفًا . . لأجل هذا لاتدعوا ضرراً يحيق بى . . إنى أعيش فى العدل والحق ، وأطعم قلبى على العدل والحق ، وماصدر كأمر للبشر قد فعلته ، وقمت بالأشياء التى ترضى قلوب الآلهة . . لقد أرضيت الإله ، لأنى قد نفذت مشيئته . . أعطيت الخبز للجوعى ، والماء للعطاش ، والكساء للعرايا ، وزورقا لمن تحطمت مراكبهم . . لقد صنعت القرابين للآلهة ، ومنحت وجبات المقبرة للموتى المباركين . . لذلك خلصونى ، وامنحونى حمايتكم ، ولا ترفعوا ضدى اتهامًا أمام الإله العظيم ، إننى نقى الفم ، طاهر اليدين . . لقد طهرت نفسى وصدرى بالمطهرات ، ونظفت أعضائى السفلية ، واستحمت أحشائى فى بحيرة العدل والحق ، وليس هناك عضو فى جسدى ينقصه العدل والحق) ص١٢٩ / ١٣٠ .

نفس التكرار والتداخل فى (الاعتراف السلبى) ، ولولا أن هذين العملين قد تم إعدادهما قبل أن تكون الوفاة والمحاكمة لكنا نقول إنه بسبب هول الموقف .

إن كلا من (الاعتراف السلبى) ، و (الخطاب إلى آلهة العالم السفلى) يصدر عن دستور أخلاقى مدون تأخذ به المحاكم فى الدنيا ، كما تأخذ به محكمة الآخرة ، ذلك لأن المتوفى مدان بمخالفة القواعد الأخلاقية فى الدنيا ، وقد يذهب بنا الظن إلى أن هذا (الدستور الأخلاق) يرجع فى مجمله إلى (كتاب) له جذور سماوية بعيدة ، سقى تربتها يوسف وإبراهيم وإدريس ونوح ، وغيرهم

من الرسل الذين لم ترد أسماؤهم فى القرآن الكريم . . وصدق الله سبحانه : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ .

ومما يفيد أن هذا (الاعتراف السلبى) ليس من خصوصية (آنى) أنه تكرر فى بردية (نو) وبردية (نبسنى) .

ولأن (الشوق الإنسانى كان مرتبطًا بالتوحيد مع الإله ، أو بالتبعية له ، كما هو واضح من إلحاق اسم المتوفى باسم أوزيريس - فإن (أوزيرس - آنى) يشير فى (كتاب الموتى) إلى تبعية عضوية ، تتمثل فى (تحولات) إلى سنونو، إلى صقر ذهبى ، إلى صقر مقدس ، إلى ثعبان ، إلى تمساح ، إلى بتاح ، إلى روح (تم) ، إلى عنقاء ، إلى بلشون ، إلى زهرة لوتس ، وإلى الإله الذى يمنح الضوء والظلام .

ومن هنا نجد أن كل عضو فيه - من شعر رأسه إلى أصابع قدميه - مثال لعضو أحد الآلهة ، مما قد يوحى بالتوحد الكونى :

شعر (أوزيريس - آنى) الظافر هو شعر (نو) - الماء الأزلى .

وجه (أوزيريس - آنى) الظافر هو وجه (رع) - إله الشمس .

عينا (أوزيريس - آنى) الظافر هما عينا (حتحور) - إله الحب والجمال والسعادة .

أذنا (أوزيريس - آنى) الظافر هما أذنا (وب - وات) - فاتح الطريق .

شفتا (أوزيريس - آنى) الظافر هما شفتا (إنبو) - أنوبيس - حامى الموتى .

أسنان (أوزيريس - آنى) الظافر هى أسنان (سرقت) - الإلهة العقرب .

عنق (أوزيريس - آنى) الظافر هو عنق (إيزيس) - الأم المقدسة .

يدا (أوزيريس - آنى) الظافر هما يدا (با - نب - ددو) - الروح المقدس لأوزيريس .

كتفا (أوزيريس - آنى) الظافر هما كتفا (واجت) - ربة اللهيب .

حلق (أوزيريس - آنى) الظافر هو حلق (مرت) - إلهة رأسها مكللة بزهور اللوتس .

ساعدا (أوزيريس - آنى) الظافر هما ساعدا سيدة (ساو · نيت) ربة سايس - من أقدم الآلهات فى مصر .

فقرات ظهر (أوزيريس - آنى) الظافر هى فقرات ظهر (ست) - إله الشر .

صدر (أوزيريس - آنى) الظافر هو صدر رب (خرعحا) - إله فى مملكة أوزيريس .

لحم (أوزيريس - آنى) الظافر هو لحم (عاتشفت) - رب الرعب العظيم .

جانب وظهر (أوزيريس - آنى) الظافر هما جانب وظهر (سخمت) - ابنة رع ، ومهلكة أعدائه .

أرداف (أوزيريس - آنى) الظافر هى أرداف (الأوتشات) - عين حورس - الشمس .

قضيب (أوزيريس - آنى) الظافر هو قضيب (أوزيريس) - إله الخصب والبعث وكبير الآلهة .

ساقا (أوزيريس - آنى) الظافر هما ساقا (نوت) - إلهة السماء .

أقدام (أوزيريس - آنى) الظافر هى أقدام (بِتاح) - إله الخلق والصناعة .

أصابع (أوزيريس - آنى) الظافر هى أصابع (الجوزاء) - إلهة - كوكب .

عظام رجل (أوزيريس - آنى) الظافر هى عظام أرجل (اليوريات الحية) - مجموعة آلهة .

يلاحظ أن الترجمة تحدثت عن (جانب) واحد ، وعدة (أقدام) ، ويلاحظ أن عملية التحول هذه وردت فى الأساطير الهندية ، فيما يسمى تقمص الأرواح أو الأجساد ، وهو لون من التعذيب أو التطهير من الذنوب فى الدنيا ، إذ تحل روح الإنسان فى جسم حيوان . . ولعل ماجاء فى كتاب (التحولات) أو (مسخ الكائنات) لأوفيد إنما هو اقتباس فكرى مما ورد فى(كتاب الموتى) ، ومعالجته معالجة أدبية خاصة ، كما فعل كل من هومير ودانتى ، مع بعض القصص المصرية القديمة .

فكـــــرة القانـــــون

يقول صمويل كريمر : (التاريخ المصرى يوحى بأنه حوالى عام ٣٠٠٠ ق.م فى مصر كان «العقل السحرى» و «العقل المنطقى» ، أى أن الأساليب الدينية والمنطقية فى التفكير قد كانا أكثر توازنًا مما كانا عليه حوالى عام ١٠٠٠ ق.م ، سواء فى مصر أو فى عالمنا الحاضر . . لقد استخدم المصريون الأقدمون المنطق بأعلى درجة ، حين استدعى ذلك ، كما أنهم قدسوا ماكان بعيدًا عن فهمهم) - أساطير العالم القديم ص ٢٥ .

وتوازن الدين والمنطق يعنى (تقنين) القيم الأخلاقية التى تحمى المجتمع ، وتسدد مسيرته ، ولابد لسلامة هذه القيم ألا تخضع لإرادة الفرد ، وإلا انحرفت أهدافها ، مهما كان صَفَاء هذا الفرد ، وحرصه على سلامة المجتمع ، فما من إنسان إلا وله (هوى) يميل به أو يهوى ، وجوانب قصور تعثر به أو تضل . . ومن هنا كان العون السماوى الذى يجنِّب الإنسان بعض الشطط ، أو عواقب الغفلة .

وهذا (دستور قوانين «حمورابى» يقضى فى العدالة حسب المركز الاجتماعى للمدعى أو المذنب ، أما الانعدام التّام للفوارق الاجتماعية أمام القانون الذى هو من أرقى مظاهر الحضارة المصرية ، فلم يكن معروفًا فى بابل ، وكان نتيجة ذلك أن المبادئ الأخلاقية فى بابل لم تساهم إلا بالنَّزر اليسير ، إن لم تكن لم تساهم بشئ مطلقا فى الإرث الأخلاقى الذى ورثه العالم الغربى) - فجر الحضارة ص٣٣ .

وهذا لايتوقف على قِدم الحضارة المصرية ، بل على استعانة هذه الحضارة بتوجيهات سماوية .

ولعل تعظيم الحق والعدل والسعادة ، فيما سمى الإلهة (ماعت) ، هو تعبير عن الجذر السماوى الذى أخذ - مع تراكمات التطور الزمانى والمكانى - يتحول إلى (رمز) إلهى ، يتردد فى (ترنيمات زرادشت) .

ومما يؤيد وجود الجذر الإلهى فى القانون المصرى أن (المثل الأعلى لحكماء الاجتماع المصريين أخذ شكل رسالة التبشير بقدوم المخلص) ، وهى لمحة إلى ما عهد فى الكتب المقدسة من التبشير بالرسول القادم ، (وهى الاعتقاد بمجئ حاكم عادل يكون فاتحة عصر ذهبى ، وإقامة العدالة بين جميع بنى البشر . . وقد ورث عنهم العبرانيون هذا الاعتقاد فيما بعد) - فجر الضمير ص٤٠ - ليس لأن العبرانين بشروا بالماشيح أو المخلص فحسب ، بل لأن هذا كان أسلوبًا متبعًا ، حتى بشر السيد المسيح بالرسول محمد ، عليهما الصلاة والسلام ، ثم انقطع التبشير ، لأن رسالة محمد هى الخاتمة .

ذكر الأستاذ سليم حسن (مصر القديمة جـ٣ ص ١٧٠ / ١٧٤) أن أمنمحات الأول (٢٠٠٠ - ١٩٧٠ ق.م) مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، (حرص على إذاعة أسطورة تقول : إن الويلات التى حاقت بالبلاد ستنجاب على يد رجل عظيم يصلح عوجها . ويبرئ بحكمته عللها . . وقد آمن المثقفون بهذه «النبوءة» الأسطورة ، لأنها كتبت بأسلوب بليغ أحسن صياغتها الكاهن المرتل «نفر رو هو» تبريرا لاعتلاء «أمنمحات» عرش الملك) .

وقد جاء فى هذه النبوءة الأسطورة (سيأتى ملك من الجنوب اسمه «أمينى» ، وهو ابن امرأة نوبية الأصل ، وقد ولد فى الوجه القبلى ، وسيتسلم التاج الأبيض ، وسيتسلم التاج الأحمر ، فيوحّد البلاد بذلك التاج المزدوج ، وسينشر السلام فى الأرضين - مصر - فيحبه أهلها . . وسيفرح أهل زمانه ، وسيجعل ابن الإنسان يبقى أبد الآبدين ، أما الذين كانوا تآمروا على الشر ، ودبروا الفتنة ، فقد أخرسوا أفواههم خوفا منه ، والآسيويون سيقتلون بسيفه ، واللوبيون سيحرقون بلهيبه ، والثوار سيستسلمون لنصائحه ، والعصاة إلى بطشه، وسيخضع المتمردون للصل الذى على جبينه) .

الخبر يتحدث عن (حيلة سياسية) ، تمت بالاتفاق بين (المرشح) للملك

والكاهن ، لكسب تأييد الجماهير للحاكم الجديد الذى كان له فضيلة إعلاء شأن (آمون) ، ولعل هذا أحد بنود الاتفاق ، لأن (آمون) لم يكن معروفا من قبل . . ويلاحظ أن الماشيح أو المخلص عند اليهود أخذ شكل (حيلة سياسية) لرفع معنويات اليهود بعد الأسر ، وفى الوقت نفسه فهو يحمل طابع (التبشير) ، برجل مؤيد من السماء (يخرج الناس من الظلمات إلى النور) .

* وحقيقة هذا (الجذر السماوى) غابت عن عالم المصريات بريستيد الذى قال : (جدير بنا ألا ننسى الحقيقة المتفق عليها الآن ، وهى أن الدين فى طوره الأول لم تكن له علاقة بالأخلاق ، كما نفهمها الآن ، كما أن المبادئ الأخلاقية الأولى لم تكن سوى عادات شعبية ، قد لا تكون لها علاقة بالشعور بالآلهة أو الدين ، وقد كانت مظاهر الطبيعة أول ما أشعر المصرى بوجود الآلهة ، مثله فى ذلك مثل الشعوب الأخرى القدامى ، فكانت الأشجار والينابيع والأحجار وقمم التلال والطيور والحيوانات فى نظره مخلوقات مثله ، أو مخلوقات حلّت فيها قوى طبيعية غريبة ، لاسلطان له عليها ، ومن ثم كانت الطبيعة أول مؤثر مبكر فى عقل الإنسان ، فوصف له العالم الظاهرى أولا بعبارات دينية رهيبة ، وصارت مظاهر الإلهية الأولى فى نظره هى القوى المسيطرة على العالم المادى . . وكان أبعد ما يتوهمه عُبّاد إله من هذه الآلهة أن إلههم يحمل فى نفسه فكرة الحق أو الباطل ، أو أنه يرغب فى وضع هذه المطالب على كاهل عباده الذين كانوا يرون من جانبهم أن غاية مايطلبه إلههم منهم هو تقديمهم القرابين زُلفى له ، كما كانوا يفعلون لرئيسهم المحلى سواء بسواء . . على أن أمثال هذه الآلهة كانت فى جملتها آلهة محلية ، كل منها معروف لدى منطقة معينة فقط ، ولكن كثيرا ما كان يمتد الاعتقاد فى إله ما إلى جهات بعيدة فى العالم القديم ، بسبب الهجرة أو انتشار السكان) .

(وتدل المصادر التى وصلت إلينا على أن الوازع الخلقى قد شعر به المصريون الأقدمون قبل أن يوجد الشعور به فى أى صقع آخر ، فإن أقدم بحث عن «الحق والباطل» فى تاريخ الإنسانية عثر عليه فى ثنايا مسرحية «منفية» ، تُشيد بعظمة مدينة منف وسيادتها ، ويرجع تاريخها إلى منتصف الألف الرابع ق.م) .

(ويدل شكل هذه المسرحية بداهة على أنها بحث فى أصول العالم ما بين ديني وفلسفى ، وهى من تأليف طائفة من الكهنة فى المعابد المصرية ، غير أن موضوعها لم يتناول ماكانت عليه حالة الشعب المصرى بأسره فى ذلك الحين) - فجر الضمير ص ٣٧ / ٣٨ .

إذا كانت مسرحية منف أقدم تناول للحق والباطل فهى دليل على أن الحكم على ثلاثة آلاف عام قبلها - بدون نصوص موثقة - يهدم نظرية أن مصر أسبق الحضارات القديمة فى معرفة الحقوق والواجبات ، وفى الالتزام بالحقوق والواجبات ، كما قرر بريستيد ص ٣٣ .

وإذا كانت مصر شاركت العالم القديم فى التعرف إلى الإله أو الآلهة من خلال المظاهر الطبيعية ، فإن هذا الإله أو هذه الآلهة ، إذا لم تكن متصفة بالحكمة والعدل والتمييز بين الحق والباطل - فقدت مصداقيتها ، لأن التوجه إلى اللّٰه بالدعاء وبالصلاة وبالقرابين رهن بانتصافه للمظلوم من الظالم ، وبالأمل والرجاء فى أن يفرج الكرب ويكشف الغمة ، ويكون خير عون وسند ، ومادامت الآلهة مرتبطة بالمظاهر الطبيعية ، والمظاهر الطبيعية ليست ملكًا لفرد أو أفراد ، بل إنها تملك قوى (متعالية) غير متميزة ، فإنها - دون شك - لاتميل ولا تنحرف ، فإذا حكمت فى أمر من أمور البشر التزمت المثل الأعلى والخير العام . . ومن ثم ما كان لمخلوق أن يطلب عون إلهه إلا فى العدل . . ومن هنا تتجلى القيم الأخلاقية فى أكمل صورها ، حين يقف العبد من إلهه موقف الابتهال والضراعة ، فأكثر مايكون التوجه إلى الله ، حين يجور الإنسان على الإنسان ، أو حين يطغى ويستبّد ، وما أكثر مايحدث هذا ، بل وقد يحدث الجور فى موقف الإنسان الإله ، فيطلب ما ليس له ، أو يدعى نسبا بالإله ، أو يهرطق هرطقة فى وجه الإله ! !

ثم إن وقوف الإنسان عند الرموز الأسطورية التى تؤكد ارتباط المعتقد بالمظاهر الطبيعية (بداية) ، قد يتحول بهذه (الرموز) إلى أغشية تغشّى المعتقد بتقادم الملة . . وقد أصيبت أديان سماوية بهذه الأغشية فى أكثر من مرحلة من مراحل تطورها ، وما زالت اليهودية والمسيحية والإسلام تحمل من أعباء هذه الأغشية .

* ويقول بريستيد : (نجد مرسومًا على جدران معبد الأقصر قصة ولادة «أمنحوتب الثالث» فى مناظر محفورة ، يرجع تاريخها إلى أواخر القرن الخامس ق . م . . نجد الأمير الطفل أمنحوتب محمولاً على ذراع إله النيل ، تتبعه صورة طفل آخر ، وهذه الصورة التى تنطبق تمام الانطباق - فى شكلها الظاهر - على صورة الأمير هى الكائن الذى يسميه المصريون الأقدمون «كا» وهو نوع من الملائكة سام ، كان الغرض منه على الأخص إرشاد المتوفى إلى ماقُدر له فى الحياة الأخرى ، التى يجد فيها كل متوفًى من المصرين ملاكه «كا» فى انتظاره) - فجر الضمير ص٦٧ .

وهذا تصور مرتبط بجذر سماوى ، يتحدث عنه الإسلام فى صورة (رقيب وعتيد) ، وفى صورة (قرين) أيضًا ، كما ورد فى سورة (ق ١٨ و٢٣) ، إذ يصحب المتوفى يوم القيامة (قرينه) ، ويقول : «هذا ما لدىّ عتيد . . ربنا ما أطغيته» .

وإذا كان (الكا) أو (البا) - كما ورد فى أكثر كتب المصريات ، دون قدرة على التمييز بينهما - يمثل (الروح) المفارق للميت (إلى حين) ، فهو جذر سماوى كذلك ، سواء أخذ شكل طائر أو لم يأخذ ، وسواء تردد عليه فى قبره أو لم يفعل .

يقول (إرمان) عن علاقة (الكا) بصاحبها :

(المعتقد أن «الكا» تشبه صاحبها تمامًا ، وقد ورد أنه عندما خلق إله الشمس- فى بداية نشأته - أول إلهين ، وذلك بعد أن تفلهما - أى نطق بلفظ «كن» - فقد «وضع ذراعيه من ورائهما» ، ففاضت عليهما «الكا» التى كانت له ، ودبت فيهما الحياة ، ومن ثم كان الذراعان الممتدان رمزًا «للكا» ، منذ أقدم الزمان ، فإذا مات الإنسان هجرته «الكا» ، على أنها تكون قريبة منه ، لتبادر إلى مساعدته إذا دعاها ، وقد ورد فى نص : «إنك تعيش سعيدا أبدًا ، وبجانبك الكا التى لك ، إنها لن تهجرك أبدًا») - ديانة مصر القديمة ص ٢٣٦ .

وهذا التصور لبث الروح لايبعد كثيرا عما جاء فى القرآن الكريم : ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ - ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ .

ولأنه من روح اللّه فهو خالد ، وإن حارت البرية فى تحديد كنهه ، سواء عند فلاسفة الغرب أو فلاسفة الشرق ، وماأكثر حيرة الإسلاميين فى أمره ، مع أن اللّه - سبحانه - نهى عن البحث فى هذا الأمر ، لأنه لاطائل من ورائه ، ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا ﴾ .

وما تزال ذاكرة (الشعب) تتحدث عما صنع الزمن بموروث (الكا) ، فإذا هى (قرين) من الجن ، (يؤاخى) الإنسان ويحميه ، فإذا فهمنا من لفظ (الجن) دلالة (الخفى) الذى لايرى ، فقد وقفنا عند حدود الفهم المصرى القديم ، ولعل منه قوله سبحانه : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ .

* أما ماهو عن (بعث أوزيريس للحياة من جديد ، بأن ضمت الآلهة عظام أوزيريس ، ثم ضمت رأسه إلى عظامه ، فكذلك بالنسبة للميت ، «إنها تعطيك رأسك ، وتجلب لك عظامك ، وتجمع لك أعضاءك ، وتضع قلبك فى جسدك» . و «روحك الممجدة وعافيتك تأتيان إليك كأنك إله» ، وستصاحبك من جديد «الكا» التى لك و «تأتى لك حياتك ، وتأتى لك روحك الممجدة») .

(إن «رع» و «حورس» ينصبان لك سلما « يقف أحدهما على هذا الجانب ، ويقف الآخر على ذلك الجانب » ، ومن ثم « ترقى عليه إلى السماء ، ويفتح لك باب السماء ، وتنزع لك المزالج الكبار ، فتجد رع واقفًا ، فيأخذك من يدك ، ويقودك إلى قصر السماء ، ويجلسك على عرش أوزيريس ، لتتولى حكم الممجدّين) .

(وهكذا يتم البعث لحياة حقيقية جديدة ، « فلهم قلوبهم ، ولهم أرواحهم ، ولهم أفواههم ، ولهم أرجلهم ، ولهم أذرعهم ، ولهم سائر أعضائهم) .

(والأوراد التى تتحدث عن البعث كثيرة ، فى أقدم ماحفظ لنا من أدب جنازى) - ديانة مصر القديمة ص ٢٤٧ / ٢٤٩ .

هذه الصورة التى تحدث عنها (إرمان) لاتكاد تبعد عن قصة إبراهيم مع الطير ، حين قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيفَ تُحىِ المَوتَى ﴾ .

وفى جدال الله للكافرين الذين أنكروا البعث بقولهم : أئذا متنا وكنا ترابا

وعظاما ، أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ؟! فكان رده سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ .

وبين الله سبحانه أن الذى أنشأهم أول مرة قادر على النشأة الآخرة ، ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

فالحديث عن (البعث) ليس مجرد فكر مصرى ، بل هو من أفق سماوى ، ضَفَّرته الأيام بضفائرها .

ديانـــــة عالميـــــة

- ١ -

سبقت الإشارة إلى حرص الفاتحين المصريين على بناء معابد مصرية فى البلاد المفتوحة ، لتُعين على توطيد الوجود المصرى ، كما تفعل الدول الكبرى اليوم بترويج لغتها وثقافتها ، لتكون وسيلة لتثبيت الوجود السياسى والاقتصادى .

وكان بعض الفاتحين المصريين يستعين ببعض آلهة البلاد المفتوحة كسبًا لمودتها ، وعدم إشعارها بوطأة الغزاة ، بالإضافة إلى المصاهرة ، وإلى تربية أبناء ذوى النفوذ ، فى تلك البلاد (الأجنبية) ، مع أبناء الملوك والأمراء المصريين ، ترويضًا لهم على حب مصر والولاء لها ، وهو مايجرى حتى الآن من البلاد المستعمرة مع البلاد المتخلفة ، أو التى تخضع لمشيئتها .

ونتيجة هذه السياسة (الواعية) كان يعبد فى واحات الصحراء الغربية - فى الزمن القديم - الإله «آش» الذى كان يشبه « ست عند المصريين ، ثم حَلّ محله «ست» و «سوتخ» . . وفى الدولة الحديثة أصبح «آمون » الإله الرئيسى فى معابد الواحات .

وقد خلعت الصحراء على معابدها مزيداً من القداسة ، فللعزلة والوحشة واتساع الأفق وروعة ورهبة الطبيعة الصامتة ، مايولّد أشباحًا وأرواحًا ، وينشر خلف كل شئ من الأسرار والأحاجى ، مما أعان كهنة هذه المعابد على اتخاذ طقوس غريبة ، ومسوح غير مألوفة ، وادعاء قدرات لايسهل فى غيرهذا المناخ تصديقها .

عندما قدم الإسكندر الأكبر إلى مصر سنة ٣٣٢ ق . م راقه الذهاب إلى سيوه ، ربما ليضع (سلة الغلال) فى ميزانه ، وإن كان التاريخ يتحدث عن وقوعه فى أسر الكاهن الأعلى الذى سحره بنبوءاته ، ثم ألبسه تاج آمون ، ليصبح الإسكندر ذا القرنين ، وليكون ابن الإله .

وقد شيد تحتمس الثالث - فى أحد حصون بلاد النوبة الذى يسمى (نحر الشعوب الأجنبية) - معبداً لآمون رع ، معبود الكرنك .

وإلى جانب «آمون رع» انتقل إلى بلاد النوبة الإلهان المصريان «بتاح» و«رع حراختى» ، وكذلك «إيزيس» و «حتحور» ، وقد أضيفت إليهم من ملوك مصر آلهة كذلك ، مما أعان على أن تصير النوبة جزءاً من مصر ، محكوماً بدينها وتاريخها ومصيرها .

وفى عهد رمسيس الثانى شيدت المعابد الكبيرة فى أبو سمبل ، وجرف حسين ، وبيت الوالى ، والدرّ ، وغيرها .

وقد حصل كهان هذه المعابد على أوقاف ودخول مناسبة ، أعانت على إعالة كثير من فقراء النوبة .

وكان الحاكم الحقيقى لبلاد النوبة هو « آمون نباتا » برأس الكبش ، وبوحيه كان الملك يُختار أو يُعزل أو يؤمر بموته ، وبأمره خرج الملك لاستخلاص الأراضى المصرية المقدسة من الأيدى النجسة .

وكانت منطقة الحدود بين بلاد النوبة ومصر ، مما يلى الشلال جنوبا ، تدين فى بداية الأمر للإله العظيم «خنوم» ، الذى كان يحمى منابع النيل فى إليفانتين - ديانة مصر القديمة ص ٣٩٠ / ٣٩٦ .

* ثم سيطر الثالوث الأوزيرى (أوزيريس - إيزيس - حورس) على العقيدة المصرية ، فصارت تصنع له التماثيل الصغيرة الدقيقة التى يحملها المصرى معه أينما ذهب .

وقد تجاوز هذا الثالوث حدود مصر إلى بلاد الإغريق والرومان ، وإلى الهند

وبلاد الغال (فرنسا) ، وظلت طقوس عبادة أوزيريس حتى بعد ظهور المسيحية بأكثر من أربعة قرون .

لكن إيزيس كانت الأقرب إلى الوجدان المصرى ، إذ كانت تتفرد بحمايته فى رحلته الشاقة إلى العالم الآخر ، ومن ثم تحتل مكانة كبيرة فى (كتاب الموتى) – كتاب الموتى ص ٢٥١ / ٢٥٢ .

هذا إلى أنها كانت الواهبة الأولى للحياة ، فى مجمع الآلهة ، مرتبطة بالنيل وبمياهه التى تمنح الحياة ، ففى الموكب السعيد الذى كان يقام احتفالاً بالفيضان السنوى ، كان يحمل عاليا من مياه النيل ملء كوب فى إناء إيزيس الذهبى ، وكان يغنى فى مدحها ترنيمة تقول : (بقوتك تمتلئ كل فروع النهر) ، و (يامن تأتين بالنيل ذى التيار الذهبى ، وتقودينه فى موسم الفيضان ، فوق أرض مصر ، لتدخلى البهجة على البشرية) – مصر الرومانية ص ١١٣ .

وقد انتشرت عبادتها فى كل عالم البحر المتوسط ، وكانت روما مركزًا رئيسًا لها .

يسجل كتاب دينى وجد فى أوكسير نخوس قائمة بالهيئات والألقاب والسجايا والمخصصات والتشبيهات التى عرفت بها (هذه الإلهة ذات الأسماء المتعددة فى أماكن متعددة فى الوطن وفى الخارج) ، ويكفى قدر ضئيل من الاقتباس لإعطاء أمثلة على ١٥٠ اسمًا ولقبًا فى أكثر من مائة مكانة ، مدونة بقوائم .

وقد لاحظ ديودور الصقلى ذلك ، فقال : (إن نفس الإلهة يسميها البعض إيزيس ، والآخرون يسمونها ديمتر ، والبعض يسميها مانحة القانون ، وسيلين ، وهيرا ، والبعض يدعونها بهذه الألقاب مجتمعة ، وأطلق البعض على أوزيريس ديونيسيوس ، والبعض الآخر أطلقوا عليه بلوتو أو آمون ، وعدد قليل يسمونه زيوس ، والكثيرون يسمونه پان Pan) – مصر الفرعونية الرومانية ص١٠٤ / ١٠٥

ويقول إرمان ، مستعينًا بنص كشف فى مصر ، من القرن الثانى الميلادى :

(من روما وإيطاليا إلى الهند وفارس ، ومن البحر الأسود إلى البحر الأحمر ، كانت السيادة فى كل مكان للإلهة «ذات الأسماء العديدة» ، فستون بلدًا وقطرًا وشعبًا كانوا يعبدونها على أنها «الفضلى ، الجميلة ، الطاهرة ، المقدسة ، المتصوفة ، حبيبة الآلهة» ، وفى روما ، وعند الأمازونيين كانت تعبد على أنها «محاربة» ، وفى بامبيكى فى سوريا على أنها «أترجاتس» ، وفى كريت على أنها «دكتينّس» ، وفى صيدا على أنها «عشترتى» ، ولها المعابد « فى المدائن جميعا ، شيدت لكل الأزمنة ، وقد تركت للجميع القوانين، وهى تريد أن يرتبط الرجال والنساء معاً» ، وقد أعطت هؤلاء ذات القوة التى أعطتها أولئك ، وهى «الإلهة ذات الشكل الجميل فى أولمب ، زينة النساء ، المحبة ، الرءوف» ، وإن العالم يدين لها بالنبيذ ، فهى أول من أحضره فى أعياد الآلهة ، وهى التى «تقود الشمس ، منذ شروقها إلى غروبها» ، لبهجة جميع الآلهة ، وجميع الكائنات الحية ، وهى التى « تجلب فيضان الأنهار ، وفيضان النيل » فى مصر ، وهى النهر الكبير فى أفريقيا ، والكنج فى الهند ، وبفضلها يحيا كل شئ ، عن طريق الأمطار والينابيع والطل والثلج ، ولها السلطان على الرياح والرعود والبروق والعواصف الثلجية) - ديانة مصر القديمة ص ٤٨٣ .

ويقول إرمان : (إننا لنجد فى أفريقيا الشمالية ، وفى أسبانيا ، وفى الدانوب ، وفى فرنسا ، وحتى فى انجلترا نفسها - نقوشًا تكرم فيها إيزيس ، وسيرابيس ، وكان لإيزيس ربوعها كذلك فى مناطق جبال الألب ، وفى ألمانيا . . ويقرر أحد المصادر المسيحية - فى تقريع - أن نونسبرج ، جنوب بوزن ، كانت كأنها إسكندرية ثانية ، ملأى بأنوبيس ذى الشكلين ، وبصور نصف إنسانية ، ذات أشكال متعددة . . ملأى بحماقات إيزيس واختفاء سيرابيس . . إلخ) .

(وهكذا سادت عقيدة إيزيس فى كل مكان فى أوربا ، وقد كان سلطانها ينمو على الدوام ، حتى نهاية القرن الثانى ، عندما أخذت عقيدة متراس الفارسى تنافسها) .

(وإنا لنجد فى أثينا - فى منتصف القرن الرابع - قبراً لكاهن إيزيس ، دفنت معه فيه الأدوات من الفضة التى كان يستخدمها فى المعبد) .

(وفى المحاولات الأخيرة فى إحياء الوثنية المختصرة ، كان للعقيدة المصرية دورها أيضًا ، فكان چوليان يكرم الآلهة المصرية) .

(وفى عام ٣٩٢ - عندما قام أربو جاست الفرنجى بتنصيب أوريجين على العرش ، وأتاح للأرستقراطية الوثنية نصرًا قصير الأمد - لم تُنس كذلك عبادة إيزيس) .

(وفى عام ٣٩٤ احتفل نيكوماك فلافيان - باعتباره قنصلاً - بآخر الأعياد الرسمية فى روما ، تمجيدًا لماجناماتر وإيزيس) .

(وفى القرن الخامس عشر عمد المتصوف أسكلبيادس إلى الإقامة فى مصر ، ليدرس التعاليم المقدسة من مصدرها ، وقد نظم الأناشيد للآلهة المصرية ، وألف كتابًا فى الديانة المصرية) - ديانة مصر القديمة ص٤٨٧ / ٤٨٨ .

ويلاحظ أن غزو آلهة مصر لأوربا تمّ من قبل فتوحات الإسكندر بزمن طويل .

(فى حوالى سنة ٤٥٠ ق.م جاب هيرودوت مصر ، ولاحظ أن الألهة المصرية ليست شيئًا آخر غير آلهته الخاصة ، فأزويريس وإيزيس هما ديونيسيوس وديمتر ، وحورس هو أبوللو ، وست عدو الآلهة إنما هو تيفون الجبار ، ونيت إلهة سايس إنما هى أثينا ، ومين هو پان ، وآمون هو زيوس ، بل إن باستت ذات رأس القطة تتفق مع أرتميس) .

(ويذكر عن أبيس الذى شاهده فى فناء أمام البوابة الجنوبية لمعبد بتاح ، أنه ينشأ من شعاع من السَّماء ، وأنه أسود ، وأن على جبينه غرة مربعة ، وعلى ظهره صورة نسْر) - المصدر السابق ٣٧١ .

وفى نقوش المقابر القديمة فى شمالى سوريا ، فى الألف سنة قبل الميلاد ، نجد عادة دفن الجثة فى تابوت ، أو فى تابوتين لحمايتها .

كما أن أحد النصوص المصرية القديمة جدًا يدل على أن الجثث كانت تحنط فى كريت كما فى مصر .

وإلى الشرق من بحيرة طبرية صخرة منعزلة ذكر أن أيوب اعتمد عليها ، وقد مثل عليها رمسيس الثانى وهو يمجد إلها متبرراً .

وقد افتخر رمسيس الثالث بأنه شيد فى فينيقيا معبداً لآمون ، كان «بيتًا مليئًا بالخفايا والأسرار ، وكان يشبه الأفق السماوى الذى فى السماء» ، وكان اسمه «بيت رمسيس فى كنعان» . . ووضع الملك كذلك تمثالاً كبيراً لآمون يستقر فيه ، يسمى «آمون رمسيس ، تأتى إليه شعوب سوريا بتقدماتها ، لأنه إلهى» .

وقد أصبحت الأختام فى تلك البلاد تحمل صور الآلهة المصرية . كما أصبحت المقابر تحلّى على الطريقة المصرية .

وكانت «حتحور» تسمى «سيدة جبيل» ، وكانت حامية الملاحين ، وإن كانوا لايبحرون إلى جبيل ، وكان آمون يعبد فى جبيل فى الدولة الحديثة - ديانة مصر القديمة ص ٣٨٧ / ٣٨٩ .

ولأن مصر كانت ملتقى طرق تجارية عالمية برية وبحرية ، فقد ارتحلت الحضارة المصرية ، أو بعض معالمها إلى أقصى مكان يقع فى الحسبان ، فى سالف العصر والأوان .

يروى الدكتور ميلاد حنا عن مقابر أسرة مينج (١٤٠٩ - ١٦٤٤م) ، التى تقع على بعد نحو خمسين كيلو مترا فى اتجاه الشمال الغربى من العاصمة بكين ، ويسمونها (مقبرة الـ١٣ إمبراطوراً) ، يقول :

(عندما نزلت إلى المقبرة ذاتها ، وجدت نفسى أربط بينها وبين مجموعة مقابر الملوك بالبر الغربى ، بمدينة الأقصر ، وكيف أن كلا منهما منحوت فى قلب الجبل ، وأخذ نحتها عشرات السنين ، وكان منظر الحجرة الجنائزية والتابوت من الحجر متماثلاً فى مصر والصين إلى حد كبير) . . بل إن طريق الكباش بين معبدى الأقصر والكرنك يماثل الطريق من البوابة الرئيسية إلى مقابر أسرة مينج ، حيث أنشئوا على جانبى الطريق تماثيل لبعض الحيوانات المشهورة لديهم ، مثل الجمل والفيل والزرافة وغيرها - الأعمدة السبعة للشخصية المصرية ص١٦ .

وهذا التشابه قد يكون منبثقاً عن طبيعة الجبل الذى نحتت فيه المقابر ، وقد

يكون بسبب الاتصال الفكرى ، بعد أن كثر الرحالة والمغامرون ، وبعد اتساع المد الإسلامى .

- ٢ -

كان للديانة المصرية منافسوها فى أوربا القديمة ، غير أنه لم يقدر «للأم العظيمة» فى آسيا الصغرى ، ولا «لمثراس» إله الشمس عند الفرس ، ولا لإله اليهود ، أن ينتزع أى منهما الأسبقيّة من الآلهة المصرية ، ذلك لأن الإجلال الغامض الذى كان يحس به المرء نحو هذه البلاد ذات الحضارة القديمة والآثار العجيبة ، وماصاحب المعابد الضخمة ، وأكواخ القصب ، والتماسيح ، من حكمة عميقة قديمة ، وماعرف من أن زعماء الفكر الإغريقى قد تلقوا تعاليمهم عن الكهنة المصريين ، وتلك الطقوس الخفية التى كانت تؤدى فى أعياد إيزيس وسرابيس ، والتى توحى - بطريقة مدهشة - بأفكار سامية طاهرة ، ثم ماوقر فى الأذهان من أن الديانة المصرية تقدم لأتباعها عزَاء فى كافة الأزمات ، وتمنحهم الإيمان بحياة أخرى أفضل ، يقضونها فى مملكة أوزيريس . . لكل هذا لم تكن عبادة الآلهة المصرية عبادة سطحية جوفاء . كما كانت عبادة الآلهة الرومانية ، بل كانت ديانة حقيقية ، تملأ قلوب البشر ، وتسمو بهم ، وكان كاهن إيزيس الفقير فى قميصه من الكتان يهيئ للنفس ماكانت تصبو إليه من امتلاء روحى .

ومن ثم استشعرت الدولة الرومانية الخطر عليها من معابد إيزيس .

فى الفترة مابين (٥٩ - ٤٨ ق . م) قامت الدولة الرومانية خمس مرات بتدمير معابد إيزيس ، وحرم أغسطس بناء شئ منها داخل روما ، وصلب تيبريوس الكهنة ، ودمر معبدهم ، وألقى بتمثال الإلهة فى نهر التيبر .

لكن كاليجولا أقام معبداً كبيراً لإيزيس فى حقل مارس ، زاد فيه دوميتان .

وبعد مائة عام أصبحت إيزيس وسيرابيس يسميان «الإلهان المصريان قديما والرومانيان الآن» .

وبذلك سادت الديانة المصرية أنحاء واسعة من العالم ، وقد ساهم هادريان كثيراً فى هذا المجال ، فقد زار مصر ومعه الإمبراطورة ورجال البلاط ، وكان من المتحمسين لهذه البلاد ولآلهتها .

ولعل فترة العداء لآلهة مصر كانت بسبب الحروب التى نشأت بين القادة

الرومان ، بسبب طموحات كليوباترة . مما أدى إلى انقسام الأسطول الرومانى بين أنطونيوس وأكتا فيوس - ديانة مصر القديمة ص ٤٦٧ / ٤٦٩ .

* ومن الأناشيد التى كانت تمجد إيزيس فى الدولة الرومانية الشرقية بخاصة :

(أيتها القديسة ، أيتها الحامية الأزلية للإنسان ، يامن تعنين بهم فى سخاء ، وتزودينهم بعطفك الأبوى ، إن أصابتهم محنة ، لايمضى يوم ، بل ولا لحظة ، لاتفيضين فيها عليهم من الخيرات ، ولاتحمين فيها البشر فى البحر والبر ، ولا تمدين فيها يد النجدة لأولئك الذين تدقهم عواصف الحياة . . إنك تسكّنين عواصف القدر ، وتخيفين الحركات المؤذية للنجوم) .

(إن أهل السماء يقدسونك ، وسكان العالم السفلى يخدمونك ، إنك لتديرين الأرض ، وتنيرين الشمس ، وتحكمين العالم ، وتجوبين تارتاروس ، وإن النجوم لتجيبك ، والأزمان صائرة إليك ، وإن الآلهة لتحبك ، والعناصر تخدمك ، بأنفاسك تهب الريح ، وتخصب السحب ، وينبت الحب ، وينمو الحب ، وينمو النبات) .

(أمام جلالتك تخشع الطيور التى فى السماء ، والحيوانات المتوحشة التى تهيم فى الجبال ، والأفاعى التى تختبئ فى الثرى ، والمردة التى تسبح فى البحر) .

(إنى أضعف من أن أستطيع مدحك ، وأفقر من أن أقدم إليك القرابين ، إنه ليعوزنى البيان البليغ للتعبير عما أشعر به نحو جلالتك ، وإنه لينبغى أن يكون لى - لأداء هذا الواجب - ألف فم ، وألف لسان) - المصدر السابق ص ٤٨٦ .

وقد وجد فى كيوس - فى بثنيا - أنشودة تقول :

(يامليك مافى السموات جميعا إنى / أحييك يا أنوبيس «حورس» ، ياأزلى / ووالدك أوزيريس المقدس ، المتوج بالذهب / إنه زيوس الكرويندى ، إنه آمون القوى / الملك الخالد ، ذو الاحترام السامى على نحو سيرابيس / وأنت كذلك أيتها الإلهة المقدسة ، أيتها الأم إيزيس ، ذات الأسماء العديدة / يامن

ولدتها السماء على أمواج البحر المتلألئة / وأنشأتها الظلمة على نحو النور لسائر البشر / يامن تحمل الصولجان على جبل الأولمب ، بصفتها أكبر الجميع سنا / وتحكم الأرض والبحار كسيدة إلهية / يامن ترين كل شئ ، إنك تهبين البشر خيرا كثيرا) - المصدر نفسه ص ٤٧٤ .

*وتتحدث نصوص النذور عن تقدمات قيمة ، من معادن ثمينة ، ثعابين مرصّعة بأحجار كريمة ، وشخاليل وصحاَف من فضة .

وقد أهدت سيدة أسبانية إلى إيزيس أدوات من فضة تزن أكثر من سبعين رطلا ، علاوة على ثعبان مرصع بكثير من الأحجار الكريمة وحلى أخرى .

وقد تقرب ج. مناتيوس فى مالسين ، على بحيرة جاردا ، إلى إيزيس ببناء معبدها ، وشيد مبنى آخر أمامه ، وفى بنفنت شيد لوسليوس (قصراً فخمًا من أجل إيزيس العظيمة ، سيدة بنفنت ، ورفاقها الآلهة) ، وأقام مسلتين من الجرانيت الأحمر أمامه ، وكتب على القصر وعلى المسلتين بالهيروغليفية ماينبئ بذلك ، وأن هدفه أن تمنحه عن عمله هذا (حياة طيبة سعيدة) - المصدر نفسه ص٤٧٥ .

وقد احتفظت الشعائر اليومية العادية فى المعابد الأوربية لإيزيس بالصيغ القديمة التى كانت لها فى مصر ، ففى الصباح الباكر كان مرتّل المعبد يخطو عتبة المعبد ، ويوقظ الإله ، باللغة المصرية القديمة ، بنفس أنشودة الصباح : (إنك تصحو فى سلام ، وصحوك لطيف) ، التى كانت تنشد آلافا من سنين خَلَت ، لمثل هذا الغرض ، ثم كانت تلى ذلك الشعائر المعتادة القديمة ، من تطهير الإله بالماء ، وتبخيره ، وتكسيته ، وتزيينه ، وإطعامه .

وكما كان فى مصر ، كان هناك رؤساء كهنة ، وعرافون ، ومشرفون على لباس الإله ، وعلى المظاهر الخارجية للعبادة ، وكاتب ، ومجمع مقدس من حملة الناووس ، وكانت النساء تأخذ بنصيب فى العبادة ، على نحو ماكان فى مصر .

وكان من الأعياد الكبيرة لإيزيس عيد نوفمبر الذى يظل ثلاثة أيام ، يمثل فيه

موت أوزيريس ، والبحث عن جثته ، ثم العثور عليه . . أما احتفال مارس الكبير فيبدأ بموكب ، في ملابس تنكريه متنوعة ، من بينها الجندى والصياد والمبارز والفيلسوف وحمار ودبةّ وقرد ، فإذا استوفى الشعب متعته بهذه المساخر المضحكة يشاهد موكبا من نساء كاسيات بأثواب بيض ، ومتوجات بأزهار الربيع ، ينثرن زهراً فى الطريق ، ويسكبن عطراً ، أو يحملن أنشاطا ومرايا يحركنها كأنهن يزين ضفائر الإلهة .

ثم يتلو ذلك رجال ونساء معهم مصابيح ومشاعل ، ثم يأتى الموسيقيون ومعهم المزامير وجوقة من مغنين شبان ، فى ملابس بيضاء ، يغنون أغنية نظمت لهذه المناسبة . . ويتبع هذه الموسيقى الحديثة فرقة الموسيقى القديمة المقدسة ، على رأسها عازف الناى لسيرابيس . . ويتبع هؤلاء جميعا الكهنة ، يحملون المصابيح والمذبح وأدوات أخرى مقدسة . . وتليهم الآلهة ، يتقدمهم أنوبيس ، ثم القرابين .

ويتجه الجميع شطر البحر ، حيث تقف على أهبة الاستعداد سفينة جميلة محلاة بصور مصرية .

ويتلو رئيس الكهنة (بفَم عفّ صلاة تقية) ويطهر السفينة ، ويكرسها للإله ، ثم ينصب السارى ، ويفَرد الشراع ، ويسكب الجمهور العطور فى السفينة ، وبعد ذلك تقطع حبال السفينة التى يتبعها الناس بأنظارهم حتى تختفى ، ثم يعود الموكب إلى المعبد ، ويدخل الكاهن والمكرسون غرفة الإلهة ، وبعد ذلك يخرج كاتب المعبد ، ويهتف للإمبراطور ومجلس الشيوخ والشعب الرومانى والبحارة وسفائنهم ، فيهلل الشعب ، ويُقبل قدمى تمثال الإلهة - المصدر نفسه ص ٤٧٩ / ٤٨١ .

* ويلاحظ أن كثيراً من التراتيل التى تنشد لحورس تشبه - بشكل فذ - التراتيل المسيحية ، فى روحها ، وعباراتها ، ذلك لأن المسيحية تربْت فى حجر الديانة المصرية القديمة ، بصورة أو بأخرى ، فهذه التراتيل الجميلة التى مطلعها (ياشمس حياتى ، يأيها المخلص العزيز) كانت تغنّى لحورس فى مصر يومًا ما .

وإن عبادة سيرابيس التى انتشرت انتشاراً عظيمًا فى جميع أقطار العالم المُمَدَّن ، فى القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد - ترى فيها أعجب الطلائع والظواهر المؤذنة بعادات وطرق العبادة التى قُدّر لها أن تتسلط على العالم الأوربى ، طوال الحقبة المسيحية .

على أن ثياب الطقوس والرمز والصيغة الاصطلاحية التى اتخذتها المسيحية ، ومابرحت ترتديها إلى يومنا هذا ، فى كثير من الأقطار ، قد نسجت - ولامراء - فى عقائد ومعابد چوبتير وسيرابيس وإيزيس ، التى انتشرت عند ذلك من الإسكندرية إلى كافة أصقاع العالم الممدن ، فى القرنين الثانى والأول ق . م - معالم التاريخ الإنسانية ص ٤٦٩ .

ومع هذا ، حين قويت شوكة المسيحية ، وبخاصة بعد تأييد الإمبراطور قسطنطين لها فى القرن الرابع ، سعت المسيحية للاستئثار بالأرض التى انتشرت عليها ، فحاربت اليهودية حربًا شرسة ، كما واجهت كل المظاهر الوثنية فى المعابد اليونانية والرومانية والمصرية .

وفى الإسكندرية التى تبنّت الأرثوذكسية المسيحية حدث هجوم على معبد سيرابيس سنة ٣٩١ ، وكان البابا شنودة قديس الأقباط الكبير يشيد بأنه دمر بنفسه معبد أثريب بجوار ديره ، وكان هذا الصنيع قدوة للآخرين ، وقد توسل الوثنيون إليه أن يبقى على معبدهم ، لكنه طاردهم ، وأباح كل شئ فى المعبد للنهب ، ثم حمل إلى ديره منه غنيمة ثمينة من أوان وتماثيل مقدسة وأسفار .

وقد أشاع المسيحيون أن كهنة أحد الآلهة ، ويدعى كونوس ، يسرقون أطفالهم ، ويذبحونهم ، ثم ينثرون دماءهم على المذابح ، ويصنعون من أمعائهم أوتارا لقيثاراتهم ، فثار القديس مكاريوس التكوى ، وهدم معبدهم ، وأحرق بنفسه الإله كونوس وكاهنه الأكبر هوميروس . . وكان أن تنصّر فى اليوم نفسه كثير من الوثنيين خوفًا ، ولاذ كثيرون بالفرار ، فاحتل المسيحيون ديارهم - ديانة مصر القديمة ص ٤٦٢ .

واستمر تخريب المعابد المصرية على يد المسيحيين ، مع أن بعضها كانت ملاجئ لهم ، هروبًا من العسف الرومانى ، وبخاصة أيام دقلديانوس .

الحضـــــارة المصريـــــــة

\- ١ -

فيما يذكرون أن التطور الإنساني استغرق ما لايقل عن مليون سنة ، حتى أمكن الوصول إلى العصر الذى اتخذ فيه الإنسان أدوات تعينه على تيسير الحياة ، سواء من الحجر أو من الشجر ، ثم من الحديد أو البرونز .

وثمة تطور فزيولوجى يقول إن إنسان ماقبل التاريخ الذى كان يعيش فى شرقى آسيا ، قريبا من بكين الحالية ، كان مخّه أكبر من مخ الصياد الذى عاش فى أوربا ، فى وقت لاحق بمقدار ثلثيه - فجر الإسلام ص ١٧ و ٢٦ .

وكل هذه وغيرها (تهويمات) لاتمت إلى العلم إلا من خلال كونها فروضًا ، ترجع بأولية الإنسان إلى خمسة عشر مليون عام ، أو إلى خمسة ، أو إلى مليون ، وتعود بنشأة الحضارة إلى خمسة عشر ألف عام ، أو إلى عشرة ، أو إلى خمسة .

ويستندون فى هذه (التهويمات) جميعا إلى (نقوش) أو أدوات ، أوبقايا إنسان وجدت هنا أو هناك ، مع أن هذه النقوش والأدوات وبقايا الإنسان التى تم العثور عليها لاتنفى أن ثمة ماهو أقدم وأكثر دلالة لم يتم العثور عليها .

وإذا كان القرن العشرون بعد الميلاد قد بلغت فيه الحضارة الإنسانية شأوا بعيداً ، حتى تم الحصول على أقوى الطاقات قدرة على التخريب والبناء - فإن استخدام هذه الطاقات فى حرب كونية تقضى على المعالم الحضارية الحالية ، يفتح الطريق أمام علماء يعثرون على مخلفات الإنسان الذى يعيش الآن فى

مجاهل استراليا ، أو فى غابات الأمازون ، أو فى وسط أفريقيا ، حيث الجبال والمستنقعات والصحارى الشاسعة ، ويكون الحكم على الإنسان من خلال هذه المخلفات حكما على ما وصل إليه التطور فى القرن العشرين . . ومن يدرى فقد يتكرر الحكم إثر دورة حضارية أخرى بعد الحرب الكونية ، أو يكون أشد قسوة من (تهويماتنا) حول مخلفات طوفان نوح ومانزل بعاد وثمود وقوم لوط .

إن الفروق الزمنية فى (تهويمات) العلماء بالملايين من السنين دليل على الضبابية والعشوائية التى تتحكم فى هذه (التهويمات) . ولو أننا أخذنا فى الحسبان كبر حجم المخ وصغره ، لكانت كثرة الخلايا المخية فى رءوس الحيوانات الضخمة دليل تفوقها العقلى ، ولكانت الأسود والنمور أقرب إلى الحضارة من القطط ، ولكان الديناصور أحق بالبقاء من السحالى ، ولكانت الآلات الدقيقة أقل قدرة من الآلات الكبيرة ، من نفس النوع !!

ومن عجيب أمر العلماء أنهم لايضعون فى حسابهم (خَبَر السماء) ، فيكفيهم ضلال تلك الحسابات التى تقوم على دراسة التربة أو دراسة العظام ، مع أن التربة والعظام ، التى توضع تحت مجاهرهم وفروضهم لايمكن الحكم عليها حكمًا لامِرْية فيه ، لأن ثمة عوامل كثيرة زيفت أو تُزيف مايمكن أن تبوح به من أسرار .

وحسبنا أن كثيراً من (النظريات) العلمية فى المسيرة الحضارية – منذ بداية التدوين التاريخى حتى اليوم – تقوم على أنقاض نظريات أخرى ، احتفل لها العلماء حينا من الدهر ، ثم مالبثوا أن أهالوا عليها التراب .

* ولعل الحضارة المصرية القديمة – مع كثرة الدراسات المزودة بأعرق النقوش والنصوص والأبنية والأدوات – أكبر دليل على تلك (المتاهة) التى يحيس فيها العلماء .

يقول الأستاذ عبد القادر حمزة : (أمامى – وأنا أكتب هذه الدراسة ، مارس ١٩٤٠م – جدول بالمؤلفات التى وضعت عن مصر القديمة وتاريخها ، منذ خمسين سنة فقط ، باللغات الفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية ، يصل العدد فيه مايقرب من ألف مؤلف ، وهذا من أمهات المؤلفات ، فكيف

بغيرها!!) - على هامش التاريخ المصرى القديم هـ ص ٣ - وكيف بمافاته الحصول عليه فى اللغات التى ذكرها ، وكيف بما هو فى اللغات الأخرى ، وكيف بما جدّ بعد عام ١٩٤٠م !!

وقد سبقت الإشارة إلى أن كثرة هذه المؤلفات اعتمدت على استنتاجات تنقصها الأدلة الصحيحة ، بسبب من ضياع الكثير من النصوص ، ومن صعوبة اللغة القديمة ، ومن التزييف الذى أصاب بعض النقوش .

ومع هذا كله فقد حظيت الحضارة المصرية القديمة بالاهتمام الأكبر من الدارسين ، وبالتقدير الأكبر من المنصفين . . وفى ضوء ، أو من خلال ماوصلنا من آثار ، لامجال للشك فيها - نضع بين يدى القارئ بعض الخطوط التى قد تعينه على الثقة بالمستقبل ، بسبب من إشراقة هذا الماضى .

يقول العالم الفرنسى الكبير مورى **A. Moret** :

(لم تَجُد الطبيعة - فى ذلك الوقت - على بقعة من بقاع الأرض بالخصائص اللازمة لنمو مجتمع إنسانى ، كما جادت على مصر ، ولهذا لاتوجد فى أية بقعة من بقاع الأرض صناعة من صناعات عصر الحجر المصقول هى فى إتقان الصناعة التى توجد من هذا النوع فى مصر ، على أنه لم يوجد فيما بين النهرين ، ولا فى سوريا ، أى أثر للإنسان سابق على أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، ماخلا نقطًا قليلة فى فلسطين لم يُحَدَّد تاريخها بعد بدقة ، ولكن يظن أنها من عصر الحجر المصقول ، وفى هذا الوقت ، أى فى حدود أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، نرى المصريين يدخلون فى العصر التاريخى ، من عصور المدنية) - على هامش التاريخ المصرى القديم ص ٢٧ .

ويقول العالم الأمريكى الكبير بريستيد :

(فى القرون التى تقع بين ٥٠٠٠ و ٣٥٠٠ ق . م قامت أول دولة متحضرة كبيرة فى وقت كانت فيه أوربا ومعظم غربى آسيا لاتزال مسكونة بجماعات مشتتة من صيادى العصر الحجرى) .

ويرد هذا إلى (أن وادى النيل - فى عصور ماقبل التاريخ - كان يتمتع بميزة

فريدة ، إذ لم يكن معرضًا لشدائد عصر الجليد ، بل كان منفصلاً عنها ، ومحتميًا منها بمياه البحر الأبيض المتوسط الملطفة الواسعة الأرجاء ، على حين أن حياة صيادى العصر الحجرى الأوربى فى شماله قد عاقها من التقدم الرياح القُطبِية واندفاع الثلوج التى لاتقاوم) .

(ولقد كان غربى آسيا على تمام النقيض من مصر ، تحوط دائرته الشمالية تلك الهضبة الجبلية الممتدة من البوسفور حتى بلاد إيران ، فكان معرضًا بدرجة عظيمة لأخطار ذوبان الجليد المخربة ، وزمهرير برده القارس ، وقد ترجع قصة الطوفان العام التى ورد ذكرها فى بابل ، ثم فى التوراة ، إلى فيضان جليدى من هذا النوع ، ولقد كانت هذه القوة الطبيعية المزعجة المغيرة من هذه المرتفعات الشمالية الواقعة فى غرب آسيا نذيرًا لغارات بشرية متتابعة ، كانت كذلك تنزح من هذه المرتفعات ، وتغمر الإقليم فى دورات معلومة ، فتقلب النظام الاجتماعى والحكومى القائم ، ولذلك كان التقدم البشرى فى الإقليم إذا خطا خطوته الأولى نحو التطور لايلبث أن يعثر وتزل به قدمه ، فيرجع إلى سيرته الأولى ، فيحاول النهوض مرة أخرى ، ويعانى نفس العملية المرة بعد المرة) .

(إن هؤلاء المصريين الذين عاشوا فى مصر ماقبل التاريخ المدفونين فى أقدم الجبانات - هم وأجدادهم - كانوا أقدم مجتمع عظيم على الأرض استطاع أن يضمن لنفسه غذاء ثابتا ، باستئناس الموارد البرية ، من نبات وحيوان ، على حين كان تغلبهم على المعادن فيما بعد ، وتقدمهم فى اختراع أقدم نظام كتابى ، قد جعل فى أيديهم السيطرة على طريق التقدم الحضارى) .

و (لاجدال فى أن التقدم السياسى والاجتماعى وتطور الحضارة البشرية بوجه عام كان ظهورها كلها فى وادى النيل ، متقدمًا بعدة قرون على أمثاله فى غربى آسيا ، والحقيقة أن الحضارة فى بابل أتت متأخرة فى تطورها الدينى والاجتماعى والسياسى عن حضارة مصر ، بما لايقل عن ألف سنة) - فجر الضمير ص ٣٠ / ٢٨ / ١٥٩ بالترتيب .

وهذه الأسباب التى اعتمدها بريستيد وغيره تتنافى مع مايقوله فلاسفة الحضارة الغربية من أن (التحدى) هو صانع الحضارة ، وحَسَبَ (بيان) بريستيد

تصبح الحضارة فى بلاد الرافدين هى الأقدم ، وهى الأجدر بالتمجيد ، وبخاصة أنها الأسبق إلى صناعة العجلة الحربية ، وكثير من العلماء يذهب هذا المذهب ، وبخاصة أولئك الذين تخصصوا فى دراسات هذه المنطقة من العالم .

ثم إن الحديث عن الهجرات والانهيارات الجليدية تذكر بفيضان النيل الموسمى ، وبالهجرات من جميع البلاد المحيطة بمصر ، حتى من جزر البحر المتوسط ، وهى هجرات قديمة ، كانت تصل أحيانا إلى سدة الحكم .

وعلى فرض أن مصر حماها اللّه من هذه المؤثرات الخارجية ، فثمة جزر فى المحيطات لم يحْظ أهلها بقدر حضارى ، مع أن الطبيعة أغدقت عليهم بخيراتها .

ولايمكن الزعم بأن الشعب المصرى زوده اللّه بما لم يزود به الشعوب الأخرى، لأن قضية نقاء العنصر بعيدة كل البعد عن الصواب ، وقد أشبعها العلماء طعونا .

من هنا نقتصر فى تقويم الحضارة المصرية على ماوقع لنا من آثار ، حتى تكتشف الدراسات المتواصلة أسبابا أخرى غير هذه الأسباب .

- ٢ -

يقول الأستاذ جوستاف چيكيير أستاذ المصرولوچيا في جامعة نيو شاتل الفرنسية :

(وصل العمل الفنى فى صقل الحجر المصقول - فى مصر ، حداً من الإتقان والدقة يتعذر أن يوجد له مثيل فى أى بلد آخر ، وهذه الدقة لاتلاحظ فى أدوات البذخ فقط ، بل تلاحظ فى الأدوات العادية أيضًا) - على هامش التاريخ المصرى القديم ص ٢٧ .

والتقدم الصناعى رهن بالتقدم الأخلاقى ، لأن القيم الأخلاقية هى التى تحقق الاستقرار ، وتحدد الأهداف فى إطار اجتماعى يعين على التطور والإجادة ، أما الهدف الفردى فيزول بزوال صاحبه ، وإن التَمَع فى الأفق التماعا باهرًا ، على حين يستعين الهدف الاجتماعى بأكثر من ينبوع وبأكثر من محرك ، ويخضع للإرادة والمصلحة العامة .

وقد لاحظ الأستاذ بريستيد (أن المصرى كان يفكر دائمًا فى الأشياء المعيّنة والصور المجّسمة ، فهو مثلاً لايفكر فى السرقة ، بل يفكر فى السارق نفسه ، ولايفكر فى الحب ، بل فى المحب ، ولايفكر فى الفقر ، بل فى الرجل الفقير ، وهَلُمّ جرا ، ولذلك لم ير الفساد الاجتماعى ، بل شاهد المجتمع الفاسد ، ولهذا نهض الوزير «بتاح حتب» - وهو رجل يقوم بأعباء الوظيفة بإيمان سليم فى قيمة السلوك الحق والإدارة الحقة - ليحقق بذلك السعادة ، وسلّم إرث تلك التجربة إلى ابنه ، وكذلك الرجل التعس ، كان رجلاً حل به الظلم الاجتماعى ، فعبر عنه فى صورة روح يائسة ، تعبر عن يأسه وأسبابه ، وكذلك كان «إبور» رجلاً تسكن فى نفسه الرؤية التى أدركت كلا من الفساد الفتاك بالمجتمع والحلم الذهبى بظهور الملك الأمثل الذى يصلح كل شئ ، وكذلك أيضًا كان «الفلاح الفصيح» رجلا يتألم من اضطهاد الموظفين له ، ويصرخ بأعلى صوته مستغيثًا من ذلك ، وكذلك أيضًا كانت أوامر «أمنمحات» صيغت فى قالب ملك يتألم من الخيانة المخزية التى حدثت له ، وجعلته يفقد كل ثقة بالناس فألقى تجاريبه تلك إلى ابنه)- فجر الضمير ص ٢٣١ .

والأستاذ سليم حسن مترجم (فجر الضمير) نقل فكر بريستيد فى (مصر القديمة جـ١ ص «أ» و «ب») فقال : إن المصرى (كان يفكر فى دائرة الحس ، ولا يسمح لعقله بأن يحلّق فى أجواء المعقولات والمعانى ، فهو لايؤمن بالحب ، وإن كان يقدس المحبوب ، ولا يعرف الشجاعة ، ولكنه يقدر الرجل الشجاع ، وتبعًا لطريقته هذه فى التفكير كان لابد له من أن يجسّم آلهته ويصورها ويتخذ لها من الحيوان والكائنات مظاهر يقدسها ويعبدها ، مع اعتقاده بالوحدانية) .

ولا أدرى كيف أسلم الأستاذ سليم حسن زمامه للأستاذ بريستيد ، دون توقف ، ودون إشارة إلى (فضيلة) السبق ؟!

إن الوحدانية أقصى مايصل إليه العقل متجردًا من كل نوازع الحس ، فإذا كان العقل فى مذهب اكثر الفلاسفة ثمرة حسية ، فإن الوصول إلى الوحدانية ينشأ عن عملية عقلية لم تخضع لنوازع الحس ، وإنما أخضعت المدركات الحسية، الموصوفة بالعجز ، للوصول إلى الكمال المطلق ، المتمثل فى وحدانية الإله .

ثم كيف للمصرى (لايؤمن بالحب ، وإن كان يقدس المحبوب ولا يعرف الشجاعة ، ولكنه يقدر الرجل الشجاع) ؟!

أهذا بسبب من طبيعة الأرض والمناخ ؟ أم أن الله – سبحانه – خصّ جِبلة المصرى بهذه الخصيصة (الشاذة) ؟!

أهذا (الخلط) من أجل تعليل (تجسيد الألوهية) ؟ وأى شعب لم يفعل ذلك خلال مراحل تطوره الدينى ؟ وأى شعب اليوم يخلو معتقده من عملية التجسيد؟

إذا كان الأستاذ بريستيد استنطق لغة الصور والرسوم ، دون أن يتبين دلالتها ، وفاته الفصل بين الرموز والمعانى ، فما كان له أن يفصل بين الحب والمحبوب ، لأن كلا من بتاح حتب ، والرجل التعس ، وإبور ، والفلاح الفصيح ، لم يفصل بين الحقيقة والواقع ، لأنهما شئ واحد ، فأنا لاأعرف الظلم إلا إذا وقع بى ، ومهما قيل عن التعاسة دون أن أتحسسها فى حياتى أو فى حياة الآخرين تصبح سرابا ، أو كلمة باهتة المعالم ، أماّ وهى واقع فإنها تتحول إلى تكوين موحش

هيب عارى المخالب والأنياب ، ولهذا قيل (الشعور بالظلم غير الظلم نفسه) ،
ما أكثر حديث الظلمة عن الظلم دون شعور به ، أو تبين لأبعاده النفسية ، وإلا
لمعوا عنه ، إنهم يتحدثون عنه وهم يشربون دماء فرائسهم ، دون أن تطرف لهم
ين ، أو تتحرك فيهم شعرة .

جاء فى خطاب لإله الشمس ، عثر عليه فى متون التوابيت الخشبية التى
جع إلى العصر الإقطاعى : (لقد خلقت الرياح الأربع ليتنفس بها الإنسان مثل
حيه الإنسان مدة حياته ، ولقد خلقت المياه العظيمة ليستعملها الفقير مثل
سيد) .

(لقد خلقت كل رجل مثل أخيه ، وحرّمت عليه إتيان السوء ، ولكن قلوبهم
ى التى نكثت ماقلته) .

(لقد جعلت قلوبهم لاتغفل عن الغرب - الموت - ليقربوا القرابين للآلهة
حلية) .

يقول بريستيد : (إن ظهور هذه النظرية الإنسانية - التى قضت على كل
فوارق الاجتماعية فى نظر الخالق العظيم عند خلق الناس ، وجعلهم سواسية
ـام المسئولية الخلقية - يعد أمراً غريبًا ، ويزيد من غرابته ظهوره ماقبل عصر
سيح - عليه السلام - بألفى سنة ، أى أنه كان معاصراً لعهد الملك حمورابى -
ـوالى ١٩٠٠ ق . م - الذى سنّ فى قانونه العظيم : إن كل العقوبات والأحكام
قضائية تدرج حسب مراكز المدنيين الاجتماعية ، أو مكانة المتخاصمين
لاجتماعية») - فجر الضمير ٢٣٥ / ٢٣٦ .

هذا المثال حجة على ماذهب إليه بريستيد من قبل ، لأن الحديث عن المساواة
ان من رجل حرم المساواة فى عصر إقطاعى ظالم مستبد ، وقانون حمورابى سنّه
لك يستمد قوته من الأمراء وكبار رجال الدولة ومن الإقطاعيين . . ومن العبث
ن نقول : كان بوذا وتولستوى من فئة الأمراء والاقطاعيين ، ثم وقفًا إلى جانب
لحق والعدل والسلام ، وهذا أمر لا يعالج من واقع أنه (شاذ يحفظ ولايقاس
ليه) ، بل من واقع التكوين الإنسانى الذى يصعب أن تصبّه فى قالب واحد ،
لو كان الأمر فى عالم التّوائم .

إن الحدث الواحد قد يبكى إنسانا ويضحك آخر ، مع أن مصدر التلقى واحد ، لكن الاستعداد النفسى يختلف من متلق إلى آخر .

- ٣ -

يقول سبنسر عن غرفة الدفن المصرية : إنها (رمزت للكون بأسره ، فكان سقفها يمثل السماء ، وأرضيتها الأرض ، وحتى فى الدولة القديمة كانت سقوف غرف الأهرامات تغطى بنجوم منقوشة ملونة ، حتى تحاكى سماء الليل ، وتشتمل زخارف سقوف مقابر ملوك الدولة الحديثة على خرائط للنجوم ، ومجموعات المعبودات النجمية ، وكتب دينية تتصل بميلاد الشمس اليومى) - الموتى وعالمهم ص ١٧٥ .

فلم اهتم المصرى بهذا الرباط القوى بالنجوم حتى داخل المقبرة ، هل لأنه طمع فى أن يكون أحد هذه النجوم ، بعد أن يجتاز محاكمة العالم الآخر ، كما ورد فى معتقداتهم ؟ هل كان رسم خريطة للنجوم حتى لايضل طريقه هناك ، لأن مكانه محدد بموقع معين يحتاج إلى خريطة تهديه إليه ؟ أم أن الأمر يرتبط بشئ آخر لم نهتد إلى سره ؟

لاريب فى أن علاقة مصر بالنجوم ، وعلاقة بابل بالنجوم ، لاترجعان إلى السماء الصافية ، وطول النظر إليها ، وإلا كان ابن صحراء الجزيرة العربية ، وابن صحراء مصر وليبيا هو الأقدر على أن يستنبط علوم الفلك ، مع أنه وقف عند حد الاهتداء بها فى الظلام ، على حين تنافس علماء مصر وبابل على إحراز قصب السبق فى علوم ماتزال إلى اليوم سراً مغلقًا أمام كثير من العلماء .

كيف تسنّى للمصرى أن يقسم السنة الشمسية إلى ثلاثة فصول ، ويقسم هذه الفصول مجتمعة إلى اثنى عشر شهراً ، ويقسم كل يوم إلى أربع وعشرين ساعة؟

لقد قيل إن فيضان النيل ساعد على تقسيم السنة إلى ثلاثة فصول : فصل الفيضان (أخت أو أخى) ، يعقبه فصل انحسار المياه (بيريت أو برويه) ، ثم فصل المحصولات (شيمو أو شومى) . . فهل هذه الفصول الثلاثة تعنى أن لكل فصل زمنا محدداً فى واقع الحياة المصرية ، أم أن ثمة تداخلاً يستغرق شهرا أو أقل أو أكثر ، كما هو واقع فى الفصول الأربعة : الشتاء والربيع والصيف والخريف ؟

وإذا أخذنا بالأعم الأغلب ، كما يقولون ، فكيف تم تقسيم هذه الفصول

إلى اثني عشر شهرا ، ومتى كان بدء السنة ؟ قالوا : اتفق أن وصل النيل إلى إيلفنتين فى اليوم الذى ظهرت فيه الشعرى اليمانية قبيل شروق الشمس ، فجعلوا هذا اليوم أول سنتهم ، أول شهر «توت» ، لكن مياه النيل لايسهل تحديد وقت وصولها ، لأن مياه الفيضان لاتعرف إلا بكثرتها ، أى أنها لاتتحدد إلا برصدها فى أحد الروافد القادمة من هضبة الحبشة ، لا عن طريق مقياس النيل فى إيلفنتين وغيرها الذى تتذبذب حركة المياه فيه بحركة الأمطار فى وسط أفريقيا ، أو فوق منابع النيل ، حيث البحيرات ، وربطوا بين أشهر السنة الاثنى عشر (توت ، بابه ، هاتور ، كيهك ، طوبه ، أمشير ، برمهات ، برمودة ، بشنس ، بئونه ، أبيب ، مسرى) بمطالع القمر ، وبمتابعة حركة الشمس خلال ٣٦٥ يومًا أو ٣٦٦ يومًا بدليل عدد الدرج فى معبد دندرة ، وتلك الفجوات المطلة على كل درجة ، لتدخل منها أشعة الشمس فى واحد من الـ ٣٦٥ يوما . . لكن كيف أمكن رصد هذه اللحظات سريعة التلاشى ، فى مطالع الشمس ومطالع القمر ، مع أن علم العرب والمسلمين - حتى اليوم - لايكاد يجمع على لحظات انبثاق هلال الشهر العربى ؟

وقالوا : إن المصريين أول من اخترع المزولة والساعة المائية ، لتقسيم ساعات النهار وساعات الليل ، فكيف أدركوا أن الساعة ٦٠ دقيقة ، مع أنهم قسموا الشهر إلى ثلاثة أقسام لا إلى أربعة أقسام ، وقسموا الليل والنهار قسمين متساويين ؟

وقالوا : كانوا يستعملون آنية قُمعية الشكل ، طولها ذراع تقريبًا ، ومثقوبة من أسفل ، وكانت سعة الإناء وقطر الثقب قد أعدت حسابيًا ، بحيث تنسكب المياه من الثقب فى مدة اثنتى عشرة ساعة تمامًا ، وغالبًا ما تزين الواجهة الخارجية للإناء أشكال فلكية ، أو كتابات ونقوش تتعلق بأشكال رسمت أفقيًا . . وكان هناك اثنا عشر شريطًا رأسيا يفصل بين الواحد والآخر أفاريز ذات عدد مساو ، رسمت عليها رموز الحياة والزمن والاستمرار ، وفيها ثقوب غير عميقة ، وعلى أبعاد متساوية تقريبًا ، وكان كل شريط يخصص عادة لشهر معين ، ونظرًا لأن الثقوب كلها متماثلة كانت تستخدم عمليا لكل الأوقات . . وكانت المزولة تستخدم لقياس الظل ، أو لتعيين زاوية اتجاه الظل .

كل هذا جميل ، لكنه لم يتم إلا بعد الاتفاق على المسافة الزمنية للساعة ، وأن النهار اثنتا عشرة ساعة وأن الليل اثنتا عشرة ساعة ، فلمَ لمْ تكن الساعة أكثر أو أقل من ٦٠ دقيقة ، وكيف فاتهم أن كلا من الليل والنهار ، يطول ويقصر ، وأن الحدود بين النور والظلام غير ممكنة على وجه القطع ؟

* ويذكر أن علم البروج المصرى أحدث ثورة فى كنيسة عصر التنوير الأوربى ، ذلك أن هناك ثلاث نسخ للتوراة ، كل واحدة منها اعتبرتها الكنيسة مقدسة : نسخة عبرية ، ونسخة سامرية ، ونسخة سبعونية ، فى الأولى يبلغ مجموع الأعمار من آدم إلى إبراهيم ٢٠٢٣ سنة ، وفى الثانية يبلغ مجموع هذه الأعمار نفسها ٢٣٢٤ سنة ، وفى الثالثة يبلغ هذا المجموع ٣٣٨٩ سنة ، أما المدة من إبراهيم إلى عيسى فهى ٢٢٠٠ سنة ، وبهذا تكون أقصى مدة قدرت من خلق الإنسان إلى رسالة عيسى هى ٥٥٨٩ سنة .

وقد أخذت الكنيسة هذه الأرقام قضية مسلّمة ، وجعلتها إحدى العقائد المقدسة ، فانتشرت فى المؤلفات الدينية ، وسرت منها إلى المؤلفات العلمية التى ألفها القسوس .

وفى سنة ١٧٩٣م كان العالم الفرنسى ديبوى **Dupuis** قد درس البروج التى وجدت فى بعض المعابد المصرية ، فألف كتابًا استنتج فيه من علامات هذه البروج، ومن حساب حسبه ، أولاً : أن المصريين هم أول من اخترع رسم هذه البروج ، وثانيا : أن عمر البروج المصرية يبلغ ١٣ أو ١٥ ألف سنة قبل الميلاد ، ثم قال : (وبما أن شعبا من الشعوب لايستطيع أن يخترع هذه البروج فى مستهل حضارته ، فالحضارة المصرية ترجع إلى أبعد من ١٥ ألف سنة) .

ثارت ضجة فى الدوائر العلمية والدينية على أثر ذيوع الخبر عن بروج إسنا ودندرة ، وحينئذ انقسم العلماء إلى فريقين : فريق يقول إن الآثار المصرية تثبت أن خلق الإنسان أقدم من الزمن الذى حددته التوراة ، وفريق يتمسك بالتوراة ويدافع عنها .

وكانت صيحة شامبليون أن (دراسة الآثار والكتابات والعلوم المصرية تهدم الأسس التى تقوم عليها الديانة ، وتدمر سلطان التوراة) .

وتشجع الأب ميشيلانج لانسى ، فجعل يطبع كراسات يلعن فيها مصر وعلومها ، لأنها شوشت الأذهان ، وأوقعت أوربا فى حرب فكرية كانت فى غنى عنها ، ووصف الكتابات المصرية بأنها كاذبة ، ووصف قراءة شامبليون للكتابة الهيروغليفية بأنها تلفيق .

وفى ٢٥ مارس ١٨٢٥م كتب شامبليون إلى أخيه يقول : (أقول لك ، فيما بينى وبينك ، إننى حصلت على نتائج ، هى مربكة إلى الحد الأقصى ، من وجوه عدة ، ولذا يجب إبقاؤها فى الكتمان ، وهذه النتائج لم تخالف فى شئ ماكنت أتوقعه ، وماكان يتوقعه معى « فوريى » ، وقد تجلت أمامى أشياء كثيرة كانت تتردد فى نفسى ترددًا مبهمًا ، فصارت الآن عندى من الحقائق التى لايتطرق إليها الشك) .

وفى سنة ١٨٦٣م ترجم إيمانويل دى روجى بعض الأوراق البردية التى فى متحف برلين ، وأشار إلى الذين يرون بنية حسنة أن أرقام التوراة سور لايصح تخطيه ، ثم قال : (إن مبادئنا لاتسمح لنا بأن نتّهم المسيحية بأنها تتزعزع أركانها من جراء تقدم علم أيا كان ، ونحن على تمام اليقين من أن سلسلة التواريخ المصرية ، مهما يكن القدم التى تنقلنا إليه ، ستأخذ مكانها فى العلم الحديث ، بجانب العلم الذى يبحث فى القوانين الخاصة بسير الكواكب ، وبجانب العلم الذى يبحث فى كيفية تكوين طبقات الأرض ، من غير أن يكون ذلك مسيئا إلى الإيمان المسيحى) .

وتحت ضغوط الحملات العلمية عادت الكنيسة إلى التوراة ، تُرجع البصر فيها ، ففكرت ، ثم اهتدت إلى أنها أخطأت فى اعتبارها تلك الأرقام التى فيها مقدسة .

أولاً : لأن الاختلاف بين النسخ الثلاث ينفى القداسة .

ثانيا : لأن التوراة حينما تقول إن فلانا وَلَدَ فُلانا لايكون مرادها أن الثانى ولدٌ للأول ، من غير أن يكون بينهما جيل أوأجيال ، بل المراد أن الثانى من نسل الأول ، وقد يكون حفيدا ، أوأبعد من حفيد .

وكان هذا التراجع ثمرة معركة حامية شغلت أوربا من سنة ١٧٩٣ إلى سنة ١٨٨٠م - على هامش التاريخ المصرى القديم ص ٤١ / ٥٠ .

هناك ملمس دقيق يعبر عن الفطنة المصرية منذ زمن بعيد .

روى أن المقابر الأولى بسيطة وساذجة ، فلم تتعد حفراً دائرية أو بيضاوية ضحلة ، يوضع فيها المتوفَّى فى وضع القرفصاء ، بحيث تطوى ساقاه على صدره ، فتلامس الذقنُ الركبتين ، وتثنى يداه أمام وجهه - الموتى وعالمهم فى مصر القديمة ص ٢٧ .

معنى هذا أن المصريين ربطوا بين الجنين فى بطن أمه وبين البعث ، فالمتوفَّى يكون فى قبره بمثابة الجنين فى الرحم ، حتى إذا حان حينه خرج إلى الحياة الآخرة بمثابة ميلاد جديد .

وبرسوخ هذا المعتقد والتسليم به أخذ الدفن شكلاً طوليًا يتناسب مع طبيعة التابوت ، لأن التابوت وغرفة الدفن صاراً يستخدمان لهدف إضافى هام ، وهو تدوين معالم الحياة الآخرة ، ورسم محطات العبور فيها ، وإشارات المرور ، وتزويد المتوفى بكل احتياجاته حتى لايضل ، وحتى إذا أراد الاستعانة بشئ وجده .

من هنا (يستطيع المرء أن يصحب صاحب المقبرة على جدران قبره فى طريقه للتَّفْتيش على الخبازين وصانعى الجعة وعاصرى العنب والطباخين والنحاتين والنجَارين والصناع ، أويجلس معه يستمتع بالموسيقى والرقص ، أو يشاركه لعبة الدامة ، وقد تتسلل بعض التفصيلات المجونية أحيانا إلى هذه الصور ، فنرى قردًا ينفش ريش الكركى ، أو يعض ساق خادم) - مصر الفراعنة ص ١١٠ .

إنها ليست وسيلة لربط الحياة الدنيا بالحياة الآخرة ، على طريق التعزية والتلهى فقط ، بل إن تصور الآخرة لايمكن تحققه إلا من خلال الخيال ، والخيال لايمكن تكوين صورة لما يجهل إلا من خلال جزئيات مايعلم . . والكتب السماوية - فى حديثها عن الجنة والنار - لجأت إلى جزئيات الحياة الدنيا ، لتقرب الصورة إلى المخاطبين ، مع الإشارة إلى أن النشأة الآخرة لانعلم عنها حتى نعلم حاجاتها ، وصدق اللّه فى قرآنه : ﴿ **ونُنْشِئكم فيما لا تعلمون** ﴾ .

وتبع التفكير فى تزويد الميت بما يحتاجه توسُّع فى البناء ، حتى يفى بكل ما يملك الميت وآله من قدرات ، وبطبيعة التقليد والتنافس ، ولأن اللصوص صاروا يسطون على الأشياء التى كان يزوّد بها الميت - صار القبر مصطبة من الحجر ، بعد أن كان من اللبن . . (وفى الأسرتين الخامسة والسادسة ابتنى كثيرمن العظماء بيوتًا حقيقية فى مصاطبهم . . . فمقبرة «رع ور» مدير قصر الملك «نفر • إر - كا رع» - ٢٥٢٩ / ٢٥٢٧ ق . م - كانت تحوى أكثر من خمسين حجرة وبهواً وممراً ، ومابقى من أجزاء تماثيله يؤكد أنه كان فيها أكثر من مائة ، ولو قارنا قبر «رع ور» بقبور أبناء سنفرو أو خوفو أو خفرع لرأيناه يفوقها فى عدد الحجرات أو الردهات وفخامة المبانى) - مصر الفرعونية ص١٣٦ - (ومقبرة «مر رو كا» وزير الملك «ببى» - حوالى سنة ٢٣٧٥ ق . م) - كانت تحتوى على مالا يقل عن إحدى وثلاثين غرفة ، خُصص منها واحدة وعشرون غرفة للميت نفسه ، وست غرف لزوجه ، وأربع لابنه ، ثم ماذا من الصور لم يصور فى مثل هذه المقابر ؟ لقد صورت فيها زراعة الأرض ، وتربية الماشية ، وصيد الحيوان والطيور ، كما صُور فيها الصناع ، والملاحون ، والموسيقيون ، والراقصات ، وذبح الضحايا من الحيوان ، وعصر النبيذ ، وسائر ما كان يبدو ساراً مشوقًا للطبقة الممتازة من المصريين - ديانة مصر القديمة ٢٨٤ .

* والتاريخ يتحدث عن أول مصرى اهتدى إلى البناء الحجرى ، مع أن لفظ (الأولية) لايخضع لقانون علمى ، لأن هذا (الأول) لا ينبت من فراغ ، إنما هو حصيلة تجارب ومعارف عملت على تكوينه .

قالوا : كان أمحوتب (٢٥٤٦ - ٢٥٢٦ ق . م تقريبا) رئيس البنائين فى بلاط الملك زوسر ، وقد اشتهر بعلمه وحكمته ، بنى للملك زوسر قبراً على نمط من سبقه من الملوك - إن صحّت نسبة قبر بيت خلاف ، شمالى أبيدوس إليه - ثم فكر فى تشييد قبر آخر لسيدة فى جبانة العاصمة الشمالية ، ووضع تصميمه ليكون أفخم من أى قبر شيد من قبل ، وكانت الفكرة الجريئة فى أن يكون القبر مبنيًا من كتل الحجر ، فشيد مصطبة كبيرة من الحجر الجيرى الذى قطعه من المحاجر القريبة ، ثم كسا جدرانه بأحجار جيرية من النوع الأبيض الممتاز الذى كانوا يحصلون عليه من محاجر «طره» .

وقطع تحت تلك المصطبة ممرات وحجرات جانبية تتوسطها حجرة كبيرة ، استخدم في تشييدها أحجار الجرانيت ، لتكون حجرة دفن الملك .

ثم عدل تصميمه الأول ، وأخذ يبنى مصطبة فوق أخرى ، وكل منها يقل فى الحجم عما تحتها ، حتى أصبح الشكل النهائى هرمًا مدرجًا ذا ستّ درجات ، كلها مكسوة من الخارج بالحجر الجيرى الأبيض .

وبذلك كان أمحوتب أول مهندس معمارى فى تاريخ مصر شيد قبراً يشبه الهرم فى شكله العام ، ولم يكتف بذلك ، بل أحاط الهرم بسور كبير مشيد كله من الحجر الجيرى المقطوع من «طره» ، ارتفاعه عشرة أمتار ، وشيد داخل هذا السور مبانى عدة كان بعضها لأجل إقامة العيد الثلاثين ، والبعض الآخر كان قبراً رمزيًا فى الناحية الجنوبية ، أومعابد تتصل أيضًا بالأعياد ، كما شيد فى الناحية الشمالية من الهرم معبدًا قامت فيه تماثيل للملك ،

وقد عرف زوسر قدر مهندسه ، فكرمه ، وأراد أن يخلده معه ، فسمح بأن يكتب اسمه على تماثيله ، وهذا تقديركبير ، لانظير له ، لأن الملك كان إلهًا معبودًا من شعبه .

ولم يكن أمحوتب رئيس البنائين فحسب ، بل رئيس المثالين ، والمشرف على الأعمال الإنشائية للملك ، كما كان حاكمًا لأحد الأقاليم ، وكان كبيراً لكهنة الشمس فى مدينة «إيون» - هليوبوليس - وربما تولى وظيفة الوزير ، لأنها أصبحت لقبه فى العصورالتالية - مصر الفرعونية ص ٩١/ ٩٣ .

و أمحوتب هذا قد يحمل براءة ملوك الأهرام من الاستبداد ، لأن الملك زوسر لم يطلب إليه أن يفعل مافعل ، إنما الرجل كان مهندسًا عالمًا ، أراد توظيف علمه وخبرته فى أمر غيرمسبوق ، وأعانه الملك على تحقيق طموحه ، فزوده بالإمكانيات .

ونحن نعلم أن عملية البناء كانت تتم فى أشهر الفيضان ، أى أن عملية البناء كانت تعد شغلاً لفراغ العاملين (ومحاربة البطالة) ، وحتى تتحقق راحة العاملين، بنى أمحوتب مدينة للعمال فى الجهة الغربية من الهرم ، وهى مقسمة

إلى ١١٠ قاعات ، تتسع لإيواء عدد يتراوح بين ٣٥٠٠ و ٤٠٠٠ عامل - مصر الفرعونية ص ١١٩ - وزود المدينة باحتياجات العمال .

ولو أن ثمة عسف أو استبداد ما أشاد العمال برئيس البنائين ، وجعلوا منه إلها ، ونسبوه إلى الإله بتاح ، فجعلوه ابنًا له ، وصنعوا فى ذكراه أعيادًا ، بل مهرجانات ، توسلوا إليه فى حل مشكلاتهم ، وقدموا له القرابين ، بل إن عبادته لم تقتصر على أبناء مدينة العمال ، فقد عبد فى أماكن مختلفة ، وفى أشكال عدة ، ويبدو أن العمال بمختلف طوائفهم قدروا دوره فى خدمة العمال ، وبالغوا فى تكريمه ، ذلك أن الرجل لم يكن مهندسا موهوبا فحسب ، بل كان طبيبًا نابغة ، وقد ألفّ فى الطب ، وكان حكيمًا نابهًا ، وألف فى الحكمة ، ولا شك فى أن مدينة العمال استفادت من طبه وحكمته ، حتى رفعه القوم هذه الرفعة ، وحتى جاء الإغريق ليجعلوا منه أسكلبيوس إله الطب .

ونشأ عن تبادل التكريم بين أمحوتب والعمال أن كثيراً من الفراعنة حرصوا على رعاية العاملين فى المحاجر والمقابر ، يؤيد هذا ماجاء فى إحدى الوثائق على لسان رمسيس الثانى :

(. . . وكل واحد منكم عليه عمل شهر - بالتناوب - ولقد ملأت لكم المخازن بكل شئ ، من خبز ولحم وفطائر ، ونعال وملابس ، وكذلك العطور لتعطير رءوسكم كل أسبوع ، ولكسائكم كل سنة ، ولأجل أن تكون أخمص أقدامكم صلبة دائمًا ، وحتى لا يكون من بينكم من يمضى الليل يئن من الفقر ، ولقد عينت خلقًا كثيراً ليمونوكم من الجوع ، وكذلك خصصت سماكين ليحضروا لكم سمكًا ، وزراعًا لينبتوا لكم الكروم ، وصنعت لكم أوانى واسعة على عجلة صانع الفخار ، مسوياً بذلك أوعية لتبريد الماء لكم فى فصل الصيف ، والوجه القبلى يحمل لكم حَبّا للوجه البحرى ، والوجه البحرى يحمل للوجه القبلى حبًا وقمحًا وملحًا وفولاً بكميات وافرة ، ولقد قمت بعمل كل هذا لأجل أن تسعدوا وأنتم تعملون بقلب واحد) - مصر القديمة جـ٦ ص «ل» .

* لقد لاحظ علماء المصريات أن أهرام أبى صير تُغَطّى فيها جدران غرفه الدفن والدهليز بكتابات كثيرة ، سميت فيما بعد متون الأهرام . . على حين

خلت أهرام الجيزة (العملاقة) من أية كتابات ، واتهموا أصحابها بانعدام التقوى والصلاح – ديانة مصر القديمة ص ٢٧٩ .

لكنهم أمام ضخامة الأهرامات ، ولأنهم لم يجدوا فيها جثث أصحابها ، اكتفوا بالقول إنها «تُخلّد أسرارا فى الزمان أو الفلك أو الدين» .

وماتزال كثير من علامات الاستفهام والتعجب تصنع هالات مضيئة حول هذه العجائب الكونية ، التى استخدمت فيها (تقنيات) تعجز عنها وعن تفسيرها مفاخر الحضارة الحديثة ، حتى قيل إنه لو استخدمت أحجار الهرم الأكبر فى عمل سور حول فرنسا ، لكان ارتفاعه ثلاثة أمتار ، وعرضه متراً واحداً .

لكن القضية لاتقف عند هذا الفرض (الغائم) ، بل عند الوسيلة التى تم بها نقل هذه الكتل الحجرية الضخمة ، وبالقياس عليها كيف أمكن انتزاع حجارة المسلات من بطن الجبل ، ونقلها من جبال النوبة إلى حيث قامت فى مصر السفلى والعليا .

ثم ، كيف قطع المصريون فى الصخر أماكن كبيرة الحجم ، يضعون فيها سفنا كبيرة من الخشب ، لتكون تحت تصرف الملك ، عندما يقوم برحلتى النهار والليل، مع إله الشمس « رع » ، أو عند عبور الأنهار والبحيرات فى العالم الآخر؟

لقد تم العثور على عدة مراكب ، وبعد رفع الأحجار الضخمة التى سقفوا بها مكان واحدة ، تكشفت أجزاء مركب كبير من الخشب فى حالة جيدة ، ومعه جميع معداته من مجاديف وحبال ومقصورة للجلوس . . وطول هذا المركب ٤٣ر٥ المتر ، وارتفاع مقدمته ٥ أمتار ، وارتفاع مؤخرته ٧ أمتار .

أيكون هذا الإعداد الضخم لعدة مراكب (فى الناحية الشرقية من الأهرام) من أجل رحلة الملك فى الدار الآخرة حقًا ؟!

أحسب أننا نَغْرق فى الاجتهادات حين تعوزنا الوثائق والمستندات .

* مهندس مصرى شاب اختطفه الموت قبل أن يتم بحثه (الفذ) عن أن الأهرام لم تبن لتكون قبوراً ، بل قلاعًا بدليل :

١ - لم يذكر هيرودوت فى كتابه عن مصر كلمة (قبر) ، أو (دفن) ، عند وصفه للأهرام ، رغم أنه أفاض فى شرح طريقة بنائها . وتكاليف هذا البناء .

٢ - أن ١٧ مؤرخًا عربيًا ذكروا الأهرام ، ولم يشيروا إلى وجود جثة فى أى منها .

٣ - المؤرخ القيسى الذى يرميه أهله ومعاصروه بالكذب ذكر أنه شاهد بعينى رأسه عشرات الجثث فى أربع حجرات متقابلة داخل الهرم الأكبر ، ويمكن أن تكون هذه الجثث لمسيحيّين هربوا من طغيان الرومان .

٤ - أهرام السودان كلها مصمته ، ليس فيها تجويف يصلح غرفة دفن .

٥ - مراكب الشمس لم تكن لأغراض جنازية - كما ذهب مكتشفوها - وإنما كانت قوارب يستخدمها المراقب إذا أراد الإبلاغ عن قوة مهاجمة .

٦ - يلاحظ أن سنفرو بنى ٣ أهرامات + واحد صغير + ٧ فى أماكن أخرى متفرقة ، ولم يدفن فى أى منها وإنما دفن فى أبيدوس .

٧ - أهرام الفيوم أنشئت لحماية الوادى من جهة الفيوم .

٨ - أثناء حكم الهكسوس قاموا ببناء بضعة أهرامات صغيرة ، استمرارًا لعملية (سد الثغرات) .

٩ - آخر هرم فى التاريخ المصرى بناه أحمس الأول صغير جدًا ، كأنه النقطة التى تأتى فى آخر الجملة الطويلة ، ولم يدفن أحمس فى الهرم ، إنما دفن فى وادى الملوك ، ووجدنا مومياءه فى العصر الحديث .

١٠ - الدولة الحديثة لم يبن خلالها أى هرم ، وقد دعم ملوكها الأهرام القديمة كقلاع للدفاع ، مازالت ذات أهمية لمواجهة بدو الغرب ، وسجلت الآثار زيارات من أحمس ورمسيس الثانى . . وقد تضاءل بالتدريج دور الأهرام فى عصر الخيول والمركبات .

١١ - الأهرام الأمريكية لم تكن قبورًا ، وقد استخدمها بُناتها فى محاربة الأسبان ، ودارت حولها وفوقها معارك فاصلة انتهت بانتصار الأسبان .

١٢ - لم تتكرر ظاهرة بناء الأهرام فى التاريخ المصرى الطويل ، رغم أن الديانة المصرية وإيمان الشعب بها لم يتغير تغيراً يذكر لعدة قرون ، ورغم أن مصر حكمها - بعد بناة الأهرام - ملوك كثيرون ، منهم من هو أعظم ثراء ، وأوسع نفوذا ، وأعتى جبروتا من خوفو وأولاده ، فلماذا ؟

١٣ - أن الأهرامات كلها ، صغيرها وكبيرها ، قد بُنيت فى منطقة واحدة ، هى منطقة مصر الوسطى ، الواقعة بين منف القديمة وهضبة الأهرام ، أو شمالها ببضعة كيلو مترات ، وهى المنطقة التى تضم سقارة ودهشور والجيزة وميدوم . . إلخ .

وتتميز هذه المنطقة ذاتها بأن مجرى النيل فيها كان يتسع ويتفرق إلى عدة فروع كبيرة وصغيرة ، وأن مياه الفيضان كانت تغمر هذه المساحة الهائلة ، فتصبح بحيرة موسمية مترامية الأطراف ، لايحدها إلا المقطم من جهة الشرق ، وهضبة الأهرام وانحداراتها من جهة الغرب . . سطح هائل من الماء ، ولامَعْلَم يهتدى به الملاح السائر بسفينته أو زورقه على صفحة هذه البحيرة ، ولاشئ يعينه على تحديد الاتجاه الذى يسير فيه ، أو على تمييز شماله من جنوبه ، أو شرقه من غربه ، إن كان سائرا بالليل ، قبل اختراع البوصلة .

إن جميع هذه الأهرامات قد أقيمت على الحافة بين الوادى من ناحية والصحراء الغربية من ناحية أخرى ، هذه الصحراء المنبسطة التى تشبه بدورها بحراً مترامياً من الرمال والتلال القليلة المتشابهة ، بخلاف الصحراء الشرقية الغنية بجبالها ووديانها ومعالمها الثابتة ، وبخلاف الصعيد الذى تحدد فيه المعالم بمجرى النيل وسلاسل الجبال على جانبى الوادى ، ومن ثم لم يبنوا هرمًا واحداً على الضفة الغربية للصعيد الأعلى ، فى وادى الملوك مثلاً .

إن الفيضان كان يزيل جميع المعالم والحدود التى صنعها الإنسان فى باقى شهور السنة ، وعندما كان ينحسر تبقى الأرض صفحة منبسطة خالية من العلامات ، ويحتاج الأمر إلى إعادة تحديد المعالم بعمليات مساحية دقيقة ، تعتمد بالضرورة على نقطة أو عدة نقط ثابتة ، يتم منها مقياس الأبعاد أو رصدها .

وبعد بناء الهرم الأكبر – بصفة خاصة – بدأت عملية استمرت حوالى مائتى عام ، هى بقية عمر الأسرة الرابعة والأسرة التى تلتها ، وتمت خلالها نهضة زراعية ورعوية هائلة ، تضمنت إنشاءآت العديد من مشروعات الرى الكبرى ، فى منطقة الدلتا ، من شق الترع ، وتقويم مجرى النيل ، وتسوية الأراضى ، وردم المستنقعات ، وإقامة الجسور ، وهو ماكان بالضرورة يستلزم وجود نقط معلومة الموقع والارتفاع بشكل دائم لايتغير ، تقاس منها ، أو ترصد ارتفاعات وانخفاضات وأبعاد غيرها من النقط .

١٤ – المقاسات الدقيقة التى بنيت عليها الأهرامات ، بحيث لايتجاوز الخطأ فى هذه المقاييس واحدا من ٢٥٠٠ جزء ، أو أقل من عشرة سنتيمترات فى طول الهرم كله ، ٢٣٦ متراً .

والخطوط البسيطة الحاسمة ، بحيث تنطبق وجوهه الأربعة على الجهات الأصلية الأربع انطباقًا لايقل فى وقت عن مقاييس الهرم .

والنسبة بين أطوال الهرم وارتفاعه التى ضبطت بحيث تكون النسبة بين ارتفاع الهرم وطول قاعدته هى نصف النسبة الدائرية المشهورة (ط) .

أهذا كله من أجل بناء قبر ؟!

١٥ – لقد وجد الملاح أمامه منارة أو فناراً لايحتاج إلى أى ضوء ، يهتدى به فى سيره طول العام ، إلى المكان الذى يقصده ، دون خطأ يذكر .

ووجد المساح والمهندس نقطة ثابتة الموقع والمقاسات والاتجاه .

ووجد الفلكى نقطة واضحة غاية الوضوح ، ثابتة على الأفق ، ينسب إليها مواقع النجوم ، ومسارات الكواكب ، ودورة الشمس والقمر ، فيراقب سيرها ، ويقيس زواياها ، ويسجل أوضاعها بالنسبة إلى هذه النقطة الثابتة .

١٦ – أقيم الهرم الثانى ، وهو أصغر من سابقه ، على ربوة عالية ، فأصبحت رأسه فى نفس مستوى رأس الهرم الأكبر ، أو أعلى قليلاً ، وتحدد مكانه إلى الجنوب الغربى من الهرم الأكبر ، فأصبح قطراهما الشماليان الشرقيان واقعين على خط مستقيم واحد ، وأصبح وضع أحدهما إزاء الآخر دلالة حاسمة على الاتجاه .

ثم أقيم الهرم الأصغر إلى الجنوب الغربى من الهرم الأوسط ، ليعين الرائى على تمييز الهرم الأوسط عن الأكبر .

وبهذا انضبطت البوصلة ، بلا لبس ولا خطأ ، لتكون أعجوبة الفكر الإنسانى .

وفكرة هذه البوصلة استخدمها فن العمارة الإسلامية عند بناء المآذن العالية ، إذ يوضع فى رأس المئذنة هلال كبير ، يبدو لأول وهلة نوعًا من الزينة ، لكن إذا نظر إليه الرائى ، بحيث تكون دائرته كاملة الاستدارة ، يكون اتجاه القبلة ، ويراعى البناءون ضبطه على هذا الوضع بدقة كبيرة ، أما المساجد ذات المئذنتين ، فيضبط الخط الوهمى الموصل بين المئذنتين ، بحيث يكون عموديا على اتجاه القبلة .

١٧- ولا يضير بعد ذلك أن يدفن فى هذه الأهرامات بانوها ، فالمساجد العريقة قصد منشئوها إلى تحقيق أغراض دُنيويه وأخروية عديدة ، ليس أقلها إقامة الصلاة ، واجتماع المسلمين ، ونشر التعليم ، وإيواء المسافرين ، وجمع الصدقات ، إلخ ، وإلى جوار ذلك يدفن الملك أو السلطان أو الولّى الصالح فى أحد أركانها ، تخليداً لذكراه ، وتذكيراً للناس بفضله .

فالقول بأن الهرم بنى خصيصًا ليكون قبراً للملك ، لايقل سخفًا عن القول بأن المساجد قد بنيت لكى يدفن فيها السلاطين والأولياء ، أو أن السد العالى قد بنى لكى تنشأ خلفه بحيرة تحمل اسم جمال عبد الناصر ، أو أن قناة السويس قد شقت ليقام فى مدخلها تمثال ديليسبس .

١٨- لقد سمى القرآن الكريم الأهرامات (أوتادا) ، تسمية توحى بالثبات والرسوخ ، وامتداد الأسباب إليها ، ولم يسمها قبوراً .

١٩- زعموا أن الأهرام بناها رواد قدموا من كواكب بعيدة ، ثم رجعوا من حيث أتوا ، والثابت أن صناعة بناء الأهرام قد تطورت فى مصر على مدى حوالى ثلاثة قرون ، ابتداء من المصطبة الواحدة ، إلى المصطبتين ، إلى الهرم المدرج ، إلى الهرم الناقص ، إلى الهرم المدبب ذى الزوايا الحادة ، إلى

الهـرم المفلطح ذى الزوايا المنفـرجـة ، حـتى تكاملت ووصلت إلى ذروة الإتقان والضخامة فى بناء الهرم الأكبر .

ثلاثمائة عام من التجربة والخطأ والتعديل والتحسين لايستقيم لرواد الفضاء أن يعيشوها فى مصر إلا إذا تحولوا إلى مصريين - قلاع لاقبور ص٢٤٦ / ٢٦٥ .

ويعلق المهندس الموهوب على دعاوى علماء المصرولوچيا بقوله :

(إن كثيرا من الأفكار والتفسيرات والاستنتاجات التى تحفل بها كتب التاريخ والآثار المصرية القديمة ، والتى تبدو كما لو كانت أخطاء بشرية غير مقصودة - هى فى الحقيقة مغالطات مقصودة متعمدة ، حرص واضعوها على أن يدسوها على التاريخ المصرى القديم ، لكى يشوهوه ، ويحولوه فى نظر أبنائه - وفى نظر العالم - إلى تاريخ أمة من السفهاء والبلهاء والأذلاء ، تحكمها عصبة من الجبابرة المغرورين) - المصدر السابق ص٣٢ .

بقيت الإشارة إلى أن بناء المقابر فى الضفة الغربية للنيل لايعنى الربط بين غروب الشمس ونهاية الحياة ، لأن هذه النظرة السطحية تتنافى مع تقدم القوم فى علوم الفلك ، وتحديد مواقع النجوم ، وتحديد مطالع الشمس خلال ٣٦٥ يوما ، وبناء الأهرامات بهذه الدقة الهندسية المثيرة . . إنما قد يرجع الأمر إلى أسباب أخرى ، مثل طبيعة التربة ، وتوفر مواد البناء ، أو ماهو مما نجهل سره ، وكم فى حياة القوم ومعتقداتهم من أسرار ، وبخاصة أننا نجد أخناتون الذى حكم حوالى (١٣٥٢ - ١٣٣٦ ق . م) ، وينسب إليه توحيد العبادة لإله الشمس ، بنى مقبرته على الضفة الشرقية للنيل ، حيث أنشأ مدينة (آخت آتون) فى تل العمارنة . . وجاء على لسانه : (لسوف تقام من أجلى مقبرة فى الجبل الشرقى ، من آخت آتون ، لتكون مثواى هناك ، وكذلك مثوى الملكة نفرتيتى سيكون هناك أيضًا ، كما سيقام أيضًا هناك مثوى الأميرة مريت آتون ، فإن وافتنى المنية فى أى مدينة ، فى الشمال أو الجنوب أو الغرب أو الشرق ، فلسوف يؤتى بجثمانى لكى يدفن فى آخت آتون ، وإذا توفيت الملكة نفرتيتى فى أى مدينة ، فى الشمال أو الجنوب أو الغرب أو الشرق ، فلسوف يؤتى بها لتدفن فى آخت آتون ، وإن توفيت الأميرة مريت آتون فى أى مدينة ، فى الشمال أو الجنوب أو الغرب أو الشرق ،

فلسوف يؤتى بها لتدفن فى آخت آتون) - صناع الخلود ص ٢٣ .

ويلاحظ أن مقابر الأشراف كانت كذلك فى الضفة الشرقية ، فهل كان ذلك امتدادا للثورة الدينية على (البابوية الآمونية) ، أم أن التربة فى هذه المنطقة كانت العامل الأول فى الاختيار ؟

لو أن تغيير جهة الدفن من أمور العقيدة الجديدة لكان ثمة إشارة إلى خطأ العقيدة القديمة ، وحتى نصل إلى سبب يقينى ، أو أقرب إلى اليقين ، يمكن الاستعانة بخبر يقول : (إن تربة مصر ومناخها كانت تحفظ الجسم بعد الموت من البلى ، إلى درجة لاتتحقق فى أى بقعة أخرى من بقاع العالم) - فجر الضمير ص٦٣ - وهذا قول لايؤخذ (على علاته) ، لأنه من المستحيل أن تتميز كل تربة مصر بهذه الفضيلة ، وبخاصة فى الدلتا أرض المستنقعات ، ثم إن التربة غربى الصحراء المصرية ، وشرقى البحر الأحمر ، لاتكاد تختلف عن التربة المصرية ، وإلى عهد قريب كانت لحوم الأضاحى تجفف على جبل «منى» ، ثم تخزن عامًا أو أكثر ، وقد رأيت القوم فى منطقة القصيم ، وسط هضبة نجد ، يفعلون ذلك ، ومع هذا لم يهتد القوم إلى (الاعتقاد الملحّ فى الحياة بعد الموت) ، أو إلى فن التحنيط .

لو أن تربة مصر ساعدت على بقاء الجثة ، لما كانت حاجة إلى التحنيط ، وكان حسب الميت أن يحفر له شق فى الأرض ، ويهال عليه التراب ، أو يضاف إلى التراب ، قدر من الملح أو الجصّ ، ليعجل بامتصاص (الرطوبة) من جسمه ، لكن القوم – وقد تقدموا فى علمَ الطب ، وتفوقوا فى علم التشريح – اهتدوا إلى أعقد العمليات (باستخراج أنسجة المخ من خلال فتحتى الأنف ، ثم الأحشاء من فتحة فى جانب الجثمان ، ثم يقوم – المحنط – بتنظيف جوفه – الجثمان – بالماء ، ومعالجته بالدهون والزيوت ، ثم يغلق الفتحة بالخيوط) .

(ويقول **هيرودوت** : إن الجثمان يترك فى ملح النطرون سبعين يوما ، ثم يغسل ، ويغطى باللفائف ، مع أن عملية التحنيط كلها تستغرق سبعين يوما ، يخصص جزء منها للعلاج بملح النطرون) – الموتى وعالمهم ص ١٢٥ .

التقدم الطبى إذن كان العامل الأول فى الاحتفاظ بسلامة الجسم عن طريق التحنيط ، ومهما كان جفاف التربة والمناخ فإن الدفن – من غير معالجة للأحشاء وخلايا المخ – لايمكن أن يحمى من التعفن والتحلل وتخلُّق الديدان ، وما قد يبقى هى العظام التى يكتشف علماء الحفريات – فى أماكن مختلفة من العالم – مايسمونه الإنسان الأول أو الدينا صور ، من غير حاجة إلى مواصفات بتربة مصر ومناخها .

لقد كان التقدم الحضارى المصرى متكاملاً ، فالطب لايمكن أن ينهض مع الإخفاق فى الهندسة أو فى الصناعة والزراعة ، أو فى الآداب والفنون ، والعلوم المادية والروحية . . إنك لاتستطيع أن تحكم على صحة إنسان من خلال جزء من أجزائه ، (فالجسد الواحد – كما يقول المصطفى عليه الصلاة والسلام – إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر) .

ولقد روى هيرودوت عن تقدم مصر فى الطب أن (الطب عند المصريين مقسم كماياتى : كل طبيب يعالج مرضًا واحدًا ، لاجملة أمراض ، والأطباء يملئون كل مكان ، فبعضهم لأمراض العيون ، وبعضهم لأمراض الرأس ، وبعضهم لأمراض الأسنان ، وبعضهم للأمراض الباطنية ، وبعضهم للأمراض

التى لايعرف لها مكان معين) - على هامش التاريخ المصرى القديم ص ٨ - هذه شهادة رجل زار مصر بعد أن أخذ الخط الحضارى يتضاءل ، ومع هذا كان الطب يحتفظ بمظاهر شموخه ، وهو التخصص الدقيق ، وليس الممارسة العامة .

كانت أهم مراكز الطب فى المعابد ، وبخاصة معبد عين شمس ، ومعبد الإلهة (نيت) فى صالحجر ، ومعبد الإله (أنوب) فى بلدة (ليتوبوليس) ، ومعبد الإلهة (باست) - القطة - فى تل باسطة . . وكان كاهن تلك الجهة يحمل لقب كبيرالأطباء . . وأقدم كتاب فى الطب يرجع تاريخه إلى عصر الملك (أوسافيس) من الأسرة الأولى .

وفى بردية سميث التى ترجع إلى عهد الدولة القديمة ، جاء فى القسم الأول منها معلومات مرتبة ترتيبًا علميًا منطقيًا ، فقد فحص مؤلفها الجسم الإنسانى من الرأس إلى القدمين ، ورتب مادتها بطريقة دقيقة ، وهى أوصاف طبية وبحوث عن حالات خاصة بجراحة العظام والعلاج الظاهرى .

وقد دون مؤلف هذه البردية عشر مشاهدات (حالات) عن الجمجمة ، وسبعا عن الأنف ، وعشرا عن الفك والأذن والشفتين ، وستّا عن الزور والرقبة، وخمسا عن الترقوة والكتف ومشط الكتف ، وستا عن الصدر ومقدمته، وواحدة عن العمود الفقرى . . ومما يؤسف له أن الورقة قطعت عند هذا الحد .

والظاهر أنه كان يوجد فى مصر - فى عهد الدولة القديمة ، بل فى كل عصور التاريخ المصرى القديم - أطباء يعالجون بالطرق العلمية ، وبجانبهم طبقة ثانية من الأطباء يعالجون بالسحر والطب معا ، وسبب ذلك طغيان العقائد الدينية ، وتدخلها فى الأمور الدنيوية ، هذا إلى تمسك المصرى بالمعتقدات القديمة الخرافية التى ورثها عن أجداده منذ عصر الأسرات ، ولاتزال آثارها باقية إلى الآن عند عامة الشعب المصرى - مصر القديمة جـ ٢ ص ٣٦٦ / ٣٧٠ .

وليس من الخرافة ماذكر من أنه (بعد تحنيط الجثة وتكفينها يجمع كل مالامسها ، اعتقاداً منهم بأن استيلاء العدو على شئ من ذلك ، وإن كان شعرة من رأس ، تعتبر سلاحًا سحريًا يؤذى المتوفى ، من أجل ذلك كانت كل الخِرق

القذرة والفخار المهشم ، وماتبقى من الأملاح والخشب وعلامة الحياة ، والآلة السحرية ، تجمع كلها ، وتوضع فى نحو ٦٧ حجرة كبيرة ، ثم تختم وتوضع فى حجرة التحنيط) - مصر القديمة جـ٣ ص ١٠١ .

إن هذا الخبر مع ماتغشّيه المبالغة - يعبر عن الحرص على عدم انتشار الأمراض ، لأن هذه الأدوات الملوثة يمكن أن تكون سببًا - فى بيئة حارة - فى انتشار الأوبئة ، ولما كان من الخدم والعاملين فى المقبرة من يطمع فى هذه البقايا صِيغ الخبر صِيغة (خرافية) تخدم الهدف المقصود .

* وقد اعترف أعداء مصر بفضيلتها فى مجال الطب . . هذا قمبيز الذى (كان يقف من مصر وآلهتها موقف الساخر المحتقر ، وقد انتهب تماثيل الآلهة والكتب من المعابد ، ليبين للفرس أى عجيب استولى عليه) . . هذا القمبيز اتخذ الطبيب المصرى (اوزا - حر - رسنت) طبيبا خاصا له ، وقد عرف هذا الطبيب كيف يخضد شوكة هذا القائد الفارس المتعنت ، (فبين لجلالته مقدار عظمة «سايس» ، حتى ذهب الملك الفارسى إلى معبد «نيت» ، وركع أمام سيدته ، كما فعل كل ملك ، وقدم كذلك قربانًا كبيراً من كل شئ طيب إلى «نيت» العظيمة ، أم الإله ، وللآلهة العظيمة فى «سايس») .

(وفى عهد داريوس استمر هذا الطبيب الخاص يؤدى واجبه الوطنى ، فأرسله الملك إلى مصر ليعمل من جديد فى «سايس» ، فزود «بيت الحياة» ، مدرسة الكهنة ، بجملة الكتب والأدوات التى كانت تملكها وتم نهبها . . وقد شيد داريوس معبداً لآمون فى الواحة الخارجة ، وفى عهد داريوس تم هدم معبد ليهود أليفانتين الذى كان شوكة فى عيون كهنة «خنوم») ديانة مصر القديمة ص٣٦٩ / ٣٧٠ .

وحَسبُ المصريين أنهم نشروا فى العالم عادة الختان ، وعْيا منهم بخطورة (القلفة) على العلاقة الزوجية ، وعلى صحة الزوج بصورة خاصة .

هذا مع أن (الليبيين - على حدود مصر الغربية ، ولهم علاقات متنوعة بالوجود المصرى - كانوا لايختتنون ، ومن ثم فإنهم كانوا يتعرضون للهوان ، بأن تقطع الأعضاء التناسلية لمن يذبح منهم - فى الحروب - وتجمع فى كومات

لتقدم للملك ، أما الشردن والشكلس والأتاواشا والتورشا ، فكانوا يختتنون كما يختتن المصريون ، منذ عهود بالغة القدم ، ومن ثم لاينالهم من الهوان ماينال أولئك ، فيكفى بقطع أيديهم وتقديمها بدلا من أعضائهم التناسلية) - مصر الفراعنة ص ٢٩٩ .

وهذا خبر تعوزه الدقة ، لأنه لامبرر لتمسك الليبيين بعدم الختان ، من دون بقية الشعوب المحيطة ، وعلى فرض أنهم - إباء وكبرياء - احتفظوا بهذه العادة ، فإن العدو كان يمكن أن يكتفى بقطع الأذن والأنف ، إذا أراد الاحتفاظ بدليل شجاعته وانتصاره ، وإلا فما الفرق بين قطع عضو أغلف ، وآخر غير أغلف ، مع أن النتيجة واحدة ؟!

هامش ..

فى حديث الدكتور سيد كريم عن إيمحوتب (الطبيب الساحر ، إله الطب وطبيب الملك الخاص) - مجلة الهلال ، مايو ١٩٩٧م - ذكر أن إيمحوتب أتاحت له إحدى وظائفه الرسمية ، كمشرف على الصحة العامة ، النهوض بالطب فى مصر ، فأقام أول جامعة للطب بجانب معبد بتاح الرئيسى بمنف ، وجند كهنة معبد أون للإشراف وإدارة تلك الجامعة .

وأقام إيمحوتب للملك زوسر مدينة خاصة لمخازن العطارة والنباتات الطبية ومزارعها ، أطلق عليها اسم (بوتيج) أى مخزن العطارة ، وتحمل مدينة أبو تيج الحالية اسمها القديم ، واسم (أبو تيك) فى الألمانية واللاتينية يُطلق على الصيدليات ، كما أطلق اسم (فارماسى) - وهو من أسماء مخازن العطارة والأدوية المصرية - على الصيدليات فى الإنجليزية والفرنسية .

ويضيف الدكتور كريم أن البحث العلمى اكتشف أن المصريين كانوا أول من استعمل الإبر الصينية فى التخدير والعلاج ، صنع بعضها من العاج ، ونقشت عليها بعض التعاويذ . . وعرف المصريون (البندول) وعلاقة أشكاله وحركته بالإشعاعات الجسمانية ، وسيطرتها . على الجسم ، فبرعوا فى استغلاله فى التشخيص والعلاج . . كما عرفوا التنويم المغناطيسى والطب الروحانى ، والطب النفسانى ، والأسرار العلمية لكل منها ، وأطلقوا على كل علم من تلك العلوم

اسم السحر ، لتبقى أسرارها بعيدة عن الفكر والممارسة .

وكان إيمحوتب يرى أنه لكى يتحقق الشفاء يجب الإيمان برب السماء ، وقال : إن الإله لايتقاضى أجراً على ما يمنحه للبشر من نعم وهبات ، فمنع النذور التى كانت تقدم لكهنة المعابد لرضاء الآلهة ، وطلب ألا تقدم النذور إلا بعد أن يتحقق الشفاء ، فتكون تعبيرا عن الشكر والإيمان .

ويذكر جوردون تشيلد (تقدم الإنسانية ص ١٨٥) أنه كانت كتب طبية فى وادى النيل ، منذ الأسرة الثالثة ، ولدينا أمثلة لهذه الكتب فى الفترة التى تلت الألف الثانية ق . م . أى بعد بردية إدوين سميث .

- ٦ -

يقول بيير مونتيه : (لقد فرضت التقوى على المصريين أن يضعوا النيل فى صف الآلهة منذ أقدم العصور ، وأطلقوا عليه اسم حابى **Hapi** ، وصوروه فى هيئة رجل شديد الامتلاء ، له ثديان متدليان ، وبطن مكتنز ، يشده حزام ، وفى قدميه نعل ، وهذه إحدى علامات الثراء ، ويتوج رأسه إكليل من النباتات المائية ، ويداه تنشران علامات الحياة ، أو يحمل بين يديه مائدة مثقلة بالقرابين ، تكاد تختفى تحت أكوام من السمك والبط وباقات الزهور وسنابل القمح) .

(وكانت تصنع للمعبود «حابى» آلاف من التماثيل الصغيرة من الذهب والفضة والنحاس ، أو الرصاص و الفيروز واللازورد والقيشانى ، ومن مواد أخرى ، وكذلك تصنع خواتم وأقراط وتمائم وتماثيل صغيرة لزوجة حابى ، واسمها «ربيت» ، وفى اللحظة التى يجب أن يرتفع فيها منسوب مياه الفيضان كانت تقدم القرابين للمعبود « حابى » فى كثير من المعابد) - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص ٤٢ .

هذا الوصف التمثيلى لمآثر النيل على المصريين هو من وحى اللغة المصورة التى عرفت بها الكتابة الهيرغليفية ، بقدر ماهو من وحى الخيال المصرى الذى يجسّد المعانى ، وبقدر ماهو من وحى الوجدان المصرى الذى اشتهر بالتقوى ، وبالعرفان بالجميل ، وبالسخاء فى حمد المنعم وشكره ، ومن ثم كان التأليه أيسر تعبير عن الامتنان والثناء على من هو جدير به .

ولأن فيضان النيل هو قمة مآثره ، وأبلغ مرحلة من مراحل التأثير فى حياة مصر والمصريين فقد كانت العناية بهذا الفيضان تستدعى حشد كل القوى من أجل الاستفادة منه والحيلولة دون طغيانه ، ومن أجل هذا جعلوا له مقاييس يقيسونه بها كل سنة ، فأقاموا له الأرصاد عند الحدود الجنوبية ، وسجلوا فى سجلات خاصة درجات عُلُوه وانخفاضه في أوقات معينة من كل سنة ، ونقشوا هذه الدرجات على بعض حجارة المعابد .

أصبح النيل جزءًا رئيسيًا من تاريخ مصر ، كما أصبحت مصر جزءا رئيسيا من تاريخه . . ومن ثم كان الحرص على تدوين كل ما يتصل بهذا النيل من

أحداث ، وبخاصة فى الأعياد والاحتفالات التى كانت تعبر عن وفاء المصريين لوفاء النيل .

و (لو أنهم كانوا يلقون فيه عروسًا كل سنة لكى يفيض ، لأشاروا إلى هذه العروس حين إشارتهم إلى الفيضان ودرجاته) .

(أضفْ إلى ذلك أن فيما دونوه عن النيل ذكرًا لسنى جدب ومجاعة رزئت بها مصرُ بسبب انخفاض الفيضان ، لم يذكُروا فى ذلك عروسا قدمت ، أو كانت تقدم ، ولو أن هناك عروسًا لوجب أن تذكر فى خلال ذكرهم تلك السنين) .

(ثم إن فيما تركه لنا المصريون وصفًا لاحتفالات دينية كانت تقام للنيل ، المرفوع إلى صف المعبودات ، وقصائد وجهها إليه الشعراء ، وأغانى تغنى به فيها المغنون . . هذه الاحتفالات والقصائد والأغانى كلها خالية من أية إشارة إلى إلقاء فتاة فيه تسمى عروس النيل ، ولو أن قصة هذه العروس صحيحة لماخلت منها) - على هامش التاريخ المصرى القديم ص ١٦ / ١٧ .

و (كانت تقام حفلة كل سنة ، فى موعد معين ، من أجل دعوة النيل إلى الفيضان . . كانت تقام فى منطقة جبل السلسلة - بين الأقصر وأسوان - وكان يحضرها الملك فى كثير من الأحيان ، فإذا لم يستطع حضرها مندوب عنه) ، وقد تم تدوين وصف كامل لكل حفل ، (وفى هذا الوصف أنه كان يذبح - على سبيل القربان للنيل - عجل أبيض وإوز وطيور أخرى ، ثم كان يلقى فيه قرطاس من البردى ، يدعى فيه النيل إلى أن يفيض ، وهذا القرطاس هو ما كان يلقى فيه ، وكان الكهنة يزعمون أن للكتابة فيه قوة سحرية) .

(وظاهر أنه لو كانت هناك عادة جارية بتقديم عروس لوجب أن تقدم فى هذه الحفلة ، ولكن واحدة من اللوحات الثلاث - التى جاء فيها ذكر هذه الحفلات - لم تشر إلى شئ يسمى عروسا تلقى أو لاتلقى ، وإنما أشارات إلى القرطاس من البردى) .

(على أن كلمة « عروس النيل » ليست اختراعًا محضًا ، بل هى كلمة كان

المصريون يقولونها ويريدون منها «أرض مصر» ، وكان معناها عندهم أن النيل متى فاض دخل على أرض مصر كما يدخل الرجل على عروسه) - المصدر السابق ص ٢١ / ٢٢ .

ومن المستحيل أن تبلغ مصر هذا الشأو الحضارى السامق ، ثم ترتكس خلال عشرين عاما من العذاب والقهر لتبنى مقبرة فى صورة هرم ، أو تلقى بعروس فى النيل لكى يفيض ، أو تعبد قردًا أو قطة .

إن الذين رصدوا الأفلاك ، وصنعوا التقويم ، وقاسوا الزمن ، وصنعوا الساعة ، واخترعوا الكتابة ، وبلغوا فى الطب مبلغ التخصص الدقيق ، وتفننوا فى هندسة البناء - هم الذين أنشئوا أسطولاً صغيراً ، فى عهد الملك «نكاو» ، كما روى هيرودوت - ليكتشف ساحل أفريقيا ، فنزلت السفن البحر الأحمر ، وسارت جنوبا لمدى ثلاث سنوات ، ثم عادت من بوغاز جبل طارق إلى مصر ، محملة بجميع خيرات أفريقيا ، عن طريق الموانئ التى مرت بها ، (وكان مما ذكره هؤلاء الملاحون أنهم ساروا وكانت الشمس تشرق عن يسارهم ، لكنهم وصلوا إلى نقطة أخذت بعدها الشمس تشرق عن يمينهم) .

وفى عهد «نكاو» أيضًا فكر المصريون فى توصيل البحرين الأحمر بالمتوسط ، (وذلك بعمل قناة تبدأ من مكان على مقربة من الزقازيق ، حتى تصل إلى البحيرات ، فى نقطة قريبة من مدينة الإسماعيلية حاليا ، وهى قناة قديمة أنشئت على الأرجح فى أيام الدولة الحديثة ، لكنها أهملت حتى عفت آثارها) .

ويحكى هيرودوت (أن «نكاو» تحمس للمشروع ، ونفذ الجزء الأكبر منه ، لكن نبوءة أن هذه القناة ليست فى صالح مصر ، وأنه لن يستفيد منها إلا الأجانب ، وأن الآلهة تأمره بترك العمل فيها ، فانصرف عن المشروع فجأة ، لكن هذا المشروع بعينه أتمه «دارا» الفارسى لمصلحة بلاده) - مصر الفرعونية ص٤٢٥ .

ولم يكن هذا النشاط البحرى حديث عهد فى مصر ، إذ كان للملاحة أثر فعال فى معتقدات القوم الدينية وفى شعائرهم ، فكان فى نظرهم أن الإله «رع» يسير فى الفجر فى سفينة الصباح ، وعند الغروب يسبح فى سفينة الليل ، أما النجوم فكانت تسبح فى قواربها الخاصة ، وكان للموتى قوارب لخدمتهم ، كانت توضع نماذج منها فى قبورهم .

وتـدل النقــوش على أن أول أسـطـول بحــرى يرجع إلى الملك سنفــرو (٢٦٨٠ - ٢٦٥٦ ق.م) ، أول ملوك الأسـرة الرابعة . . إنه فى عصر هذا الملك عاد من بلاد سوريا أربعون سفينة محملة بخشب الأرز أو فى مدى عامين صنعت عدة سفن ، طول كل منها نحو ١٠٠ ذراع ، هذا عدا ٦٠ سفينة أقل حجمًا ، ومازالت كتل من أخشابه فى حالة جيدة داخل هرمه القبلى فى دهشور .

وتورط بعض المؤرخين فقال : (لابد أن الملاحة كانت تعتبر فى حيز العدم فى عهد الفترة الأولى من تاريخ مصر ، وذلك لأن عزلة أهلها عن باقى العالم قد منعتهم من المغامرة فى عرض البحار ، وأنهم لم يقوموا بالملاحة إلا فى أواخر الأسرة الثامنة عشرة) ، ثم قال : (والسبب الذى منع المصريين أن يكونوا ملاحين عظماء هو السبب الذى حال دون عظمتهم التجارية ، وفى الوقت الذى كان فيه الفينيقيون يقومون بكل أعمالهم التجارية بطريق البحر مع جميع الدول ، كانت تجارة مصر محصورة فى بلادها ، وجعلتهم تحت رحمة الأجانب الذين كانوا يقومون بالأعمال التجارية الخارجية لهم) .

وقد فات قائل ذلك أن سكان وادى النيل - منذ أقدم العهود - قد وجدوا فى نهرهم المنقطع النظير مدرسًا عظيمًا يتعلمون على يديه أول درس فى الملاحة عرف فى تاريخ البشر ، فقد كانوا يعيشون طوال العام على شاطئيه الخصيبين ، وكان فيضانه السنوى يجبرهم على خوض الماء فى كل وقت ، وفى مدة الفيضان وهبوب الرياح لم تمنعهم المخاطر من اتخاذ النيل أهم طرق المواصلات ، ثم إن سواحل مصر البحرية طويلة ، وكان يوجد فى مصر موان زاهرة ، وأساطيل هذه الموانى تقوم برحلات تجارية مع الموانى السورية . . وإذا كان المؤرخون قد وقفوا طويلاً عند الأسطول الذى وجهته حتشبسوت إلى بلاد بونت (الصومال) ، وهو يؤكد اتصال التجارة المصرية بأسواق التوابل والعطور فى أرض اليمن - فمرد ذلك إلى ندرة الأخبار التى وصلتنا ، وإلى أسلوب (الدعاية) الذى اصطنعته حتشبسوت لأعمالها ، مع أن أول رحلة دونت إلى بلاد «بونت» هى التى أرسلها الفرعون (سحورع) ، وقد دُوّن فيها أنها أحضرت المر ومعدن الألكتروم والأخشاب بكميات وافرة ، بالإضافة إلى التوابل والعاج ، وغيرها من منتجات البلاد الحارة .

وقد عثر حديثًا على لوح حجرى بهرم هذا الملك بأبى صير ، وجدت عليه
وم لأربع سفن عظيمة مشحونة بالأسرى الفينيقيين حولهم بحارة مصريون ،
أن ساحورع (٢٤٥٨ / ٢٤٤٦) ، ابن الأسرة الخامسة ، سيّر أسطوله فى
حرين الأحمر والأبيض المتوسط ، قبل حتشبسوت (١٤٧٣ / ١٤٥٨) ،
الأسرة الثامنة عشرة ، بنحو ألف عام .

وفى نقوش مقبرة بأسوان – من عهد (بيبى الثانى) – نقرأ أن (خنوم حتب)
خر قائلاً : (لقد رافقت سيدى خوى) إلى بلاد بونت إحدى عشرة مرة – مصر
ـية جـ ٢ ص ٢٢٦ / ٢٢٧ و ٢٦٠ و ٢٦٥ .

ثم إن ضخامة (مراكب الشمس) التى وجدت غربى الهرم الأكبر دليل قوى
ـ عراقة مصر فى صناعة السفن ، مع أن أرضها لم تعرف بإنتاج الأخشاب .

* ولم تكن مصر لتمد أذرعها بعيدًا عن حدودها إلا وقد وطدت أركان
كتها بجيش قوى ونظام سياسى قويم .

يقول بريستيد (تاريخ مصر ص ١٩٤) : يعتبر التقدم الحربى المصرى أقدم
عرف من نوعه فى التاريخ ، فقد قسم الجيش المصرى إلى فرق وفيالق ،
سمت قواته إلى قلب وجناحين ، فانتظم بذلك نظام المعارك الحربية ، وتمكن
ـريون من القيام بحركات الالتفاف حول أعدائهم ، وشملت معدات الحرب
ـوس والنشاب والبلط ، وتمرن أفراده على إطلاق النبال وتسديدها دفعة
حدة ، فعظمت منزلة فرقة النبالة المصرية بين جيوش العالم ، ولما جلب
كسوس الخيل تزود الجيش المصرى بالعجلات الحربية ، وصار للفرعون
طبلات لآلاف الخيول الجيدة ، كما صار له حرس كامل العدد والعدة ، له
ـاره الخاص ، ويتبع الملك فى غُدواته وروحاته .

روى أن سنفرو أرسل حملة إلى بلاد النوبة فى الجنوب ، ليعيد الأمن
طمأنينة إلى حدود مصر الجنوبية ، وقد عاد جيشه بسبعة آلاف أسير ، ومائتى
ـ رأس من الثيران والأغنام . . وأرسل حملات التعدين إلى شبه جزيرة سيناء ،
ى اعتبرته الأجيال إلها ساميا للمنطقة ، إلى جانب الإلهة حتحور ، والإله
ـيد ، لأن ماقام به من تحصينات للحدود الشرقية أصبح المثل الذى يحتذى .

أما عن جَيْشَيْ تحوتمس الثالث ورمسيس الثانى ، وما دخل عليهما من نظم حربية ، وفنون قتالية ، وما أتيح لهما من فتوحات مدت حدود مصر إلى أضعاف مساحتها - فالحديث يطول ، وقد تتم مقارنات مع بعض القادة الذين نشطوا فى المجال الحربى ، بعد ما وصلت القيادة المصرية إلى مرحلة (الاستنزاف) ، لكن ما احتفظ به التاريخ الحضارى لمصر هو أن تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق . م) كان يصطحب معه فى حملاته كتابًا يؤرخون كل مايحدث ، وإن هذا الفاتح العظيم (أدرك أنه لن يستطيع الإبقاء على إمبراطوريته إذا لم تقم على أساس المودة ، لهذا لم ينتقم من الأمراء الذين حاربوه ، بل قربهم وثبتهم فى وظائفهم ، وقبل منهم الولاء بعد أن أقسموا له يمين الطاعة ، ورأى أن يأخذ معه بعض أبنائهم ليتعلموا فى مصر مع أبنائه ، ومع أبناء كبار رجال الدولة ، ليشبّوا مؤمنين بصداقة مصر لهم ولبلادهم ، ولكى يرتبطوا منذ طفولتهم وشبابهم براوبط الصداقة مع الأمراء المصريين ، ومع أبناء كبار الموظفين ، وبنى مدرسة فى قصره بطيبة لهذا الشأن) - مصر الفرعونية ص ٢٧٧ و ٢٨٣ ، ومصر القديمة جـ ٤ صَ٣٩٧ و ٤٠٩ .

وتجلى وعى تحوتمس الحضارى فى أنه جعل إدارة البلاد المالية والقضائية والدينية بعيدة عن رجال الجيش ، ليتفرغوا لبناء الإمبراطورية ، لا ليتحولوا إلى زنابير همها أكل الرحيق ، وامتصاص قدرات البلاد الاقتصادية والإدارية والسياسية ، ولا أقول الحجر على كافة الحريات ، كما هو حادث فى جميع الدول النامية اليوم .

لو أننا تتبعنا الجذور الحضارية لمصر لتبين لنا أن ماتم تدوينه فى النقوش الجدارية أو الحجرية ، أو فى قراطيس البردى ، أو ماعبرت عنه هياكل المعابد والأهرامات والتماثيل والمسلات - لم يكن مجرد قَدَر لَحق بهذه البلاد ، بسبب من الموقع أو المناخ ، إنما كان ثمرة كفاح طويل مرير ، قَد يكون الموقع والمناخ ساعدا على استثماره ، لكن مما لاشك فيه أن الذين أقاموا على أرض مصر - منذ ماقبل التاريخ المدون - كانوا على مستوى التحديات الطبيعية التى ابتلوا بها ، وإلا فعلام تتحدث هذه المخلفات التى بقيت منذ العصر الحجرى ؟!

سكاكين ذات حدين ، كل منهما يماثل الآخر ، وأساور ، ورءوس سهام ، كلها من الحجر الصوان ، يشهد مورجان **J. De morgan** أنها (ليست نافعة فقط ، بل هى أعمال فنية عجيبة ، تفوق جميع ماخلق الإنسان فى عصر الحجر المصقول فى جميع البلاد الأخرى) .

ومن مخلفات المصريين فى هذا العصر عظام وجلود وألواح من العظام ، عليها رسوم مختلفة ، تبين - كما يقول مورجان - (أن المصرى - إذ ذاك - لم يكن يوجه همه إلى صيد الحيوانات ليأكل لحمها فقط ، بل كان يوجه همه فى صيدها إلى غرض آخر هو اقتناص مايمكن استخدامه منها ، كالكلب والغزال والخروف والثور والحمار) .

ووجدت من هذه المخلفات حبوب من الشعير والذرة والقمح ، ووجدت أسلحة محاريث مصنوعة من الحجر الصوان ، فدلت هذه وتلك على أن المصرى - فى عصر الحجر المصقول - عرف الزراعة ، واستطاع أن يستخلص منها النباتات الصالحة لغذائه من النباتات الضارة - على هامش التاريخ المصري القديم ص ٢٨ .

وتكلم دريتون عن حضارة البدارى فقال : (. . . وكان النحاس فى ذلك الوقت قليلاً ، فكان استعماله مقتصراً على الأدوات الصغيرة ، كالدبابيس التى تستخدم لتعليق الجلود ، أوكالإبر ، أو أسنان الخطاطيف ، أو المكاشط ، أو أزاميل النجارة ، وقد عرف المصريون - فى ذلك الوقت - أنه قابل للانثناء ، وأنه

قليل الصدأ ، فكانوا يصنعون منه تلك الأدوات ، لكنهم كانوا يصنعونها منه وهو على حالته الطبيعية ، وبطريقة الطَّرق والصقل) .

وقال كل من موري ودافي : (تَفَوَّق سكان وادى النيل تفوقا لم يكن فى استطاعة الأمم الأخرى أن تقاومه)- المصدر السابق ص ٣٢ / ٣٤ .

ويذكر المصريون فى سجلاتهم وأساطيرهم أن العلوم قد اخترعها من نحو ثمانية عشر ألف سنة قبل الميلاد (تحوت) ، إله الحكمة المصرى ، فى خلال حكمه على ظهر الأرض ، والذى طال زمانه - فى تقديرهم - ثلاثة آلاف عام ، كما أنهم يذكرون أن أقدم الكتب فى كل علم من العلوم كانت بين عشرين ألف مجلد وضعها ذلك الإله العالم .

ويرى المؤرخ المصرى مانتون الذى عاش سنة ٣٠٠ ق . م أن (تحوت) وضع ستة وثلاثين ألف كتاب .

وهذه العلوم (الإلهية) أعانت المصريين - فى عهد الأسرات الأولى - على صناعة البرونز بمزج النحاس بالقصدير ، وصنعوا منه بعدئذ أدوات وآلات تفيد فى الزراعة والصناعة ، ثم مخارط وأزاميل ومثاقيب أقسى أحجار الديوريت ، ومناشير تقطع ألواح الحجارة الضخمة لصنع التوابيت ، ونحت التماثيل .

يقول بسكل : (إذا فاضلنا بين قدرة المصريين الفنية وقدرتنا نحن الآن ، تبين لنا أننا كنا - قبل اختراع الآلة البُخَارية - لانكاد نفوقهم فى شئ) .

ولقد كان فن الهندسة عند المصريين القدماء أرقى من كل ماعرفه منه اليونان أو الرومان ، أو حتى ماعرفته أوربا قبل الانقلاب الصناعى ، ولم يتفوق عليهم فيه إلا عصرنا الحاضر -أبو سمبل ص ٩٥ ، ١٠٢ .

* واستمر التقدم الصناعى الفنى ، حتى إذا وصلنا إلى عهد الملك أمنحوتب الثانى (٢٠٦١ - ٢٠٢٠ ق . م) نجد مثَّاله (إرتى سن) مرسومًا هو وزوجته وأولاده على إحدى اللوحات ، ويفتخر بأنه كان يعرف كيف يرسم حركات التقدم والتأخر ، وحركات رسم الرجل وجسد المرأة ، وكيفية رفع الذراع عند صيد فرس البحر ، وحركات الذى يجرى ، وذكر أن غيره لم ينجح فى عمله هذا غيرابنه الأكبر - مصر الفرعونية ص ١٨٩ .

وهذا الفخر من السيد (إرتى سن) ليس بشئ إذا وضع فى الاعتبار التقدم ـائق الذى أحرزته مصر فى مجالات كثيرة من العلوم والفنون والآداب . . لقد ذكر عن الفنان المصرى فى عهد سنفرو - أى قبل السيد (إرتى سن) بستمائة ـام - وصل إلى حد لم يستطع أحد أن يتفوق عليه فى العصور التالية ، إلا فى ـالات قليلة - المصدر السابق ص١٠٤ .

وهذا فنان آخر يقول : (بالإضافة إلى أنى فنان موهوب فى فنى ، فإنى على ـر من العلم يفوق المستوى المألوف . . إنى أعرف تمامًا الأوضاع الدقيقة لتمثال رجل ووقفة المرأة ، وكيف يتهيأ الرجل ليطعن بالحربة ، إننى على علم بنظرة ـعين الخاطفة ، بالدهشة التى تعترى الشخص الذى يستيقظ من نومه ، وبحركة ـاع رامى الرمح وهو يرفع ذراعه ، ومدى ميل جسم الإنسان وهو يجرى . . ـرف سر تركيبات لاتقوى النيران على حرقها ، ولا تستطيع المياه إذابتها) - لحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص٢١٥ .

ولقد عبرت اللغة المصرية القديمة عن إجادة الفنان : نحاتا أو رساما أو ـاشا ، فأسمته (سعنخ) أى المحيى ، الذى يجعل الشئ يحيا ، وترتب على هذا ـ الفنان كان يرسم الحيوانات والحشرات الضارة غير كاملة ، حتى لاتدب فيها لحياة ، فتلحق الأذى بالمتوفى - مصر القديمة جـ٣ ص ٣٢٥ .

* ولقد انعكس التطور الفنى على جميع مظاهر الحياة . . فبعد الكشف عن ـض الطريق الموصل بين المعبد الجنازى ومعبد الوادى للملك « وناس » - آخر لوك الأسرة الخامسة - ألقى ضوء على بعض الحقائق الجنازية والاجتماعية .

كان هذا الطريق مبنيًا بالحجر الأبيض ، ومسقوفًا بقطع ضخمة من نفس لحجر ، فيها منافذ لإضاءة الطريق . . وهذا السقف مزين بالنجوم ، لتمثل فيه ـسماء ، أما جانبا الطريق فقد نقشا بمناظر غاية فى الإتقان ، بعضها جنازى ، البعض الآخر يمثل الحياة العامة ، وحياة البلاط ، فنجد مثلاً حاملى القربان ـهبون نحو الهرم ، وآلهة مختلفين يباركون الملك ، ونجد مناظر تمثل الملك وهو ـقبل القربان ، وأخرى وهو يحارب الأعداء ، ونشاهد رجال البلاط آتين فى ـضوع يقدمون آيات الولاء للملك ، بينما يصْطفّ رجال الجيش أمامه ، كل

يحمل لَقَبه . . ونرى مناظر الزرع والحصاد ، ونباتات كل فصل ، وجَنْى الشهْد ، وتوالد الحيوان ، ونشاهد صيد حيوان الصحراء غزلانا وأسودا ، والنيل وأنواع السمك ، وطيور الحقل ، وبعض السفن المحملة بالأعمدة الجرانيتية ، وقطع الكرانيش التى كانت تستعمل فى تشييد المعبد الجنازى ، وقد وضعت على زحافات ، وربطت فى أسوان ، ثم وضعت فى السفن لتكون جاهزة لإقامتها فى أماكنها بمجرد وصولها ، وعثر على صور مراكب أعظم حجمًا من السفن النيلية ، فيها آسيويون أسرى ، كما كشف منظر للسوق المصرى ، وتبادل السلع وصنع الذهب ووزنه .

وعثر على تمثال الملك «بيبى الأول» – الأسرة السادسة – وهو آية فى دقة الصنع ، من النحاس ، يعد أعظم الكنوز التى عثر عليها علماء الآثار .

وقد شيد «أمنمحات الأول» – مؤسس الأسرة الثانية عشرة – قصرا ، وزينه بالذهب ، وحلى سقفه بأحجار اللازورد ، وكانت أبواب حجراته من النحاس ، ومصاريع الأبواب من البرونز .

وتفنن صانعو الحلى فى خدمة أميرات هذه الأسرة ، فجمعت حليهم بين الدقة المتناهية فى الصناعة والذوق الفنى الرفيع ، وتعد مخلفات هذه الأسرة من الحلى أبرز ما تحفل به المتاحف العالمية – مصر الفرعونية ص ٢٢٦ / ٢٢٧ .

ذكروا أن مجوهرات الملكة « خنمت » تتميز بدقة فنية ، تفيد أن الفنان المصرى فى الدولة الوسطى قد صعد فى مدارج الرقى والمدنية ، حتى وصل إلى ماوصل إليه رجل القرن العشرين من حيث الإنتاج الفنى الذى ينم عن حسن الذوق والمهارة .

ومجوهرات «سات حتحور» أخت سنوسرت الثالث التى وجدت فى مخبأ فى حجرة الدفن ، تعد كنزاً لايضارعه فى دقة الصنع إلا ماوجد فى (اللاهون) – مجوهرات خنمت – وقد وجدت صدرية للأميرة مصنوعة من الذهب ، ومرصعة بشغل دقيق من حجر الكرنالين ، وعجينة مطلية بالأزرق الفاتح والقاتم . . وتصميم رسم هذه الصدرية يشبه تصميم صدرية «نفرت» زوجة والدها ، وقد وجد مع هذه الصدرية أساور وعقود ودلأيات ومخالب

أسود ، وسلوك من الخرز المصنوع من الذهب والجمشت - مصر القديمة جـ ٣ ص٢٦٤ و ٢٩٥ .

* وفى عهد أمنمحات الثالث (١٨٤١ - ١٧٩٢ ق . م) بلغت محاكاة الطبيعة الصافية حدا لم يتسنّ بلوغها إلا فى عهد أخناتون ، ولاريب فى أن أحسن ماوصلت إليه يد المفتن فى الأسرة الثامنة عشرة يعد سوقيًا إذا ماقورن بما أخرجته يد مفتن الأسرة الثانية عشرة .

أما صور الملوك المنقوشة على الجدران وتماثيلهم المنحوتة فى الأحجار الصلبة فإنه - رغم تصوير أجسامهم بهيئة رسمية ، وتمثيلها حسب قواعد مرعية ثابتة منذ عهد بناة الأهرام - يدل على قوة التمثيل بدرجة لم تضارع حتى فى عهد الأسرة الرابعة ، ولايمكن للمرء أن يناقش صدق تصوير هذه الوجوه بغيرها ، فالمثال الذى صور الملك منتوحتب فى الدير البحرى قد وضع المثل الأول ، ثم حذا حذوه أولئك المثالون الذين أبرزوا لنا وجوه سنوسرت الأول فى قفط ، وسنوسرت الثالث فى سلسلة من تماثيله التى وجدت فى الدير البحرى - مصر القديمة جـ ٣ ص ٣٣٤ / ٣٣٥ .

وقد دلت الحفائر الحديثة على أن المهندس الفنان سنموت أزال بعض المبانى الدينية التى كانت موجودة لإقامة معبد الدير البحرى لحتشبسوت ، وقد زين الطريق الذى يبتدئ من باب المعبد شرقا إلى مسافة ٥٠٠ متر ، حتى يصل إلى باب آخر وجدت آثاره - بتماثيل « بو الهول » فى صورة الملكة نفسها على كلا الجانبين ، وكان الرواق السفلى مزينا كذلك بمثل هذه التماثيل . . وقد عثر على تماثيل الملكة فى صورة « أوزير » ، واحد منها فى النهاية القصوى من الرواق السفلى ، وآخر فى الرواق العلوى ، وفى قاعة العمد وجدت عدة كوى فيها تماثيل للملكة فى صورة «أوزير» . . وكان الرواق العلوى مؤلفًا من صنف من تماثيل «أوزير» تمتد بطول المعبد ، ويمكن رؤيتها عند العبور إلى الشاطئ الشرقى من عند معبد الكرنك .

وكانت تماثيل «بو الهول» مصفوفة على جانبى الطريق ، كل منها رابض على قاعدته التى يبلغ ارتفاعها نحو ثلاثة أمتار ، وعرضها نحو متر ، مزينة بإطارات

صُوِّر عليها أسرى يرسفون فى الأغلال ، فكانت هذه التماثيل تصور أمام الناظر موكبا مترامى الأطراف ، مؤلفا من تماثيل أسود ، نرى فيها قوة الفرعون تسيطر على مدن العالم المغلوبة على أمرها ، ولاشك فى أن هذه التماثيل - حينما كان يسطع عليها ضوء الشمس - تمثل صورة رائعة لما كان لمصر من قوة خارقة للعادة فى ذلك العهد ، ولكن لانكاد نتأملها حتى ندرك أن ذلك وهم كاذب ، فإن ذلك البطل الفاتح الذى صُور فى هيئة أسد ذى لحية هو فى الحقيقة امرأة قد جلست على العرش بمساعدة شرذمة من رجال البلاط ، ومن المحتمل أنها لم تر جيشًا غازيًا قط ، ومع ذلك نراها مرسومة وهى تطأ الأعداء بقدميها ، حتى أولئك الآشوريين الذين يسكنون بعيداً عن مصر ، ولم تكن للمصرين علاقة بعُد بهم .

وقد عثر على بقايا أكثر من مائة وعشرين تمثالاً من هذه التماثيل التى تصور الملكة فى صورة «بو الهول» ، لكن واحداً منها لم يكن سليما ، إذ أمر تحوتمس الثالث بتحطيمها جميعها - مصر القديمة جـ ٤ ص٣٢٣ / ٣٢٥ .

* وفى عهد تحوتمس الرابع (١٤١١ - ١٣٩٧ ق . م) أخذ الفن المصرى يتحرر كثيرا من قيوده القديمة ، ويتجه نحو أساليب واقعية تمثل الحياة كما هى ، وتظهر مافى الطبيعة من جمال ، فكانت أكثر زخارف القصور ، بل وأدوات الزينة والأثاث ، تميل إلى الاعتماد على رسم الزهور ومختلف النباتات والحيوانات والطيور والأسماك .

واستمر تطور الفن فى عهد أمنحوتب الثالث ، ونشأت فى أيامه المدرسة الفنية التى مهدت لظهورمدرسة تل العمارنة - مصر الفرعونية ص ٣٠٣ .

ويقع معبد أمنحوتب الثالث (اللبرنت) بعد بحيرة موريس بقليل . . يقول هيرودوت : وهو يفوق الأهرام ، إذ يشتمل على اثنى عشر بَهْوا ، كلها مسقوفة ، ولها بوابات تقابل الواحدة الأخرى تماما ، ست منها تتجه شمالا ، وست تتجه جنوبا ، ويحيط بالبناء كله جدار واحد ، ويوجد فى المبنى نوعان من الحجرات ، نصفها تحت الأرض ، والنصف الآخر على سطح الأرض ، والأخيرة مبنية فوق الأولى ، والعدد الكلّى لهذه الحجرات ثلاثة آلاف وخمسمائة من كل من النوعين ، (ولقد مررت بنفسى فى الحجرات العلوية ، ورأيتها بعينى رأسى ،

وماأقوله عنها هو نتيجة ملاحظتى الشخصية ، أما الحجرات السفلية فإنى أتكلم عنها حسبما سمعت ، وذلك لأنى لم أفلح فى إغراء الحراس ، ليجعلونى أشاهدها ، لأنها تحتوى على ضريح الملك الذى بنى « اللبرنت » ، كما يقصون ، ويحتوى على أضرحة التماسيح المقدسة) .

(والأمر المدهش هو أن سقف كل من هذه المساكن يتألف من حجر واحد ، وأن الطرق المسقوفة فى كل امتداداتها كانت مسقوفة بهذه الكيفية ، أى بحجر واحد عظيم الحجم جدا ، دون أن يتخلل ذلك خشب أو أى مادة أخرى وكانت الجدران مبنية من أحجار لايقل حجمها عن ذلك) .

(وتوجد قاعات ولائم قائمة فى قمة المصادر المنحدرة ، هذا إلى بوابات ينزل منها الإنسان بواسطة سلم يبلغ عدد درجاته تسعين درجة وعُمُد فى الداخل مصنوعة من الصخر البروفيرى ، وصور آلهة وتماثيل ملوك وصور وحوش قبيحة . . ولانزاع فى أن سلسلة المبانى هذه تعد أعظم بناء أقيم فى مصر ، بل فى كل عصور تاريخها) .

وقد بقى (اللبرنت) يستعمل بمثابة محجر ، حتى قضى على البقية الباقية فى بناء خط حديد الفيوم ، خلال القرن التاسع عشر - مصر القديمة جـ٣ ص٣٢٨/ ٣٣١ .

وفى هذه الأسرة الثامنة عشرة شيد أعظم وزراء مصر (رخ مى رع) قبراً هو بمثابة سجل فى تاريخ الحياة الاجتماعية والسياسية والفنية والهندسية ، بل إنه يمثل تمثيلاً حياً مملكة بأسرها ، رسمت على جدران قاعات مزاره الفسيحة الأرجاء ، فنرى على أحدها الفرعون ينصّب الوزير ، ويلقى عليه خطابًا رائعًا عن مهام وظيفته ، فى حفل عظيم رَسْمى ، ثُمّ نشاهده فى قاعة العدل على كرسيه ، وحوله أعوانه وكتبته على استعدَاد لسماع شكايا القوم والفصل فيها ، وبعد ذلك نراه فى مشهد آخر يستقبل الوفود من كل مقاطعات مصر يعرضون عليه أحوال البلاد المختلفة ، وفى منظر آخر يشرف على مشروعات الفرعون العظيمة ، من بناء معابد ووضع تصميماتها ، وتهيئة كل ماتحتاج إليه ، حتى صناعة اللبنات كان يشرف عليها ويوجه العمال فى كيفية صناعتها ، كما كان يسهر على مصلحة

العمال من نساء ورجال ، ويشرف على ممتلكات الإله آمون وعبيده فى معبد الكرنك وما يتبعه من المعامل والمصانع ، ولم يترك لنا (رخ مى رع) حرفة أو صناعة إلا مثّلها أمامنا تمثيلاً صادقًا بكل آلاتها ومعداتها . . وفى مشهد آخر نجده بين أفراد أسرته فى حفل دعا إليه الأهل والخلان ، ونراه داعيًا كبار موظفيه ليستأنس برأيهم فى تصريف الأمور ، وفى كل ذلك نرى الأزياء الخلابة وأنواع الطعام الفاخرة ، هذا إلى مناظر دينية خاصة بإحياء تمثاله أو مومياته فى عالم الآخرة ، وترتيب الأوقاف الخاصة بطعامه الأبدى . . وبالإضافة إلى هذا ترجم لنفسه ، ليظهر للعالم ما كان عليه من أعباء جسام ، وما اتصف به من خلق كريم ومكانة فذه – مصر القديمة جـ ٤ ص (ط) .

وفى زمن الأسرة التاسعة عشرة خلّف (أبى) نَحّات آمون مقبرة فى مكان الصدق ، فى منحدر التل الواقع بعد معبد دير المدينة . . وفى ردهة هذا القبر خصص مكان ليكون حديقة للمتوفى ، ينعم فيها بكل أشجارها وماء بركتها . . وكذلك يوجد فى جنوب المدخل منضدة للقربان ، ومصطبة مستطيلة الشكل ، والدخول إلى قاعة المقبرة عبر ممّر مقبب فى وسط خارجة الباب ، أما المزار فمنخفض بعض الشئ عن الممر ، ويحتوى على حجرة كانت ملونة ، ومنها يصل الإنسان إلى الحجرات الأخرى .

وعلى الجدار الغربى للمدخل من الخلف نشاهد (أبى) وزوجه يتعبدان للآلهة ، وعلى الجانب الشمالى من المدخل إلى القاعة الداخلية مثّل (أبى) رافعا إحدى يديه يتعبد ويصُبّ بأخرى ماء الطهور على كومة من الحبوب البيضاء المغطاة بالأوراق ، وتحمل زوجه فى يدها رأسا مصنوعًا من البردى ملفوفاً عليه نَبات ، ويحلى جيدها بالعقود . . وعلى الجانب المقابل من المدخل نرى (أبى) يحمل موقدا للآلهة ، وعليه حمام وخبز وشحم ، وأمامه طبق كدست عليه الأزهار والفاكهة ، وإلى جواره زوجه وابنته ، ويشغل الأقارب ثلاثة جدران من الأربعة الباقية . . والجدار الجنوبى تشغله صور وليمة بكل ماتحوى من زينة الرجال والنساء والطعام والشراب والزهور والعطور . . وعلى الجدار الشرقى يظهر (أبى) والوزير وعدد من الرجال يكرمهم الفرعون ، وقد أحضرت ثيران وأسماك وأوانى الطعام والشراب لإقامة وليمة . . وعلى الجزء الثانى من هذا

الجدار صورة موكب (أبى) بكل تفاصيله ، كما يتبين بيت مجهز بالخدم والحشم ، ولما كانت بركة المنزل قد ظهرت فى الرسم ، فإن البيت قد رُفع فى الصورة بمستوى ارتفاع البركة نفسها ، وقد صور الفلاحون بصور طبيعية ذوى أجسام نحيلة وسيقان طويلة ، وكتل الشعر على رءوسهم ، ولحاهم مهملة ، وهم يمارسون أعمال الفلاحة ، وبخاصة النضح بالشادوف ، وغسيل الملابس . . وحديقة المنزل غنية بالأشجار والأزهار والقوارب المقدسة . . والجدار الشرقى - الجهة الشمالية - يصور حصاد الكتان ، وزراعة القمح وحصاده ، وتذريته ، وتسويق المحصول ، وعملية الشحن والتفريغ فى القوارب ، ويصور الرعاة يطلقون ماشيتهم فى الأراضى بعد الحصاد تلتقط مابقى من السنابل . . وعلى الجدار الشمالى مناظر لصيد الأسماك والطيور ، ونشاهد كذلك مصنعًا للأثاث الجنازى ، كما نشاهد محرابين مزودين بكل الأثاث اللازم ، وصور العمال الذين يقومون بصنع هذا الأثاث ، كما نشاهد جهاز (أبى) الجنازى - مصر القديمة جـ٦ ص٥٣٤ / ٥٤٩ .

ويعد قبر (تحوتى محب) من أهم الوثائق التصويرية التى تتناول العادات والأخلاق والزى والدين ، فثمة فتيات رشيقات قائمات على الخدمة فى وليمة، وقد صورن بملابس محبوكة تجسم تفاصيل الجسم ، وأخريات عاريات .

وصاحب هذا القبر كان يعمل كاتبًا فى عهد أمنحتب الثانى ، ثم جاء موظف آخر اغتصب القبر ، وهو يحمل نفس الاسم ، وتبلغ المدة التى انقضت بين بداية إقامة القبر والانتهاء من زخرفته حوالى مائتى سنة ، ومن ثم احتفظ بأحداث جسام خلال هذه المدة ، فشمل أحداث أخناتون ، بالإضافة إلى تقاليد الزمن الطويل بين أمنحتب الثانى ورمسيس الثانى ، ويتمثل اختلاف التقاليد فى الملابس وموائد القرابين والولائم والاحتفالات التى تتألق فيها المغنيات والراقصات ، ومواد الزينة ، وأوانى الطعام والشراب - مصر القديمة جـ٦ ص ٥٧١ .

* وبلغت العناية بالأدوات المنزلية حداً كبيراً ، فكانت الجرار والدلاء والأوانى الفخارية والكئوس والأقداح والقصاع تصنع من أحجار المرمر والشست والحجر السماقى ، وكانت تزين أحيانا برسوم بشرية أو حيوانية أو نباتية .

وكان بمعبد آتوم فى مدينة أون ميزان من الذهب لا مثيل له ، منذ عهد الآلهة، وكان يعلو الميزان نسناس من الذهب يرقب عملية الوزن .

ومن هبات رمسيس الثالث السخية للآلهة مصنوعات من الذهب والفضة والنحاس واللازورد والفيروز ، وكانت أبواب المحاريب بمعابد طيبة إماً من الذهب أو من النحاس الذى له بريق الذهب ، وكانت التماثيل مكسوة بالذهب، وكثير من أوانى المياه المقدسة وموائد القرابين كانت من الفضة .

ومما يثير الدهشة تلك الزلع الضخمة التى تستخدم قاعدة لقلعة سورية ، وقد رسمت عليها حاميتها ، أو صوّر عليها بناء تهاجمه فهود ، لتقتنص طائرا جميلا حطّ فوق سقفه .

وكانت الصناديق والمقاعد ذات المساند والمقاعد المنخفضة التى لا ظهر لها هى أهم أدوات الأثاث .

* أما فخامة الفن المصرى وعظمته فتتجلَّى فى التماثيل التى تقف شامخة أمام المعابد ، وفى مداخلها ، وفى الساحات الكبيرة وكانت التماثيل الصغيرة تملأ البيوت والقبور . . وكان لبعض التماثيل قواعد مزخرفة الجوانب بأزهار اللوتس والبردى والأقحوان .

لكن روعة النحت الذى عَبَر بالفن المصرى باحة الخلود تتمثل فى المسلات التى تدل على ما اتسم به المصريون من صفات استثنائية ، إذ انتزعوا من المحاجر أعمدة من الجرانيت ، يبلغ طول العمود أحيانا أكثر من ثلاثين مترا ، ونقلوها من أسوان إلى طيبة ، أو إلى غيرها من المدن الرئيسية ، وشكلوا كل عمود على هيئة مسلّة ، نقشوها بالكتابة الهيروغليفية الدقيقة ، ثم أقاموها على قاعدتها ، ولم يكن يستغرق عمل المسلة زمنًا طويلاً - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص٢٠١ و ١٨١ .

لكن هذه الفخامة يقابلها فن الرسوم الهزلية المعبر أدق تعبير عن مَرَح الطبيعة المصرية ، واستهانتها بفداحة الأحداث ، ولعل المثل الذى يقول (شر المصائب مايضحك) انْعكاس صادق للفطرة المصرية ، التى اتخذت من الكلمة والصورة الهازلة متنفسًا يفثًا حدة الضغوط النفسية ، سخرية بالفراعنة المستبدّين ، أو

بأشباه الفراعنة ، وترويضًا للنفوس الأبية على المراوغة والمصابرة والتماس الرجاء .

لقد استعمل المصرى القديم الرسوم الهزلية وسيلة للنقد اللاذع ، والتهكم المشين ، وأبرز للعالم أفكاره مصورة فى هيئة حيوانات دَالّة على مايرمى إليه . . وقد تناول فى ذلك موضوعات كثيرة تمثل الظلم والعدل على ألسنة الحيوانات ، مما يعيد إلى الأذهان قصص كليلة ودمنة ، ولم يفلت من يد المفتّن المصرى أحد ، حتى الفراعنة أنفسهم ، فقد أظهرهم فى صوره الهزلية التى تدل على السخرية والامتهان ، فقد أخذ المصورون يمثلون الحروب ومناظرها فى عهد رمسيس الثالث وغيره بصور حيوانات بدلاً من الرجال ، وقد يكون سبب ذلك - كما يقول الأستاذ سليم حسن - مَلَل الناس من الحروب فى تلك الأوقات . . وفى متحف «تورين» صورة هزلية رائعة مثل فيها فرعوُن كلٍّ الفيران ممتطيًا عربة تقودها الكلاب السلوقية ، وهو يهاجم جيشا من القطط ، على حين تدوس جياده الأعداء تحت سنابكها ، وقد احتل هؤلاء الفيران المصرية حصنًا سوريا بمنتهى البسالة والإقدام .

وكان المثال القاص يجعل السبع أو الفأر أو ابن آوى ينطق بأحاسيس إنسانية ، يستخلص منها عظات عالمية .

وقد صور المثال ابن آوى والقط فلاحيْن على ظهر كل منهما حقيبة ، وعلى كتف كل منهما عصا ، ويمشيان خلف قطيع من الغزلان .

وفى مكان آخر نجد ثورا يجلب أمام سيده قطّا قد غشّه ، وقد كان نصيبه أن يوقع عليه العقاب - بسبب بلادته - لما ارتكب من تصرف مشين مع القط ، إذ اتهمه زورا وبهتانا .

وفى مكان ثالث نجد جوقة موسيقية تتكون من حمار وأسد وتمساح وقرد ، وكل منها يضرب على آلة خاصة .

كما نشاهد سبعا وغزالا يلعبان الضامة معا ، أو قطّة أنيقة وضعت زهرة فى شعرها ، وقد حدث بينها وبين إوزة خلاف ، فتضاربا ، وقد تقهقرت القطة -

خوفا على أناقتها - مصر القديمة جـ ٧ ص ٥٨٨ / ٢٨٩ .

* وكان من أبرز سمات هذه الحضارة أن ظهرت معارض عامة ، تضم كافة منتجات الصناعة المصرية ، وقد عرضت فى هذه المعارض عقود للزينة ذات صفوف متفاوتة ، ومشابك على هيئة نباتات مزهرة ، هذا بالإضافة إلى المرايا والمظلات المصنوعة من ريش ذات الأيدى الأبنوسية المطعمة بالذهب ، وبعض أدوات أخرى ، مثل رءوس طيور ذات مناقير طويلة ورقاب أكثر طولاً .

أما صانعو الدروع والعربات فقد بعثوا إلى تلك المعارض بعربات مجهزة بكل أدواتها : أطقم الخيل ، والسُّرج والأقواس والحراب والسياط والسيوف والدروع ذات الزرد ، وأجربة السهام والأقواس ، وجعاب البُلَط والخناجر والخوذات .

وما كانت هذه المعارض لتتم لولم تكن هناك روابط بين العمال والصناع ، أشبه بالنقابات اليوم ، وإلا ما كان يتحقق (نظام للعمل) يكفل حقوق العمال ، إذ كان العمل يجرى ثمانية أيام مع راحة أسبوعية فى اليومين التاسع والعاشر ، هذا بالإضافة إلى إجازات الأعياد الدينية للآلهة الكبرى ، وكان بعضها يستمر عدة أيام . . وإلا فما كان للعمال أن يجرءوا على الإضراب حين تتأخر حقوقهم .

حدث فى العام التاسع والعشرين من حكم رمسيس الثالث (حوالى سنة ١١٥٨ ق . م) أن المؤن لم تصل فى موعدها ، فقام الكاتب (آمون نخت) - فى اليوم الواحد والعشرين من الشهر الثانى - بإعلان العمال بأن (قد مضى من الشهر عشرون يوما ، ولم تصل مئونتنا من الطعام بعد) ، ثم ذهب لهذا السبب إلى المعبد الجنازى القريب للملك (حورمحب) ، وحصل على طعام من أجل الجماعة ، ومع ذلك استمر تأخير وصول المؤن ، مما أدى إلى قيام العمال بإضراب فى الشهر السادس ، ونظموا مظاهرات أمام المعابد الجنازية لتحوتمس الثالث ، ورمسيس الثانى ، وربما سيتى الأول أيضًا ، وسجّلوا موقفهم فى هذه العبارة : (لقد جئنا إلى هنا يدفعنا الجوع والعطش ، ولم تعد لدينا ملابس ، ولا دهون ولا سمك ولا خضراوات ، لتبلغوا الفرعون مولانا الطيب ذلك ،

وأرسلوا للوزير المشرف علينا لأجل أن تصلنا المئونة) - صناع الخلود ص٤٨
ويقال إن العمال كانوا يسمون (خدام ساحة الحق) ، كما عرفوا بأنهم (رجال الطائفة) ، مما يفيد لونا من التكوين النقابى ، ومما يفيد تقدير المجتمع واحترامه للدور الذى ينهضون به .

هامـــش ..

يقول بريستيد (تاريخ مصر ص ٥١) : المصرى بطبيعته بطئ التأثر بمحاسن الطبيعة ، على عكس اليونانى الذى أثرت فيه محاسن بلاده أعظم تأثير (؟!) .

ثم يقول ص ٩٠ : وبلغت الفنون الجميلة درجة قريبة من الطبيعة ، بعيدة عن الأوهام ، لم تبلغها أية بلدة أخرى فى تلك العصور القديمة .

ويقول فى ص ٩١ : وقد بَذَلَ المثالون جهدهم فى جعل التماثيل مطابقة للأصل ، فلونوها بالألوان الطبيعية ، وصنعوا الأعين من الحجر البلورى ، فأصبحت ملامح الحياة البادية على تماثيل العهد (المنفى) لامثيل لها فى تماثيل أى جيل بعد ذلك .

ويقول صاحب (كنوز الفراعنة ص ١٨٨ / ١٩٠) الذى اعتمد فى كتابه على ماجاء فى المتاحف العالمية من آثار فرعونية : بظهور فجر الدولة القديمة كانت مصر قد وصلت بالفعل إلى مستوى مادى متقدم ، لم يطرأ عليه تغير يذكر حتى العصر الرومانى .

وقد استخدمت فى صناعة الأوانى كل أنواع الحجارة تقريبا ، مثل المرمر والبازلت والبريشة والجرانيت والصخور الرخامية ، فى الفترة المبكرة من عصر ماقبل الأسرات ، كما استخدمت الحجارة الجيرية الأكثر نعومة منها ، وفى أواخر ذلك العصر بدأ استخدام الشست والسربنتين والأستيدتيت .

وأصبح للفنان السيطرة الكاملة على كل أنواع الحجارة الصلبة وتذليلها وتشكيلها بسهولة ، كما لو كانت من الطين أو الصلصال .

وبالمتحف البريطانى نوع ممتاز من هذه النوعية الصلبة فى زهرية من البريشة على هيئة يمامة جالسة ، طولها من منقارها إلى ذيلها تسعة عشر سنتيمترا ،

وجسم الزهرية مفرغ لتكوين فجوة تصلح لوضع الزهور ، والفجوة عبارة عن ثقب ضيق الحافة فوق ظهر الطائر ، قطر ٥ر٢سم ، وعلى جانبى الطائر فى موضعى الجناحين أذنان بارزتان بمثابة مقبضين ، يمكن استخدامها لتعليق التمثال فى الحبال ، ورأس التمثال وعنقه دقيقاً التشكيل ، وعيناه مطعمتان ومصنوعتان بطريقة الثقب بأسلوب رقيق ، ومازالت إحدى العينين تحمل التطعيم ذا اللون الأزرق .

ومنذ بداية الدولة الحديثة بدأ استخدام قوارير حجرية ضخمة مرتفعة الجوانب لقياس الزمن .

الحديث عن الإضراب وتسيير المظاهرات ، من أجل الحصول على الحقوق ، يعنى أن ثمة معايير وضمانات كانت مدونة ، أو كانت مقررة ، وأن الشعب كان يمارس إجراءات (قانونية) للحصول على ما له من حقوق .

ولأهمية القانون فى حياة المصريين (تخيلوا) أن المعبودة (ماعت) هى إلهة العدل والحق ، لذا وضعوا على تاجها ريشة نعامة ، وكانت تدل عندهم على العدل ، وكانوا يقولون إن (تحوت) نزل إلى الأرض ، ووضع لسكان وادى النيل القواعد الأساسية للقوانين المدنية والجنائية ، ومن ثم كان رب القوانين ، ورب كل المعارف ، أول مشرع مصرى ينسج على منواله ، و (زعموا) أنه ترك كتبًا فى التشريع وفى نظم القضاء .

ولقد كانت القوانين المصرية - فى دورها الأول - ذات صبغة دينية ، غايتها الإنصاف والعدل ، مشربة بمكارم الأخلاق ، ثم تشبعت بمسحة مدنية بعدما ضعف نفوذ الكهنة .

ويقال إن ظهور التشريع فى مصر يرجع إلى القرن الخمسين قبل الميلاد ، ففى هذا القرن تعلم المصريون الكتابة ، وبها تم جمع القوانين - بإرشاد من (تحوت) سنة ٤٢٤١ ق . م ، ومالبث الزمان أن عبث بهذه القوانين .

ذكر الأستاذ سليم حسن أن القانون فى مصر كان مدونا فى كتب ، وهذه الكتب أودعت المحكمة العليا ، وبخاصة فى قاعة (حور) العظيمة ، وكانت قاعة (حور) هى الإدارة المكلفة بتسجيل قوانين الدولة والمحافظة عليها ، ومن ثم كانت تابعة للمحكمة العليا - مصر القديمة جـ ٢ ص ٥٢ .

وقد اشتهرت (قوانين حور محب) - هذا الرجل المحنك الذى كان (الرئيس الأعلى لمجلس الحكام ، والمنّصب من الفرعون - أخناتون وتوت عنخ آمون - رئيسا للقطرين ، والقائد الأعلى لكل جيوش الملك ، ومدير بيت فرعون) - بأنها قوانين شاملة ، تحدد علاقة الفرد بالسلطة الحاكمة . . ولأن أفراد الشعب كثيرًا ماكانوا يتعرضون لحيف الموظفين الذين قوى نفوذهم بضعف كل

من أخناتون وتوت عنخ آمون - جعل حور محب لكل موظف يخرج عن حدود سلطته عقوبة تناسب جرمه .

وضع قانونًا صارمًا يتمثل فى جلد المجرم مائة جلدة ، وجَرْحه خمسة جروح دامية ، وسنَّ قوانين للضرب على أيدى المختلسين والمرتشين . . وكان (حور محب) يقوم برحلات تفتيشية ليراقب تنفيذ الأحكام . . لم يكن سبيله إرهاب المجرمين فحسب ، بل كان يكافئ الشرفاء ، واختار طائفة من أماثل القوم للمناصب الخطيرة ، وزودهم بتوجيهاته ، وحذرهم من مخالفته .

وأسس مجالس قضائية تفصل فى الخصومات ، وشدد على الالتزام بنصوص القانون - مصر القديمة جـ ٥ ص ٥٩٠ . ولما تبوأ الملك بوخوريس عرش مصر (٧١٨ / ٧١٢ ق . م) أعطى للقضاء صبغة مدنية ، غير أن استيلاء الأثيوبين على مصر ، وانتماءهم لآمون ، أعاد للقضاء صبغته الدينية .

وفى عهد أمازيس (أحمس الثانى) - ٥٧٠- ٥٢٦ ق . م - قضى على سلطة آمون وأعاد للقضاء صبغته المدنية .

* كان القضاة من الكهنة المتخرجين فى مدارس التشريع فى معابد منفيس وطيبة وأون (عين شمس) ، وكانت المحكمة الكبرى بمدينة طيبة تؤلف من ثلاثين قاضيًا يختارون من كبار الكهنة المتفوقين فى المسائل القانونية ، بنسبة عشرة عن كل مدينة من تلك المدن الثلاث ، وأعطيت الرياسة لأكبرهم سنا .

وكان على معبد المدينة الذى ينتخب منه الرئيس أن يرسل إلى المحكمة قاضيًا آخر ، حتى يصير عدد القضاة ثلاثين غير الرئيس .

وكان رئيس المحكمة العليا - إذا جلس للحكم - يضع فى عنقه سلسلة ذهبية ، معلقًا بطرفها حجر كريم على شكل تمثال (معات) ، وكان يوجّه هذا التمثال إلى الأعضاء عندما يدلى كل برأيه ، فإذا تم ذلك نطق الرئيس بالحكم ، وكانت توضع على منصة القضاء - أثناء انعقاد الجلسات - ثمانية مجلدات تحوى كل القوانين المصرية .

وقد كثرت أنواع المحاكم عندهم بحسب اختصاصها ، فوجدت المحاكم

الأسرية التى لاتتناول إلا المسائل التى يستطيع رئيس الأسرة الفصل فيها وعلاج آثارها . . كما وجدت المحاكم المدنية ذات الدرجات الثلاث : جزئية بالمدن والقرى ، وابتدائية بعواصم الأقاليم ، واستئنافية بعاصمة الدولة . . كذلك وجدت المحاكم العسكرية ، والقضاء الإدارى الذى يتناول المنازعات بين دافعى الضرائب والجُباة ، كذلك وجد القضاء الجنائى بنوعيه : العادى الذى يفصل فى قضايا الأفراد ، والآخر الذى يفصل فى الجرائم التى تمس نظام الحكم ، وكانت تتولاه محكمة خاصة ، يدخل فى تشكيلها ممثلون للجيش .

وكان القضاء الجنائى العادى على درجتين : محكمة المدينة أو الإقليم ، وتستأنف أحكامها أمام الملك ، أو مجلس خاص يعينه الملك ، ومحكمة دينية لتحرير العبيد الذين وقع عليهم ظلم فادح استدعى اللجوء إلى المعبد .

* ويذكر الأستاذ سليم حسن أن (حور محب) اعتنى بتنظيم (المجالس القضائية) ، لكنه لم يكن أول من اهتم بهذا الجانب ، ففى عهد الأسرة الخامسة حدث إصلاح كبير فى نظام العدالة ، إذ ظهرت محكمة تسمى (محكمة الستة) ، وهى المحكمة العليا فى البلاد . . كانت تحت سلطة الوزير مباشرة ، وكان له وحده الحق فى زيارتها ، وكانت تعقد جلسات مختلفة تحت رياسة قضاة كبار يمثلون الوزير ، وكان يحيط برؤساء الجلسات مستشارون ، منهم من يلقب (رئيس الأسرار للتحقيق الخفى) ، وهم مكلفون خاصة بالتحقيق فى القضايا ، ومنهم من يلقب (رئيس أسرار الأحكام) ، وينحصر عملهم فى تحضير الأحكام التى ينطق بها الرئيس .

وكانت الإدارة القضائية تتألف من عدد كبير من الموظفين ، منهم رئيس كتبة الإدارة القضائية ، وكبار الكتاب ، وكان موظفون مكلفون بتسلُّم الشكاوى ، يسمون (المشرفين على العرائض) ، كانوا تحت إدارة (رئيس الكتاب المشرف على العرائض) .

وكان فى مقر الإدارة الرئيسية بكل مقاطعة جهاز إدارة على رأسه رجل ذو شأن من رجال القانون ، هذا بالإضافة إلى (محكمة السراة) التى تختص بمحاكمة الكهنة وكبار رجال الحكم . .

وتفيد الألقاب التى يحملها موظفو (محكمة الستة العليا) و (محكمة السراة) أن الإجراء واحد فى التقاضى ، وإن كان موظفو (محكمة الستة العليا) أعظم شأنا ، وقد حددت النقوش اختصاصاتهم بكل وضوح .

كان الطلب يقدم أمام محكمة الستة العليا بصفته وثيقة مكتوبة بين يدى المشرف على الشكاوى ، أو فى قلم كتاب المحكمة ، ويؤجل أمر التحقيق إلى مستشار محقق ، يأخذ فى فحص القضايا ، ثم يحيلها إلى إحدى جلسات المحكمة ، ثم يسمع الرئيس القضية يساعده مستشاروه فى الجلسة ، وعندما يكون الموضوع دقيقا يوكل التحقيق إلى رؤساء المجلس مباشرة ، وينطق الرئيس الحكم باسم الملك .

أمّا أمام (محكمة السراة) فالمدعى يرفع دعواه بتقديم عريضة مكتوبة ، يشرحُ فيها طلبه الذى كان يتخذ أساسا للمرافعة ، وكانت المحكمة تحكم بمقتضى (مستندات) ، لا بمجرد (المرافعة) ، حتى لايكون للبلاغة تأثير على القاضى ، فإذا كان الموضوع خاصًا بحقوق عقارية ، فإن العقود الأصلية تكون مدار الحكم ، وكان هناك سجلات لقيد التصرفات العقارية .

يقول الوزير بتاح حتب : (إذا كنت أنت الذى يتسلم الشكوى ، فكن هادئا عندما تسمع كلام المدعى ، ولا تعامله بالقسوة ، دعه يتكلم حتى يفرغ قلبه ، وحتى يمكنه أن يقول لماذا حضر . . إن المدعى يحبّ الذى يسمع ظلامته ، حتى ينتهى من سرد السبب الذى من أجله حضر ، إن المجلس الباشّ يسر القلب) .

وعلى هذا يجب أن يتحلى القاضى بكثير من الفضائل حتى يستحق المكانة التى يحتلها - مصر القديمة جـ ٢ ص ٥٨ / ٥٩ .

* ذكر أن بورخيس أخذ عن الكلدانيين مبدأ التعاقد بالكتابة ، ونظام الفوائد التجارية ، وحرم الرِّبح المركب ، وحرم إكراه المدين جثمانيا ، وأبطل استرقاق المدين عند عدم الوفاء ، وجعل التنفيذ مقصوراً على أموال المدين لا على شخصه .

وقد اعترف بورخيس بالملكية العقارية للأفراد ، بعد أن كان لهم فقط حق

الاستغلال ، وبذلك أباح التصرف فى الأراضى بعقود عرفية ، وأصبحت الأراضى ضامنة لتعهدات الأشخاص عند عدم وفاء الدين .

أما الإيجار فقد رتب بورخيس على عقده أن تصبح جميع أموال المستأجر مرهونة رَهْنًا عاما لوفاء الأجر المتفق عليه .

أما بالنسبة للأحوال الشخصية فكان ينص فى عقد الزواج على العلاقة المالية بين الزوجين ، بفصل مال الزوجة عن مال الزوج ، أو أن يكون للزوجة حق التصرف فى مالها دون إذن زوجها ، أو أن يخصص قدر من مال الزوجة لمساعدة الزوج على نفقة الأسرة ، أو أن يكون الزوجان شريكين فى بعض المال أو فى كله . . وسمح القانون للزوجة أن تشترط فى عقد الزواج أن يدفع لها الزوج مبلغًا معينًا عند الطلاق ، وأعطى لها حق الرهن العام على جميع أموال الزوج ضمانًا لما يكون لها من حقوق دون حاجة إلى النص عليه فى عقد الزواج .

وألغى بورخيس الزواج الدينى الذى كان يتم على يد الكاهن ، وأصبح الزواج مدنيًا ، واكتفى فيه بالرضا ، كباقى العقود .

وكان للذكر مثل حظ الأنثى فى الميراث ، وكان لايجوز الزواج بأكثر من واحدة .

وجاء أمازيس ففقدت الزوجة مركزها الممتاز ، وأصبحت هى ومالها ملكا لزوجها ، أخذا بالشريعة اليهودية .

* وقد صيغت القوانين الجنائية فى مواد كفلت استتباب الأمن ، وقطع دابر البطالة ، ومُنع الغش والتدليس ، إلى غير ذلك ، فكان الضرب على أيدى المفسدين ومعاقبة المجرمين عقابًا زاجراً .

كانوا يحكمون بالإعدام شنقا أو بقطع الرأس على كل من يحلف يمينا كاذبة أمام المحاكم ، وعلى كل من يقتل نفسا بغير حق ، مع سبق الإصرار ، سواء أكان المَجْنى عليه حرا أم عبدا ، وعلى كل من رأى إنسانا يشرف على الهلاك ، وكان بمقدوره أن ينجيه ولم يفعل ، وعلى كل من قدر على تخليص المقتول بدون حق من القاتل ولم يخلصه ، وعلى كل من ثبت أنه يعيش بطريق غير شرعى .

وكان يحكم بالتعذيب ثم بالحرق حيا على كل من قَتَل أحد والديه عمداً ، فتقطع أصابعه أولاً ثم يحرق . وكان الحكم لاينفذ على الحبلى حتى تضع حملها ، لأن (العقاب مقصور على المجرم لايتعداه) .

وكانوا يبيحون إقامة الحدود على الأموات ، كما تقام على الأحياء .

ويحكمون بالجلد على من سبّ غيره أو وشى به .

وكان جزاء الآباء والأمهات الذين يقتلون أولادهم - ذكوراً أو إناثًا - معانقة الجثة والبقاء بجانبها ثلاثة أيام بلياليها ، تحت رقابة الحراس .

وحكموا بسلّ لسان من يهدى عدواً إلى أسرار وطنه .

وكانوا يقطعون يد من يطفف فى الكيل و الميزان ، أو يزيف النقود ، أو يقلد خاتم أحد ، أو يزور فى العقود العرفية ، أو الأوراق الرسمية .

وكان يشهّر بكل ولد لم يقم بالإنفاق على أبويه العاجزين عن الكسب ، وليس للولد على والديه مثل ذلك .

ويشهر بكل جندى فرّ يوم الزحف ، وبكل من لم ينفذ أوامر رؤسائه .

وكانت عقوبة كل من به عاهة تمنعه من إنقاذ شخص قتله الآخرون ، ولم يبلغ السلطة عن الجريمة ومرتكبيها - منع الطعام عنه ثلاثة أيام وجلده ، وكذلك كل من كُلفّ بالإرشاد عن المجرمين وتسليمهم للمحكمة ، ولم يفعل .

ومن ادعى بالباطل على غيره ينفذ فيه الحكم الذى يستحقه المتهم لو صحت الجريمة .

ومن حَلف من المتهمين أو الشهود بالإله أو بالملك زورا يجدع أنفه وتصلم أذناه ، وينفى من البلاد .

وكان الطبيب إذا اخترع نوعا من الدواء يرفع اختراعه إلى هيئة مختصة للنظر فيه ، ثم يطلب إلى الطبيب أن يعالج مريضه بهذا الدواء الذى اخترعه ، فإذا شفى المريض منح الطبيب مكافأة مادية وأخرى معنوية ، بتدوين اسمه واسم دوائه فى الدواوين الرسمية والكتب العلمية المقررة ، وإذا مات المريض بسبب هذا الدواء حكم على الطبيب بالإعدام .

يلاحظ على بعض هذه الأحكام مُمَاثلتها لما جاء فى قانون حمورابى .

* وقد حفظت السجلات صوراً من التقاضى ، نذكر منها أنه - فى العام الثالث من حكم رمسيس الخامس ، حوالى سنة ١١٤٦ ق . م - قدمت السيدة (نونخت) إقرارا يتعلق بالتصرف فى ممتلكاتها فى المستقبل ، وذلك أمام محكمة تكونت من رئيس العمال (نحم موت) ، ورئيس العمال (أنحر خاو) ، وكاتب المقبرة (آمن نخت) ، والكاتب (حرشير) ، والرسام (أمنحوتب) ، والعامل (تلمونت) ، والعامل (تو) ، والرسام (بنتاورت) ، والعامل (أوسرحات) ، والعامل (نب نفر) ، والعامل (آمون با حابى) ، وموظف المقاطعة (آمن نخت) ، وموظف المقاطعة (رع مس) ، والعامل (نب نفر) ابن (حومس) .

تشكيل المحكمة هنا أقرب إلى مايسمى فى أمريكا (هيئة المحلفين) ، وهو بهذا التعدد والتفرع إنما أريد به تحرى الحق والحقيقة ، فالسيدة هذه كانت قد أعدت قسمة ممتلكاتها ، حسبما تراءى لها ، ثم قام زوجها وأولادها بالقسم على احترام رغبتها ، وتم تسجيل الإجراءات بعناية ودقة على البردى ، حتى لايكون هناك خلاف فى المستقبل .

وثمة محاكمة مشهورة وقعت فى العام السادس من حكم سيتى الثانى - حوالى سنة ١١٩٧ ق . م - حينما وقف العامل (نب نفر) ابن العامل (ناخى) أمام المحكمة ، مُتَّهِما السيدة (حوريه) بسرقة أداة ثمينة كان قد دفنها فى منزله .

استجوبت المحكمة السيدة (حوريه) : أسرقت أداة (نب نفر) ؟ حق أم بهتان؟ فأجابت (حوريه) : كلا ، لم أسرقها ، ثم سألتها المحكمة : أتقسمين قسمًا مقدسًا بالإله عن هذه الأداة : أنا لم أسرقها ؟ فأدت السيدة القسم المطلوب .

ولم تكتف المحكمة بهذا الإجراء ، فأرسلت عاملاً لتفتيش بيتها ، حيث عثر على الأداة المسروقة وعلى أدوات طقسية أخرى سرقت من المعبد المحلى .

وكان أن حكم على السيدة (حوريه) بالإعدام ، بسبب السرقة ، وبسبب اليمين الكاذبة والتجديف على الإله .

ولم يقف الأمر عند محاكمة أبناء الشعب ، فقد ذكرت السجلات أن زوجة (ياتوو) - لم أستطع التحقق من هذا الاسم - الخائنة حاولت قتل زوجها عدة مرات ، قبل أن يجلس على عرش مصر ، فلما تولى المملكة لم يشأ أن يقتلها ، دون تبرير هذا القتل بحكم المحكمة ، ولم يكن شئ أسهل عليه من أن ينتقم بالقتل من زوجة آثمة ، لكنه أعلنها بالحضور أمام محكمة تألفت من كبار القضاة فى الدولة ، ووقف جلالته خصما نزيها لهذه الخائنة ، وتلا مذكرة الاتهام على مسامع القضاة ، ثم ترك لهم الكلمة ، فطلبوا إليها أن تدافع عن نفسها ، لكنها حَنَتْ رأسها معترفة بذنبها ، فأصدر القضاة حكما بأعدامها .

* هذا مجرد خيط من أشعة تسللت إلى غرفة مظلمة ، أو مغلقة ، يكشف عن عظمة هذه الحضارة وإن لم يعّرف بحجمها ، وذلك لأسباب كثيرة سبقت الإشارة اليها .

قال ديودور الصقلى : إن هناك خمسة ملوك مصريين سنوا قوانين لبلادهم قبل الحكم الفارسى ، وجاء فى أخبار الدولة الوسطى أن أحد رجالها النبلاء قال إنه سن القانون .

وذكر بريستيد فى (تاريخ مصر ص ١٩٨ / ٢٠٠) أنه بلغ من علو منزلة القانون ونزاهته أن افتخر الملوك بأنهم رجال القانون ، وكان يشترط فى الحكام أن يكونوا متضلعين فى القانون .

وكان المجرمون يحتجزون فى سجون خاصة ، ماداموا رهن التحقيق ، فإذا صدر الحكم عليهم أرسلوا إلى سجون أخرى ينفذ فيها العقاب .

وأضاف كتشن (رمسيس الثانى ص ١٨٤) صورة من القسم الذى يؤديه الشاهد أمام المحكمة : (البقاء لآمون ، والبقاء للأمير ، أقسم أن أقول الحق ، ولا أكذب ، وإذا ثبت أنى كذبت فلتبتروا أنفى وأذنى ، ولترسلونى منفيًا إلى النوبة) .

ذكرنا عن انتشار الديانة المصرية فيما وقع فى دائرة الاتصال الجغرافى والسياسى ، والديانة عنصر حضارى هام تتبعه عناصر أخرى ، كلما قوى الاتصال .

وكان اليونانيون فى عهد هومير ، وعهد بندار ، وعهد أفلاطون ، على أوثق اتصال بمصر ، وقد أقام أفلاطون فى مصر زمنا واتصل بمدارسها وكهنتها .

ونشأ عن هذا الاتصال نقل كثير من المعارف الفنية والصناعية وهندسة البناء . . يقول ديودور الصقلى : (يؤكد الكهنة المصريون - استنادًا إلى كتبهم المقدسة - أنهم شاهدوا فى بلادهم أورفى - أشهر موسيقى يونانى - وموزى الشاعر الموسيقى ، وميلامپوس الطبيب والساحر ، وديدال مهندس البناء ، ثم الشاعر هومير ، وليكورج مشرّع القوانين الإسبارطى ، وصولون الأثينى واضع القوانين ، وأفلاطون الفيلسوف . . ويذكر الكهنة المصريون أيضًا فيثاغورس الفيلسوف الرياضى ، ابن جزيرة ساموس ، وإيدوكس الفلكى الرياضى ، وديمو - قريطس الفيلسوف ، ابن مدينة أبدير ، وإينوبيد العالم ، ابن حزيرة صاقز) . . ويقول ديودور : (إن إيروكس تلقى العلم على يد شونوفيس الممفيسى ، وإن صولون تلقاه على يد سونشيس فى ساييس - صالحجر - وإن فيثاغورس اتصل بإنوفيس فى هليوبوليس ، وكان فيثاغورس خاصة عظيم الإعجاب بالأساتذة المصريين الذين كانوا هم أيضًا معجبيين به ، فحاول أن يقلد طريقهم فى كتاباتهم الرمزية السرية ، فأحاط نظرياته بالألغاز .

وفى الواقع إنه لايوجد أى فارق بين النصوص الهيروغليفية المصرية والكثير من التعاليم الفيثاغورية) - على هامش تاريخ مصر القديمة ص ٧١ .

ولقد انتشرت فى أكثر الآداب الأوربية قصة سانتى وولده فى نزولهما إلى دار الحساب ، فهى إلى جوار أثرها فى أوديسة هومير ، أثرت فى قصتى هوارس وفرجيل الرومانيين ، وفى رسالة الغفران لأبى العلاء ، وفى قصة تليماك الفرنسية .

والتاريخ الصادق يحدثنا أن المصريين وصلوا إلى اليونان زمن الأسرة الثامنة عشرة ، قبل نشوء المدنيّة اليونانية بنحو ألف سنة . . واتصل اليونانيون بعد ذلك بمصر ، وكانت لهم منطقة خاصة بهم فى شمالى الدلتا ، عامرة بالمدن . . وكان الجيش المصرى فى زمن بساماتيك الأول ، وإبرييس ، وأمازيس ، وبساماتيك الثالث - مؤلفا من فرق مصرية وفرق من المرتزقة اليونان وغيرهم ، وكان ثمة قواد يونانيون .

يقول هيرودوت : (كان أمازيس يحب اليونانيين ، فأعطى بعضهم مدينة نوكراتيس ، ليقيموا فيها . . أما الذين كانوا يقصدون التجارة فقد أعطاهم أماكن يُنشئون فيها مذابح ومعابد لآلهتهم . . وقد سمح أمازيس لهم بتأليف شرطة يونَانية كانت تراقب أسواق التجارة ، وتقضى بين التجار . . وكانت نوكراتيس الميناء الوحيد المفتوح للتجارة البحرية ، ولم يكن فى مصر ميناء آخر له هذه الميزة) .

وكان أن أخذت المصائب تهب على مصر من طريق اليونانيين ، إذ كان (فانيس) ، قائد الجيش المصرى فى عهد بساماتيك الثالث ، ولما علم أن جيش قمبيز قادم لغزو مصر فّر إليه ، وقابله فى سوريا ، وشجعه على غزو مصر ، ودله على الطريق فى سيناء ، واستأجر له رؤساء البدو يمدّونه بالماء والجمال .

* وفى عهد دولة البطالمة أخرجت مدرسة الإسكندرية علماء يونانيين كثيرين ، كانوا على إحاطة بجميع العلوم والفنون والآداب المصرية ، ومع هذا ضنوًا على مصر بذكر شئ من هذه المعارف المصرية فى كتبهم ، إن علماء الإسكندرية هؤلاء نشروا عشرات الكتب فى العالم المتحضر إذ ذاك ، وقد بقيت إلى اليوم ، وكلها خالية من الإشارة إلى العلوم والآداب المصرية التى كان لها فضل تنشئتهم ونبوغهم .

وكان من نتيجة هذا الصمت أنه لما دمرت الغزوات والحرائق الكتب المصرية ، وضاعت اللغة بانقراض عارفيها ، أسدل حجاب كثيف على كل مايسمى علما مصريا ، ولولا تلك الآثار المادية الضخمة كالأهرام والمعابدوالمسلات وقبور الملوك ، ومانقش على جدران هذه الآثار ، ومادون وأخفى عن لصوص الآثار

فى الأقبية العميقة – لما فطن أحد إلى الدور العظيم الذى نهضت به الحضارة المصرية .

ومنذ مايزيد علي مائتى سنة عرف أن التصوير اليونانى والنقش اليونانى والأعمدة اليونانية ، هى اقتباس من التصوير المصرى والنقش المصرى والأعمدة المصرية ، مع قدر من التنويع . . وعرف أن كثيراً من المصنوعات اليونانية هى بعينها المصنوعات المصرية ، لم يدخل عليها إلا تهذيب قضى به اختلاف البيئة ، واختلاف الزمن .

وعرف أن التصوير والنقش والأعمدة والمصنوعات فى مصر وفى اليونان كانت فى متناول كل من يريد أن يدرسها وأن يوازن بينها ، أما العلوم والآداب والديانات المصرية فكانت إلى زمن قريب مجهولة ، ولهذا كانت موازنتها بمثيلاتها اليونانية مستحيلة ، ولايزال أكثرها مجهولاً إلى اليوم ، لأن مايُعرف لايزيد على جوانب من الديانات يشوبها كثير من الغموض ، ثم طرف صغير من الآداب ممثل فى بضع قصص وأناشيد وأشعار ، أما العلوم ، وبخاصة العلوم الفلسفية ، فلم يعرف بعد شيء منها – على هامش تاريخ مصر القديمة ص٧٢ .

الفنـــــون والآداب

- ١ -

لاشك فى أن الفنون والآداب عصب الحضارة ، ولولا طول الحديث عن هذا النشاط العام ، لكان حسبنا أن نشير إليها خلال التناول الحضارى .

وفى بداية الحديث عن هذا النشاط نعرض لدعوى أن المصريين من أصل عربى ، بحجة أن عرب الجزيرة لم يكُفوّا عن الخروج منها والتدفق على مصر ، أو التسلل إليها ، طوال التاريخ المكتوب وقبله ، ومن المتفق عليه بعامة أن مالم يسجّله التارخ أكثر مما سجل من موجات سامية نزحت إلى مصر .

والدليل على هذا أن الأستاذ محمد عزة دروزه أثبت اشتراك أكثر من عشرة آلاف كلمة بين المصرية القديمة والعربية ، حتى ليعتبرها بعض الفيلولوجيين لغة انتقالية بين الحامية والسامية - شخصية مصر ص٩٢٢ / ٢٣٠ .

ويضيف الأستاذ زكى سوس مترجم (آلهة مصر) لفرانسوا دوماس : (فى عام ١٩٥١م ألقيت حديثًا على «جمعية الآثار المصرية» ، عالجت فيه موضوع علاقة اللغة المصرية القديمة باللغة العربية ، بالمقاييس التى وضعها علماء اللغات، للموازنة بين لغة وأخرى ، وقد نشرت مقدمته صحيفة الأهرام فى ٢٦ / ٧ / ١٩٥٤ ، وقد جاء فيه : و «المستقبل كفيل بأن يظهر لنا أن أساس مفردات اللغة المصرية القديمة سام محض ، وعلى وجه التخصيص عربى محض») - آلهة مصر ص ١٢٩ .

وأورد المترجم ألفاظًا مصرية مضاهية لألفاظ عربية ، ورأى قربًا بين أسماء

الأصنام وأسماء الآلهة المصرية . ونسى الباحث أن اللغة صوتيات ، ومصر والعرب على خط أفقى واحد ، كما أن اختلاط مصر بشمالى الجزيرة العربية ، عن طريق التجارة والحروب والهجرات ، وبجنوبى الجزيرة العربية عن طريق التجارة - ساعد على تبادل كثير من الألفاظ ، وإذا كان قد تم تبادل الآلهة بين مصر والشام وجزر البحر المتوسط ، فهل نستبعد تبادل الألفاظ ؟ ثم إن اللغة الأمهرية تعد جذراً ساميًا ، والأحباش أكثر بعداً عن العرب من مصر ، فكيف ننفى أن تكون المصرية القديم ذات علاقات وأواصر عربية ، مع الاحتفاظ بأصالة مصريتها ، وبأصالة حاميتها ؟

يقول الأستاذ سليم حسن : (اللغة المصرية كانت منتشرة لدى جيران مصر انتشاراً يساير كثرة وقلة ماكان من صلات بين مصر وجاراتها . . جاء فى «تعاليم آنى» أن اللغة المصرية كانت منتشرة فى كل البلاد الأجنبية) - الأدب المصرى القديم جـ ١ ص ١١١ .

ويقرر أنه (كان هناك ميل شديد إلى قبول كثير من الكلمات والتعابير الكنعانية فى اللغة المصرية القديمة ، وبخاصة عند أفراد الطبقة المثقفة الذين يريدون إظهار ثقافتهم العالية ، واطلاعهم الواسع ، بحشر تلك الألفاظ فى كتابتهم) - مصر القديمة جـ ٥ ص ٢١٥ .

وإذا كان الغازى لايتحرك بجيوشه فقط ، بل بكل قدراته المادية والمعنوية ، وإذا كان المغزو يقوم بدور المتلقى ، حتى وإن كره الغزاة وأصر على مجاهدتهم ، فإن مصر الغازية حملت معها لغتها وثقافتها وفكرها الدينى ، ومصر المغزة من الهكسوس والأحباش والنوبيين والفرس واليونان والرومان استبقت من هذه الشعوب قدراً من لغاتها وعاداتها وفنونها ومعارفها ، ومع هذا ظلت محتفظة بأصالتها وقدرتها الإبداعية المتميزة - وهذا شأنها اليوم مع الغزو التركى والفرنسى والإنجليزى .

ومهما يكن من شئ فإن الآداب التى خلفها سكان مصر آداب مصرية كتبت بحروف أو صور مصرية هيروغليفية أو هيراطيقية أو ديموطيقية ، وليست عربية أو حبشية أو فارسية أو يونانية أو رومانية .

إن علوم المقارنة بين الآداب والأديان أثبتت تأثير مصر فى آداب وأديان غيرها من الدول المجاورة ، وإن تأثير غيرها فيها لايكاد يذكر ، بسبب سبقها الحضارى فى مجالات وإبداعات كثيرة .

وحسب مصر أنها أول من كتب فى الطب والعلوم الإنسانية بوجه عام .

لقد وجدت ثلاث نسخ من كتاب (التعاليم التى تجعل الفرد أريبا ، وتعلم الجاهل علم كل كائن ، وكل ماصنعه «بتاح» ، وماسجله «تحوت» ، والسماء ونجومها ، والأرض وماعليها ، وماتخرجه الجبال ، وما تجود به البحار ، وماله علاقة بكل الأشياء التى تضيئها الشمس ، وكل ماينمو على الأرض) لمؤلفه «أمنموبى» ابن «أمنموبى» ، وفيه عّدد كل مايأكله الإنسان أو يشربه ، ويدخل فى ذلك ثمانية وأربعون نوعًا من اللحم المطبوخ ، وأربعة وعشرون نوعا من الشراب ، وثلاثة وثلاثون نوعا من اللحم النّيئ .

هذا التأليف الموسوعى يعد أبلغ مظهر للحضارة المصرية الأصيلة ، وما أظن العرب فى تاريخهم الطويل - عدنانيين وقحطانيين - قبل النهضَة الإسلامية ، كانوا يعرفون من هذه الأطعمة والأشربة ، حتى بعد أن مات أمنموبى بثلاثة آلاف عام !!

يقول بريستيد (تاريخ مصر ص ٣٧) : (استدل من الأبحاث التى عملت لكشف طريقة التوقيت المصرية أن دماء المصريين استعملوا الكتابة منذ نحو خمسة آلاف سنة ، وأن كتّاب الأسرة الخامسة الذين أتوا بعد ذلك بألف سنة دونوا طائفة كبيرة من أسماء ملوك الوجه البحرى وبعض ملوك الوجه القبلى ، من الذين يرجع تاريخهم إلى ماقبل حكم الأسر ، كما نسخوا عدة نصوص دينية من «كتاب الموتى» يرجح أنها نقلت سابقا عدة مرات ، ولا يخفى أن الخط الهيروغليفى الذى استعمل فى الوجه البحرى لإجراءات الحكومة والملك والخزانة لم يخترع فجأة وقت اعتلاء الملك «مينا» العرش المصرى ، بل كان مستعملاً قبل ذلك بمدة طويلة ، ولايخفى أن الخط الهيراطيقى كان مستعملاً فى مبدأ الأسرة الأولى ، وهو اختزال للخط الهيروغليفى ، فلابد أن يكون هذا الأخير مستعملا قبل حكم الأسر بزمن طويل) .

العناية بالكتابة بالخط الرسمى (المقدس) - الهيروغليفى - وبالخط الميَّسر الذى استدعت الحاجة إليه كثرة المدونات - الهيراطيقى - منذ خمسة آلاف عام ، مما يقطع بأن اللغة المدونة منذ هذا التاريخ البعيد يستحيل أن تكون لغة قوم لم يعرفوا الكتابة قبل الميلاد ، وقد حاصر التاريخ دولهم القديمة : عادا وثمود وأصحاب الرَّسّ وأصحاب الأيكة وقوم تبع بين كثبان الرمال (الأحقاف) ، وبين الصخور الصّم فى شمالى الجزيرة ، بحيث كانت اتصالاتهم خارج حدودهم تكاد تأخذ شكلاً فرديًا ، فيما عدا ما هو من النزوح نحو الشرق ، أو الجولان فى داخل الجزيرة ، وبخاصة بعد انهيار سد مأرب بعد الميلاد [١] .

(١) فى أكثر من ثمانمائة صفحة كتب الدكتور على فهمى خشيم عن (آلهة مصر العربية) ، مؤكدا أصالة العربية المصرية ، أو المصرية العربية ، لا الفرعونية ، متخذا منهج الدراسة اللغوية ، وهو منهج يقيم على أساسه صاحب كتاب (أثينا السوداء) صرحا من عدة مجلدات ليبين أثر الحضارة المصرية فى الإمبراطورية اليونانية وأثر الحضارة (العبرية) فى كل من الحضارتين المصرية واليونانية(!!)

- ٢ -

كان الشعر فى مقدمة الوسائل الفنية للتعبير عن الوجدان المصرى ، وقد أعان على التفوق فى ميدانه تلك اللغة والكتابة (التصويرية) التى تميزت بها مصر ، وأن الشعر نشأ فى حضن الديانة المصرية ، أو زودته المعابد الطاقة الروحية ، مضفّرة بالموسيقى التى جادت وتألقت فى أروقةالكهنة ، وبآلاتهم ، وبفنونهم السحرية وتعاويذهم . يقول إرمان : (لم يكن «آمون» إله «طيبة» فى الأصل إلا صورة أخرى من الإله « مين » الذى كان فى بلدة «قفط» التى لاتبعد عن «طيبة» كثيراً ، وهو كغيره من الآلهة قد يُوحّد مع إله الشمس ، لذلك أصبح يدعى «آمون رع» ، وفى خلال الأسرة الثامنة عشرة - حينما أصبحت مدينته عاصمة الملك - كان احترامه عظيما ، وأصبح أعظم الآلهة شأنا . وإن «آمون رع» فى الحقيقة ليس إلا إله الشمس القديم «رع حوراختى» و «آتوم» و «خبرو» ، فكان مثله يسبح على الأقيانوس السماوى ، وكل ماكان يملكه «رع» من محاريب وسفن وأسماء وتيجان أصبحت ملكا له ، وقد خلق مثله «رع» آلهة وأناسى) - الأدب المصرى القديم جـ ٢ ص ٩٨ .

من هنا جاءت الأنشودة المسماة (آمون رع) أو (مين - آمون) التى تقول :

(رب الصدق ، ووالد الآلهة ، الذى خلق الإنسان ، وسوّى الحيوان .

رب كل الكائنات ، الذى خلق شجرة الفاكهة ، والذى من عينه خرجت الأعشاب التى تزود الماشية .

وهو الصورة الجميلة التى سوّاها « بتاح » - إله الحرف - والشاب الجميل المحبوب الذى تثنى عليه الآلهة .

وهو الذى خلق من «هم أسفل ومن هم أعلى» الرجال والنجوم .

وهو الذى يضئ الأرضين ، وهو الذى يخترق لقبه الزرقاء فى سلام ، ملك الوجه القبلى والبحرى ، «رع» المنتصر .

رئيس رؤساء الأرضين ، عظيم القوة ، الرئيس الذى يبعث على الاحترام ، والرئيس الذى برأ الأرض قاطبة . الذى يحسب الخطط أكثر من أى إله آخر ،

ومن يبتهج الآلهة بجماله ، وهو الذى يقدم له الثناء فى «البيت العظيم» ، والذى ظهر فى «بيت النار» - أو التقديس .

ومن يحب الآلهة شذاه حينما يأتى من بلاد «بنت» ، الأمير العظيم الشذى ، حينما ينزل من بلاد «مانو» ، الحسن الوجه ، حينما يأتى من أرض الإله - بلاد بنت .

ومن يسجد عند قدميه الآلهة حينما يعرفون أن جلالته هو سيدهم ، وهو رب الخوف ، العظيم الإرادة ، القوى الطّلْعة ، النضر القرابين ، وخالق الطعام عندما تهلل له الناس) .

وفى المقطوعة الثالثة من هذه الأنشودة :

(إنك أنت الواحد الأحد ، الذى خلق كل الكائنات ، وإنك الواحد الأحد الذى صنع كل مايوجد ، الناس خلقوا - خرجوا - من عينه ، ومن فمه أتت الآلهة إلى الوجود .

بارئ الكلأ للماشية ، وشجر الفاكهة للإنسان ، خالق مايعيش عليه السمك فى النهر ، والطيور فى القبة الزرقاء ، مانح النفس من فى البيضة ، ومغذّى ابن الدودة .

صانع مايحيا به النمل والذباب أيضا ، صانع ماتحتاج إليه الفئران فى أحجارها . ومغذّى الطيور على كل شجرة ، الحمد لك ياصانع كل هذا ، الواحد الأحد فحسب ، والممتاز بالأيدى العديدة ، الذى يقضى الليل ساهرا باحثا عن أحسن الأشياء لماشيته ، حينما يكون كل الناس نياما .

يا آمون الذى يسكن فى جميع الأشياء ، ياآتوم ، يا حوراختى .

ياوالد آباء كل الآلهة ، يامن رفعت السماء ، وبسطت الأرض ، وصنعت كل كائن) .

والمقطوعة الرابعة تصفه بأنه (المتعددة أسماؤه التى لايعرف لها عدد) .

ويلاحظ على هذه الأنشودة بمقاطعها الأربعة - الأدب المصرى القديم جـ ٢

ص ٩٨ / ١٠٤ - أنها تعطى صورة كاملة عن (اللّه الواحد الأحد) ، وأن ماعداه من (الآلهة) مجرد أسماء (لايعرف لها عدد) ، أو (مجرد صفات لجلالته) ، ولا تكاد تختلف معانى الأنشودة عن معانى الأناشيد الموجهة لأوزير ، أو التى أنشدها أخناتون لإلهه (الواحد الأحد) ، مما يفيد أن الوحدانية أصل العقيدة المصرية ، وماهو خارج هذه (الوحدانية) ليس إلا من سوء فهم النص ، أو من التعبيرات المجازية التى حفلت بها اللغة والكتابة المصرية . . هذا إلى مايخالط الفكر الإنسانى من أوشاب الحياة اليومية ، والاضطرابات النفسية والخيالية التى تُلبِس الخرافة ثوب الحقيقة .

ولعل أنشودة (النيل) تبين الفرق بين (الإله) الحقيقى ، والإله المجازى ، فالنيل (ينبع من الأرض . . نداه هو الذى ينزل من السماء - البخار الذى يتحول مطرا - عطرَ الرائحة ، مهدئ للشر ، خالق الكلأ للماشية ، مُقدم الذبائح لكل إله) - المصدر السابق ص ١٠٤ - وصف لهبات النيل وأثره فى نفوس المصريين .

أما أنشودة (إلى الشمس الغاربة) فليست إلا ابتهالاً وصلاة للإله (الواحد الأحد) ممثلاً فى (الشمس) ، هذا الكائن الذى يسع الأفق كله ، ومادامت الشمس رمزًا له ، أو اسمًا من أسمائه ، فإن التعبير الأدبى يسمح بذكر خصائص هذا الرمز ، وإن خالف طبيعة المَرْموز له :

(الصلاة «لرع حوراختى» ، حين يغيب فى أفق السماء .

الثناء لك يا «رع» ، حينما تغرب ، يا «آتوم» ، ويا «حوراختى» ، أيها الإله المقدس الذى جاء إلى الوجود بنفسه ، الإله الأزلى الذى وجد فى البدء .

الابتهاج لك يارب الآلهة ، الذى رفع السماء لتكون ممرًا لعينيه ، والذى سوّى الأرض على قدر امتداد شعاعاته ، حتى يرى كل إنسان الآخر .

أنت جميل يا « رع » كل يوم ، وأمك «نوت» تضمك إليها) - المصدر نفسه ص ١٠٨ .

وما أجمل هذه الصلاة التى تعبر عن صدق العقيدة ، والاطمئنان الكامل إلى عفو السماء ، وسعة رحمة الله : (أقول / لو كان الخادم ميالاً للخطيئة / فالسيد

ميال للعفو / وسيد طيبة / لايمر يوم على غضبه / ينتهى غضبه فى لحظة / ولايبقى منه شئ / والرجوع عن الخطيئة يتحول إلى سلام / أى آمون / أعطنى قلبك / قَرِّب منى أذنيك / افتح عينيك / نجّنى كل يوم / وزد طول حياتى) - الجزيرة المسحورة ص٩٢ / ٩٤ .

* ولم ينحصر وجدان الشاعر فى الأناشيد الدينية ، فقد كان أمامه متسع لحب الحياة ، أو للتمتع بالساعة التى قدرت له ، وليكون خيّاميًا أبيقوريًا :

(لتبتهج ، ولُتنس قلبك أن الإنسان يمجد يومًا) ، إن المقابر كلها تتهدم ، حتى مقابر الحكماء الأقدمين ، (قد غدت كأنها لم تكن ، لا أحد يأتى من هناك فيحدثنا كيف حالهم ، وماذا يعوزهم ، ليطمئن قلوبنا ، حتى نغدو نحن كذلك إلى حيث ذهبوا) ، لهذا ، فلتنعم بالحياة حتى يأتى يوم النديب ، ولكن (ذا القلب الساكن لايسمع صياحهم ، ولاينجّى النواح أحدا من العالم السفلى ، ما من أحد يستطيع أخذ متاعه معه ، ومامن أحد يعود بعد أن مضى) - ديانة مصر القديمة ص٢٧٠ .

وأغنية (الضارب على العود) - وإن أخذت طابعا مأساويا - لاتخرج عن شجن هذا الأبيقورى :

(الآلهة الغابرون - الملوك السابقون - راقدون فى أهرامهم ، وكذلك الأشراف والمعظمون قد دفنوا فى أهرامهم [١] / والذين بنوا بيوتا قد أصبحت مساكنهم كأن لم تكن ، فماذا جرى لهم ؟ / لقد سمعت أحاديث «أمحوتب» ، و «حردادف» اللذين يتحدث بكلماتهما فى كل مكان ، فأين مساكنهم الآن ؟ / جدرانهم دمرت ، ومساكنهم لاوجود لها ، كأن لم تكن قط / ولم يأت أحد من هناك ليحدثنا عن حالهم ، ويخبرنا عما يحتاجون إليه / لتطمئن قلوبنا قبل أن نذهب نحن كذلك إلى المكان الذى ذهبوا إليه) .

(فليفرح قلبك كى ينسى يوم تقام لك الشعائر الجنازية / أطع قلبك مادمت حيًا / ضع العطر على رأسك ، والبس فاخر الكتان ، وتزين بالنفائس الحقيقية

---

(١) هذا التعبير قد يكون مجازاً عن المغالاة فى تشييد القبور .

التى للإله / زد فى سعادتك أكثر فأكثر ، ولاتدع قلبك يحزن / اتبع هواك وتمتع ، وافعل ماشئت على الأرض / لاتعارض قلبك حتى يحين يوم النحيب ، فلا يخلص البكاء إنسانا من العالم السفلى) - الأدب المصرى القديم جـ ٢ ص٢٢٩ .

(سمعت هذه الأناشيد المكتوبة فى قبور من مضى / ومايقولون فى تعظيم الحياة فوق الأرض / مقلّلين من شأن العالم الآخر / لماذا يفعلون هذا ضد أرض الخلود العادلة الطيبة / حيث لاخوف ، وحيث لايستحب الخصام ، ولا يتحصّن الإنسان ضد زميله ، فى هذه الأرض التى لاعدو بها / هنا يرتاح أبناؤنا ، منذ أول الزمن ، وكل من سيولد لملايين وملايين / سيأتى إليها الكل ، فليس هناك من سَيَتَخلف فى أرض مصر / وليس هناك من لايقترب منها / وطول العمر على الأرض حلم / يقال لمن جاء للغرب : أهلاً ، سلمت وعوفيت) - الجزيرة المسحورة ص ٧٧ .

ومادام الحديث يتسع حتى للشك فى المصير الأخير ، وهذا الشك يجرّئ على الاستمتاع بالحياة ، فإن مشاركة المرأة الرجل فى هذا الاستمتاع يحقق أقصى ماتشرئب إليه العواطف ، ويعطف الجوانِح ، ويروى الظمأ المقدس بالنبيذ المقدس .

* وحظ الأدب المصرى القديم من فن الغزل كبير ، بسبب من الطبيعة الإنسانية ، وبسبب من المكانة التى حظيت بها المرأة فى هذا المجتمع الحضارى المتقدم .

تقول الحبيبة ، وهى ترتقى سلم البوح الشفيف ، متوشحة برموز وردية بيضاء :

(يحلولى أن أذهب إلى الحديقة ، لأستحم أمام عينيك / وأتركك تملأ ناظريك بجمالى / فى ثوبى الكتانى الأبيض وقد ابتل / أنزل إلى الماء معك / وأطفوا ثانية لك / وعلى يدى سمكة حمراء جميلة / أحملها لك / تعال ، انظر إلى) - الجزيرة المسحورة ص ٢٤ / ٢٦ .

ومن مجموعة منف الأولى المكتوبة على بردية هيراطيقية ، من عصر الأسرة التاسعة عشرة (حوالى ١٣٠٠ ق . م) وهى محفوظة بالمتحف البريطانى بلندن ، وتعرف باسم بردية هاريس الذى اشتراها من مصر - تقول الحبيبة أيضًا فى عتاب رقيق يفيض جاذبية ووجدا ، كأنها كاتبة (نشيد الإنشاد) :

(ياأجمل كل الناس / كم أود أن أشاركك بيتك ، زوجة لك / كى تضع على ذراعى ذراعك / ولكنك أدرت عنى حبك / أقول لقلبى بداخلى : غاب عنى حبيبى هذه الليلة / وأصبحت كَمَنْ فى القبر / ألست أنت الصحة والحياة ؟ / ألا تأتى إلى ومعك الفرح ؟ / ألا تهمك صحة قلبى؟) - المصدر السابق ص٢٧ / ٣٣ .

ومن مجموعة منف الثانية المكتوبة على نفس بردية هاريس ، تقول الحبيبة ، مستخدمة أسلوب (نشيد الإنشاد) كذلك ، لكنا هذه المرة مع زوجة عاشقة تفيض صبابة :

(أنا حبيبتك الأولى / حديقتك / زرعت فيها الزهور والنباتات الجميلة ذات العبير / يصفو جدولها الذى حفرته يداك / حين تهب ريح الشمال المنعشة / فهو المكان الجميل الذى أتنزه فيه . وعلى يدى يدك / وجسدى مستريح / وقلبى منتش / عندما نسير معا / عذب أن أصغى لصوتك / وأنا أحيا لأنى أسمعه) .

(عندما أراك / كل نظرة أطيب لى من أى طعام ، أو شراب) .

(وعندما تعود منتشيًا . وتنام على سريرك / أمسح قدميك / فالصحة والحياة عندما ترجع) - المصدر نفسه ص ٤٠ .

ومن مجموعة منف الثالثة ، من نفس البردية ، نجد صوت الحبيب يتحدث بجسارة امرئ القيس ، ورهبانية ابن ذريح ، وأناقة ابن أبى ربيعة ، من وراء ألفى عام تقريبا :

(حبيبتى حديقة ، تمتلئ ببراعم اللوتس / وصدرها يموج بفاكهة الحب / وجبينها شرك منصوب للطير / وأنا إوزة برية ، يجتذبها الطعم) .

(سأرقد فى دارى مريضًا ، دون أن يلم بى داء / سيدخل جيرانى لرؤيتى /

وستأتى معهم حبيبتى / هى خير من كل الأطباء / لأنها تعرف دائى) .

(فى قصر حبيبتى مدخل فى وسط الدار / بابه مفتوح / ستخرج حبيبتى غضبى / آه لوجعلونى حارس بابها / حتى تؤنبنى / وأسمع صوتها ، وهى غاضبة منى / وأنا كطفل خائف منها) - المصدر السابق نفسه ص ٤٥ .

وفى مجموعة أو ستراكا القاهرة ، يقول الحبيب متخذًا من حبه تعويذة تحميه كافة الشرور :

(هناك ، على الشاطئ الآخر / حب حبيبتى / وبينى وبينها الماء / وتمساح على رمال الشاطئ يكمن ، ولكننى إلى الماء أنزل / عليه أسير / وقلبى فوق الماء جرئ / وإذا بالماء أرض لقدمى / فحبها يقوينى / هو تعويذة سحر لى / فى الماء) .

(وعندما أضمها / وتفتح لى ذراعيها / كأننى فى «بُنْت» / محاطا بالعطور) .

(وعندما أقبلها ، وتنفرج شفتاها / أنتشى بلا شراب) - المصدر نفسه ص٤٧ .

ومن مجموعة «طيبة» ، على بردية هيراطيقية ، اشتراها من الأقصر (تشستر بيتى) ، وسميت باسمه ، وتمتاز هذه المجموعة بأنها كتاب كامل تام الحفظ ، تنقسم ثلاثة أقسام ، كل قسم عدة مقطوعات . . تقول إحداها ، وكأنها تتحدث على لسان خاطبة أو نخّاس أو رسام :

(فريدة حبيبتى فى حسنها / مامثلها أحد / أجمل من كل النساء هى / مشرقة / انظر اليها كالنجمة الإلهية / فى مطلع العام السعيد / ساطعة باهرة وضاءة البشرة / جميلة العينين حين تنظر / عذبة الشفتين حين تتحدث / كلمة زائدة لاتقولها / طويلة العنق ، جميلة الثدى ، شعرها لازورد أصيل / ذراعها يفوق الذهب / أصابعها أزهار اللوتس / مشدودة الخصر عند انسياب الرّدف / تزيد ساقاها من جمالها / تخطو على الأرض فى نبل / أسرت قلبى بعناقها / وأدارت رقاب كل العشاق / مشدوهين بجمالها) - المصدر نفسه ص ٤٩ .

وهذه مقطوعة تمثل حوارا نفسيا ، يكشف عن مجموعة انفعالات من الرغبة والرهبة ، والشوق والكبرياء :

(حالا يشرد قلبى / حين أفكر فى حبى لك / لايريدنى أن أعيش كغيرى / فهو ينفر فى مكانه / ويأبى حتى أن أتناول ردائى / أو أمسك مروحتى / لايرضى أن أكحل عينى / أو أدهن بالطيب جسدى) .

(«لاتقفى هكذا ، ادخلى » ، هكذا يقول لى كلما أفكر فيه / آه ياقلبى / لاتضايقنى / لماذا هذا الجنون ؟ / استرح . ابرد ، حتى يأتى لك حبيبك / آه ياعينى / هذا حال الكثيرين / لاتجعل الناس إذن يقولون : / «أضاعها الحب» / تجلد ، حين تذكره ، ياقلبى / ولاتحفل) - المصدر نفسه ص٥٤ .

أما هذه المقطوعة فصلاة ابتهال للإلهة (حتحور) ، حتى تكون واسطة خير بينه وبين الجميلة التى هجرته خمسة أيام : (أعبد ربة الذهب ، وأعظم جلالتها / وأكبر سيدة السماء / وأمجّد الإلهة «حتحور» / وأمدح السيدة الإلهية / تضرعت لها ، فأجابت طلبى / وأمرت لى بسيدتى / وجاءتنى طواعية لتلقانى / ما أعظم ماحدث لى / أنا سعيد ، أنا فرح . أنا عظيم / منذ أن قالوا لى : ها هى / انظر . . جاءت / يسجد لها العاشقون ، من فرط حبهم لها / هأنا أرفع صلاتى لإلهتى / لتهبنى حبيبتى / ثلاثة أيام مرت ، حتى أمس ، وأنا فى تضرعاتى ، لاسم إلهتى / هجرتنى من خمسة أيام) - المصدر نفسه ص ٥٧ .

* كانت للملوك منزلة كبيرة تصل إلى حد القيام بدور الآلهة ، أو أنهم خلفاء الله ، أو ظل الله فى الأرض ، وقد عبروا عن هذا المعنى - ولعله تعبير يتسم بميسم السخرية الفكهة المعروفة عن المصريين - بأن «رع» تخلى عن حكم العالم ، لما رأى من الغدر وعدم الوفاء ، وصعد إلى السماء ، وترك الدنيا للملوك ، وكان كل ملك يسمى (ابن الشمس) ، وعلى هذا صار الفرعون يعد نفسه من سلالة الآلهة ، وليس من طينة البشر . . ومن هنا كانت المبالغة فى مدح الملوك .

جاء فى وصف رمسيس الثانى ، وكان تيّاها ، حريصا على مزيد من الأمجاد، ولو كانت أمجاد غيره ، (من ملحمة قادش) : (جميل الطلعة ،

مثل الإله «آتوم» ، يعم السرور الناس عند مشاهدة بهائه ، عظيم الانتصارات على كل البلاد الأجنبية ، ولايمكن أسره فى الحرب ، إنه جدار قوى لجنوده ودرعهم فى يوم الواقعة ، ولامثيل له فى الرماية ، وقوته تفوق مئات الألوف مجتمعين ، وهو الزاحف قُدما ، متوغلا فى المعمعة ، لُبُّه مفعم بالشجاعة ، قوى القلب حين منازلة القرن ، كالنار عندما تلتهم ، ثابت القلب كالثور المتأهب لساحة القتال ، لايجهله أحد فى كل الأرض قاطبة . . كالأسد الضارى فى وادى غزلان ، يغزو مظفرا ، ويعود مبتهجا أمام الناس ، من غير مفاخرة ، متفوق فى تدابيره . . وقد وصل سالما إلى بيت رمسيس - بررعمسيس - العظيم الانتصارات ، ومكث فى قصره ، ممتلئا حياة مثل «رع» على عرشه ، وقد رحب الآلهة بحضرته قائلين له مرحبا ، يا ابننا المحبوب ، « رعمسيس - محبوب - آمون » ، وقد منحوه آلاف آلاف الأعياد والخلود على عرش والده « آتوم » ، وكل البلاد والأراضى الأجنبية أصبحت تحت قدميه) - الأدب المصرى القديم جـ ١ ص ٢٠٦ .

ومن قصيدة عن انتصار (مرنبتاح) تفيد أنه ليس فرعون (الخروج) :

(ولم يعد يرفع واحد من بين قبائل البدو رأسه / و «التحنو» قد خرجت / وبلاد «خانى» أصبحت مسالمة / و «كنعان» أسرت مع كل خبيث / وأزيلت عسقلان / و «جيزر» قبض عليها / و «بنو ام» أصبحت لاشئ / و «إسرائيل» خربت ، وليس بَها بذر / و «خارو» - فلسطين - أصبحت أرملة لمصر / وكل الأراضى قد وجدت السلم) .

وفى عهد بيبى الأول (٢٤٠٢ - ٢٣٧٧ ق . م) - من الأسرة السادسة - ظهر رجل من قعر المجتمع ، ليتسنَّم أعلى المناصب ، وحين أراد الملك أن يوقع العقوبة (على الآسيويين والساكنين على الرمال) تولى (ونى) أمر القيادة ، ولما تم النصر صار هذا الرجل (المتعدد المواهب) شاعرا يقول :

(عاد هذا الجيش فى سلام / بعد أن خرب أرض ساكنى الرمال .

عاد هذا الجيش فى سلام / بعد أن اجتاح أرض ساكنى الرمال .

عاد هذا الجيش فى سلام / بعد أن دمر محلاتها المسورة .

عاد هذا الجيش فى سلام / بعد أن قطع تينَها وكرومها .

عاد هذا الجيش فى سلام / بعد أن أشعل النار فى كل بيوتهم الفاخرة .

عاد هذا الجيش فى سلام / بعد أن ذبح عشرات الآلاف من رجال جيوشهم .

عاد هذا الجيش فى سلام / بعد أن حمل معه جيوشا كثيرة العدد أسرى) .

مثل هذا التكرار الذى كان يحدث على لسان الكورس فى بعض المسرحيات اليونانية ، والذى طالعنا به الأسلوب القرآنى على غير سابقة فى اللغة العربية ، والذى حدث فى بعض الموشحات الأندلسية - زعم بعض شعراء الزَّهْو - فى أواخر القرن العشرين - أنهم مخترعوه وأصحاب بَجْدته ! !

- ٣ -

وحظى فن النصائح والتعليمات بمكانة بارزة فى ميدان التعبير عن التجارب والخبرات التى تمتع بها رائدو الحضارة المصرية القديمة .

ومن أبرز هذه النصائح والآداب الخلقية مانسب إلى الوزير الحكيم (بتاح حتب) ، وزير الملك (إسيسى) - حوالى ٢٦٧٠ ق . م - ومربيه ، وقد أملى تعاليمه فى شيخوخته ، وذلك لإعداد ابنه ليتولى بعده وظيفته فى البلاط ، وقد جاء فيها :

(إن المستمع إلى النصيحة الطيبة هو المرء الذى يحبه الإله ، أما الذى لايصغى فهو الذى يبغضه الإله ، والقلب هو الذى يجعل صاحبه مصغيًا أو غير مُصْغٍ ، وحظ الإنسان الحسن هو قلبه) .

يلاحظ أن المصرى القديم يشير دائمًا إلى أن (القلب) هو موطن الفطنة والإدراك ، كما أنه موطن الانفعالات والعواطف النبيلة ، (إن قلب الإنسان هو إلهه ، وقد كان قلبى مرتاحا لأعمالى) ، وهو ما ألح القرآن الكريم على إبرازه ، ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ - ولهذا ﴿ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ - مادامت ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ - وهذا ما لا يريد أن يعترف به العلم الذى يركز على أن خلايا المخ هى مركز الحواس والمعارف ، لأن الحواس هى منافذ المعرفة ، ولأن العلم لايقول دائما الكلمة الأخيرة ، فلعل جديدا يكشف عن حقيقة ماأشار إليه القرآن الكريم - حقيقة لا مجازا - وتحدث عنه المصرى القديم حقيقة لامجازًا .

وجاء فى تعاليم بتاح حتب : (إذا كنت تبحث عن أخلاق من تريد مصاحبته فلا تسألنه عن شئ ، ولكن اقترب منه ، وتعامل معه على انفراد ، وامتحن قلبه بالمحادثة ، فإذا أفشى شيئا قد رآه ، أو أتى أمرا يجعلك تخجل له ، فعندئذ احذر حتى من أن تجاوبه) . . لعل هذا يذكرك بقول عمر ابن الخطاب عن حدود معرفة المرء غيره .

(إن الرجل الحكيم تنعم روحه باستمرار بقاء فضله على الأرض ، والرجل

العامل يعرف بعمله ، فقلبه ميزان لسانه ، وشفتاه تصيبان القول عندما يتكلم ، وعيناه تبصران عندما ينظر ، وأذناه تسمعان مايفيد ابنه الذى يقيم العدل ، ويبرأ من الكذب) .

هذه الفقرة مزيج من قول الرسول الكريم محمد (ينقطع عمل ابن آدم إلا من ثلاث) ، ومن المفهوم الحقيقى لتواصل الأجيال .

ونجد لهذا الحكيم الخبير من (آداب المائدة فى حضرة الرئيس) ما يتفق مع أحدث الآداب الاجتماعية حتى اليوم : (إذا اتفق أنك كنت من الجالسين على مائدة أكبر منك « مقاما » ، فخذ مايُقدم لك ، حينما يوضع أمامك ، ولا تنظرن إلا إلى ماوضع أمامك ، ولاتصّوبنّ لحظات كثيرة إليه ، لأن ذلك مما تشمئز منه النفس ، وانظر بمحياك إلى أسفل إلى أن يحييك ، وتكلم فقط بعد أن يرحب بك ، واضحك حينما يضحك ، فإن ذلك سيكون سارا لقلبه ، وماتفعله يكون مقبولاً ، لأن الإنسان لايعلم مافى القلب) .

(إذا كان رئيسك - فيما مضى - من أصل وضيع ، فعليك أن تتجاهل وضاعته السابقة واحترمه حسبما وصل إليه ، لأن الثمرة لا تأتى عفوا ، ولا تعيدن قط كلمات حمقاء خرجت من غيرك فى ساعة غَضَب ، التزم الصمت ، فإن هذا أحسن من أزهار «تفتف» ، وتكلم فقط إذا كنت تعلم بأنك ستحل المعضلات ، وإن الذى يتكلم فى المحفل لَمفْتَنّ فى الكلام ، وصناعة الكلام أصعب من أى صناعة أخرى) :

وقد أدرك هذا الحكيم أن (بيت الزوجية) هو الميزان الحضارى الجدير بالاهتمام ، وهو مقياس السعادة ، دنيا وأخرى ، لهذا أوصى :

(إذا كنت رجلاً ناجحًا فأسس لنفسك بيتًا ، واتخذ لنفسك زوجة تكون سيدة قلبك) .

(أشبع جوفها ، واستر ظهرها) .

(إن علاج أعضائها هو الدهان) .

(اجعل قلبها فرحًا مادمت حيًا ، فهى حقل مثمر لسيدها) .

(إذا أردت أن تحافظ على الصداقة فى بيت تدخله ، سيدا كنت أم خادمًا أم صاحبا ، فاحذر القرب من النساء ، فإن المكان الذى يكنّ فيه ليس بالحسن ، ومن الحكمة إذن ألا تحشر نفسك معهن ، ومن أجل ذلك يذهب ألف رجل إلى الهلاك ، بسبب متعة قصيرة تضيع كالحلم ، ولايجنى الإنسان من معرفتهن غير الموت) .

(وعندما يفتن الإنسان بأعضائهن البراقة - أعضاء من الزجاج - فإنها تصير بعد ذلك من حجر «هرست» - تافها مثل الحلم - والموت يأتى فى النهاية) - الأدب المصرى القديم جـ ١ ص ١٩١ / ١٩٣ .

يلاحظ أن كل وصايا وتعاليم (بتاح حتب) - مع قدم زمانها - لاتكاد تختلف فى شئ عن الآداب الإنسانية التى تتردد فى الديانات السماوية والفلسفات الإنسانية ، ولعل من أجل هذا شكا عالم فى عهد سنوسرت الثانى (٢١٥٠ ق . م) - أى بعد خمسة قرون تقريبًا من كتابة هذه التعاليم - من أن كل مايمكن أن يقال قد قيل من عهد بعيد ، ومنْ أن الأديب لم يبق له مايقوله إلا التكرار . . ثم قال فى أسى وحسرة : (ألا ليتَنى أجد ألفاظًا لم يعرفها الناس ، وعبارات وأقوالاً بلغة جديدة لم ينقض عهدها ، وليس فيما تلوكه الألسن أقوال لم تصبح تافهة مُملّة معادة ، ولم يقلها آباؤنا من قبل) .

* وماجاء فى وصية الملك أختوى أو (خيتى الثالث) - حوالى ٢١١٦ ق . م - من الأسرة العاشرة لابنه الملك (مريكا رع) الذى عاش فى مصر عصر الثورة الاجتماعية التى قلبت نظام البلاد ، والوصية مدونة على بردية (متحف لينتجراد) ، تحمل بين سطورها أدلة قاطعة على أنها كتبت فى العصر الذى تنسب إليه .

(حاذر من أن تعاقب الناس دون خطأ جنوه ، لاتقتل ، فإن ذلك لن يجديك شيئا ، ولكن عاقب بالضرب والاعتقال ، فتصلح الأمور فى البلاد ، اللهم إلا الثائر عليك الذى تتثبت من أمره) .

يقول الدكتور أحمد فخرى : ولأول مرة فى تاريخ مصر تقرأ فى تلك النصائح عن وجود محكمة بعد الموت ، يقف أمامها الإنسان صاغراً ، لاينفعه

أمام قضاته إلا العمل الصالح ، (فإن أعماله توضع مكدسة إلى جواره) .

ويشير أختوى إلى الشباب ، فينصح ابنه بالعناية بهم ، وتقريبهم منه ، وأن يمنحهم الحقول ، ويكافئهم بإعطائهم بعض الماشية ، ويحذره بشدة من أن يميز ابن شخص غنى على ابن شخص فقير ، ويجب أن يكون التقدير حسب الكفاءة الشخصية :

(أعْلِ من شأن الجيل الجديد ليحبك أهل الحاضرة . . . إن مدينتك مفعمة بالشباب المدرب الذين هم فى سن العشرين ، ضاعف الأجيال الجديدة من أتباعك ، على أن يكونوا مزودين بالأملاك ، وعلى ألا ترفع من شأن ابن العظيم على ابن الوضيع ، بل اتخذ لنفسك الرجل بحسب كفاءته ، ومع ذلك فإنه ليس من الفطنة أن تهمل الأسر الشريفة العريقة) .

(إن الرجل الغنى فى بيته لايتحيَّز - فى حكمه - لأنه صاحب عقار ، وليس محتاجا ، ولكن الرجل الفقير - فى وظيفته - لايتكلم حسب العدالة - ماعت - لأن الرجل الذى يقول : «ليت لى» ، لن يكون محايداً ، بل ينحاز إلى الشخص الذى يحمل فى يده رشوة) - الأدب المصرى القديم جـ١ ص ٢٠٢ .

ألا تدلنا هذه الفقرة على أننا نعيش اليوم فى مجتمع تحكمه الأمية السياسية والإدارية التى حولت (جَنّة اللَّه فى أرضه) إلى التَّصَحُّر والبطالة والقروض المشبوهة والخبراء الجواسيس ؟!

ويقول أختوى لابنه : (إن الجرانيت يمكن الحصول عليه دون عائق) ، ويحذره من الاعتداء على آثار الآخرين ، فإنه يجب عليه الحصول على ما يلزمه من أحجار من محاجر طرة لبناء قبره ، وألا يأخذ أحجارا مما تخرب من قبور الناس - مصر الفرعونية ص ١٧٢ / ١٩٤ .

كذلك الشأن بالنسبة للثروات ، يمكن لذوى النفوذ وأبناء ذوى النفوذ ألا يتاجروا فى قوت الشعب باسم القروض ، واستيراد الأطعمة الفاسدة ، وبيع الوطن لغير أهله ، فى مقابل العمولات التى تخزن فى الأرقام السرية ليوم آت لاريب فيه ، وعليهم أن يعملوا لاستخراج الذهب من (أرض الذهب) ، وإنهم لموسرون بيسار الآخرين .

(إن فضيلة الرجل المستقيم أحب - عند اللّه - من ثَوْر - يقدم قربانا - من الرجل الظالم) .

* وعن تعاليم أمنمحات الأول (١٩٩١م - ١٩٦٢ ق.م) يقول الأستاذ جاردنر : (إنه من المحتمل - عندما أشرك أمنمحات ابنه سنوسرت فى حكم البلاد - أن فاه أمام رجال بلاطه بنصائح غالية ، تحمل فى طياتها مالاقاه من المصاعب والمصائب ، وماقام من عظيم الأعمال ، وماجعله يشرك ابنه معه فى حكم البلاد ، ولا يبعد أن رجال الحاشية الذين أعجبوا بهذه النصائح وتلك الحكم الثمينة التمسوا من الملك أن يدونها ، فكلّف بدوره كاتبًا ملكيًا بذلك) .

ويقول الأستاذ سليم حسن : (يمكن القول إن هذه الوثيقة مقال سياسى ، فى صورة قطعة أدبية ، صيغت دعاية لتعضيد حزب سنوسرت الأول الذى كان يواجه موقفًا حرجًا بعَد موت والده ، وسنوسرت يقاتل الأعداء على الحدود الغربية . . قد تكون كتبت بإيعاز من سنوسرت ، أو بوازع من الكاتب نفسه) .

(وفى هذه التعاليم يظهر المتوفى بسلطانه العظيم يعضد سنوسرت ، يخاطبه من قبره ، وقد كان من الأمور الطبيعية فى التفكير المصرى أن يأتى الوالد - من عالم الأموات - لمساعدة ابنه على الأرض ، وذلك لأن موتى المصريين كانوا دائمًا حاضرين) :

(أنت يامن ظهرت إلها - أصبحت ملكًا - أصغ لما سألقيه عليك ، حتى تصير ملكًا على البلاد ، وحاكمًا على شواطئ النهر) .

(خذ الحذر من مرءوسيك ، لأن الناس يصغون لمن يُرهبهم ، ولا تقتربن منهم على انفراد ، ولا تثقنّ بأخ ، ولا تعرفنّ لنفسك صديقًا ، ولا تصطفين لنفسك خلانا ، لأن ذلك لافائدة منه) .

(وعندما تكون نائمًا كن الحارس لشخصك حرصًا على قلبك ، لأن الرجل لاصديق له فى يوم الشدة ، فإنى قد أعطيت الفقير ، وعلّمت اليتيم ، وجعلت من لاثروة له مثل صاحب الثراء ، وقد كان آكل خبزى هو الذى جنّد الجنود ضدى ، والرجل الذى مددت له يد المساعدة هو الذى أحدث لى بها المتاعب ،

والذين يرتدون فاخر كتانى عاملونى كالذين فى حاجة إليه ، والناس الذين يتضمخون بعطورى قد لوثوا أنفسهم وهم يستعملونه بخيانتى) - الأدب المصرى القديم جـ ١ ص ٢٠٩ / ٢١٣ .

* وكان أعظم كشف جاوز حد المألوف - كما يقول بريستيد - هو أننا عرفنا أن حكمة أمنموبى التى حفظت لنا فى ورقة مصرية بالمتحف البريطانى قد ترجمت إلى العبرية فى الأزمان الغابرة ، وأنه بذيوعها فى فلسطين صارت مصدرًا استقى منه جزء بأكمله من كتاب الأمثال فى التوارة - فجر الضمير ص١٢ .

ويقول الأستاذ سليم حسن : اختلف علماء الآثار فى تحديد تاريخ هذه الوثيقة ، غير أن الرأى الأخير يجعل عصرها ينحصر مابين الأسرة الحادية والعشرين والثانية والعشرين ، وهذا هو رأى كل من الأستاذ إرمان والأستاذ لنجا .

وقد لفت ماوجد متشابها فى كتاب «أمنموبى» وفى كتاب «سفر الأمثال» علماء الألمان من المشتغلين بدرس كتاب العهد القديم ، وخلق لهم موضوعًا جديدًا ، وهو البحث عن الصلة بين الآداب العبرية ومَدَنيّتها ومصر القديمة .

وأول من بحث فى هذا «أدولف إرمان» ، و«زيته» ، و «هيوبرت جريم» ، وقد ألقى كل منهم بعض الضوء على علاقة الكتابين بعضهما ببعض ، لكن البحث المستفيض فى هذا الموضوع يرجع الفضل فيه إلى «هوجو جروسمان» .

وقد أورد الأستاذ سليم حسن فى الصفحات (٢٨٥ / ٢٩٣) من كتاب (الآدب المصرى القديم جـ ١) مقارنة بين النصوص العبرية والأمنموبية .

ويقول الأستاذ بريستيد : هى فى نظمها ووضعها أكثر ترتيبًا من أى وثيقة أخرى من نوعها ، فقد قسمت بنظام إلى ثلاثين فصلاً ، كل فصل خاص بموضوع معين ، وتبدو مقسمة إلى مقطوعات ، كل منها مشتمل على أربعة أسطر أو ستة أو ثمانية ، كما يوجد بعض مقطوعاتها مؤلفًا من سطرين فقط ، ويلاحظ أنه لم يبذل فى تأليف تلك الحكم أى جهد لتنسيق فصولها أو ترتيبها منطقيًا .

ويقول الأستاذ «لنج» أو «لنجا» من جامعة كوبنهاجن : (إن آراء أمنموبى الدينية أعمق كثيراً من سابقاتها ، كما أنها تنفذ إلى الأعماق بدرجة عظيمة تفوق فيها آراء أسلافه من الحكماء ، إذ كانت التقوى فى نظر أصحاب الحكمة الآخرين تعد فضيلة ، وأن فكرة الموت والخلود الأبدى قوة دافعة للمرء على السلوك الفاضل ، وأن اللّه وحده هو الذى يعطى الغنى والحظ ، فى حين أن الشعور بالإدانة للّه وحده هو فى نظر أمنموبى العامل الفاصِل فى كل تصرفاته عن الحياة وسلوكه فيها) .

ومما يزيد من أهمية تلك النصائح ووصولها إلى هذه القمة من تقدير الضمير والإحساس برقابة اللّه ، أنها دونت فى القرن العاشر قبل الميلاد ، من قبل أن تكتب التوراة ، وقد ترجمت هذه الحكم إلى العبرية ، وإن قسما هاما منها قد وجد سبيله إلى كتاب العهد القديم - فجر الضمير ص٣٤٦ / ٣٤٧ .

ومن هذه الحكم :

(إن الرجل الأحمق الذى يخدم فى المعبد ، مثله كمثل شجرة نامية فى الغابة، فى لحظة يفقد أعصابه ، ويكون مصيره إلى مرفأ الأخشاب ، وينقل بعيداً عن مكانه ، والنار مثواه . . أما الرجل الحازم حقًا ، الذى يضع نفسه جانبًا ، فمثله كمثل شجرة باسقة فى الحديقة ، يفلح وتتضاعف ثمرته ، ويثمر فى حضرة سيده ، فظله وارف ، وثمرته أكلها حلو ، ويجد فى الحديقة مصيره) .

(لاتدعن قلبك يجرى وراء الثروة ، ولاتجهدن نفسك فى طلب المزيد ، عندما تكون قد حصلت على حاجتك ، وإذا جاءتك الثروة عن طريق السرقة ، فإنها لاتمكث عندك زمن الليل ، فحينما ينبلج الصباح لاتكون فى بيتك ، لأنها تكون قد صنعت لنفسها أجنحة مثل الإوز ، وصعدت إلى السماء) .

(اعبد «أتوم» ، إله الشمس ، عندما تشرق ، وقل : امنحنى سلامة وصحة ، وسيمنحك ماتحتاجه مدى الحياة ، وتأمن من الخوف) .

(لاتنم الليل وأنت خائف من الغد ، لأننا لاندرى عندما ينبثق الفجر ماذا يكون عليه الحال فى الغد ، فالإنسان لايعلم ماسيكون عليه الغد ، اللّه فى

كماله، والإنسان فى عجزه ، على حين أن أعمال اللَّه مختلفة الاتجاه) .

(لاتقولن لست أحمل خطيئة ، ولا تجهدن نفسك فى إثارة النزاع ، أما الخطيئة فأمرها عند اللَّه ، وهو الذى يختمها بإصبعه ، وليس فى يد اللَّه إنسان كامل ، ولايقف العجز حائلاً أمامه ، فإذا أجهد الإنسان نفسه ليصل إلى الكمال، فإنه فى لحظة يهدمه) .

(كن رزينا فى عقلك ، وثبت قلبك ، ولا تجعلن من لسانك سُكّانًا ، فإن كان لسان الإنسان كسكان السفينة ، فإن رب الجميع هو ربّانها) - فجر الضمير ص٣٥١ / ٣٥٤ .

(لاتغمس قلمك - في المحبرة - حتى تؤذى شخصًا آخر ، ولاتغش فى المقاييس والأوزان ، ولاترتش ، اقض بعدل ، لاتظلم الضعيف لصالح الغنى ، ولا تطرد من كان ملبسه غير مناسب) .

(لاتغش فى جباية الضرائب ، ولاتكن قاسيًا إذا ما اكتشفت مبلغًا كبيراً متأخرًا على القائمة عند أحد الفقراء ، قسمه إلى ثلاثة أجزاء ، واحذف جزءين ، ولا تبق إلا جزءًا واحدًا) .

(إن جميع ماتفعله فى غير عدالة لن يجلب لك بركة ، إذ إن مكيالاً واحدًا يعطيه الإله خير من خمسة آلاف تكتسبها بغير حق) .

(عليك أن تنحنى أمام الرئيس السريع الغضب ، حتى ولو أهانك ، فإنه سيصلح الأمر فى اليوم التالى) .

(لاتهزأ بالأعمى ، ولاتسخر من القمئ ، لاتسبب ضرًا لمقعد ، ولاتزدر رجلا فى يد الإله) - ديانة مصر القديمة ص ١٨٣ / ١٨٤ .

ومع هذا يقولون إن ديانة مصر القديمة لم تنطو على كتاب مقدس ، مع علمهم بالظروف الصعبة التى أحاطت بالتراث المصرى ، ومع علمهم بأن ثمة كتبًا مقدسة لم تبق منها باقية ، ومع علمهم بأنه ما من كتاب مقدس (محفوظ) كما نزل من السماء سوى (القرآن الكريم) ، وأن (العهد القديم) صناعة يهودية ، وأن (العهد الجديد) لم ينقل عن السيد المسيح إلا سطوراً .

ثم إن كل مدونة مصرية باقية أصابها النهب ، وصارت فى ذمة المتاحف الأوربية والأمريكية . . ولو أنى حرصت على الإشارة إلى مصير كل مدونة عرضت لها » لوجبت الإشارة إلى أن مدونة (شجار بين إنسان سئم الحياة وبين روحه) التى تقارن بسفر أيوب ، محفوظة فى متحف برلين ، و (شكوى خع خبر رع سنب) محفوظة فى المتحف البريطانى ، و (نبوءة نفررروهو) موجودة بمتحف لننجراد . . وهكذا ، وهكذا !!

أشهر مسرحية ملحمية وأقدمها فى التاريخ الإنسانى هى قصة (المخاصمة بين «حور» و «ست») ، وهى من مقتنيات المتحف البريطانى ، وهى تتحدث عن اغتيال (ست) لأخيه (أوزير) ، وتمزيق أعضائه فى أنحاء الدلتا ، حتى لايسهل العثور عليه ، لكن الأخت (إيزيس) ، جعلت همها البحث عن (أوزير) ، وإعادته إلى الحياة ، وبعد أن عاد (أوزير) تنازل عن حكم مصر ، وهبط يحكم فى العالم السفلى ، واشتد النزاع بين (حور) و (ست) لوراثة العرش ، فتخاصما إلى محكمة الآلهة التى كان يرأسها (رع) ، ومع أن الحق كان فى جانب (حور) فإن (رع) كان يناصر (ست) لقوته وجبروته ، لكن كلا من أوزير وإيزيس ساندا (حور) ، فاضطر (رع) ومجلس الآلهة إلى التراجع ، وحصل (حور) على حقه الشرعى فى حكم مصر .

يقول الأستاذ سليم حسن : إن (رع) يمثل شخصية الفرعون ، وآلهة التاسوع يمثلون مجلس بلاطه ، ومظاهرة (رع / ست) على حور صاحب الحق الموروث تعنى رغبة فرعون فى تنصيب أحد عظماء قومه فى وظيفة حاكم ، متخطّيا بذلك قانون الوراثة الذى تسير عليه ، وهذا لم يحدث إلا مرة واحدة فى تاريخ مصر ، وذلك فى العهد الذى تلا سقوط الدولة القديمة ، فإن أمراء الإقطاع قد ازداد نفوذهم ، وصارت المقاطعات التى يحكمونها كأنها ضياع لهم ، يستغلونها فى حياتهم ، ويورثونها أبناءهم . . ولما جاء ملوك الأسرة الثانية عشرة ، ووجدوا أن قوة الأمراء تجاوزت حدودها ، اضطروا إلى التسليم بالأمر الواقع ، وبذلك اعترفوا بقانون الوراثة فى المقاطعات ، لكنهم أخذوا يعملون على هدم هذا النظام شيئًا فشيئًا ، بتنصيب حكام موالين لهم على تلك المقاطعات ، والقضاء على الأسر الوراثية ، كلما أمكن ذلك .

وقد أراد أحد الفراعنة - جريًا على تلك السياسة التي استنوها - أن ينصّب حاكمًا يثق به على إحدى المقاطعات ، بدلاً من آخر يستحقها بالوراثة ، فقام العراك بين الاثنين . . من هنا وقف (رع) يعاضد (ست) فى الخصام الذى جرى بينه وبين أخيه على وظيفة الملك التى آلت إلى (حور) بطريق الوراثة . .

فالقصة إذن تشرح فى طياتها موقفًا سياسيًا تاريخيًا يدور حول ماكان يلاقيه الملك فى ذلك الوقت من صعوبات - الأدب المصرى القديم جـ ١ ص ١٤٧ .

ولعله من الجرأة الفنية أن تعالج القضايا السياسية ، أو الإنسانية ، على مستوى الآلهة ، لكن مما يهيىء لهذه الجرأة أن الآلهة لم يكونوا إلا رموزًا أو (أسماء) لصفات (الإله الواحد الأحد) ، ومعروف أن الرمز لعب دورًا كبيرًا فى حياة القوم الثقافية ، مما يفيد سعة آفاقهم . . وقد تجلى هذا التناول الرمزى فى الكتابة التصويرية وفى الأعمال الفنية ، وبخاصة رسوم الآلهة ، وكذلك فى بناء الهرم الذى اتخذ من أقدس شكل يرمز به إلى الشمس ، ترسل أشعتها ، وفى العبارة كذلك ، فما أعجب أن تجد فى (متون الأهرام) ، أن الحساء (طهى للملك من عظام الآلهة) !! الأدب المصرى القديم جـ ٢ ص ١٨ / ٢٠ وص٣٧ / ٥٤ .

* وإذا كانت قصة («حور» و «ست») لم تصل قديمًا إلى خشبة المسرح ، فإنها مالبثت أن صيغت فى شكل درامى . أما (دراما التتويج) فتتناول تتويج الملك (سنوسرت الأول) بعد موت والده (أمنمحات الأول) .

وقد وضع الأستاذ (زيته) فى درس هاتين الدرامتيّن مؤلفًا خاصًا سماه (المتون التمثيلية) .

وتقع (دراما التتويج) فى (ستة وأربعين منظرًا ، ومن يطلع على المتن الأصلى ير أن كل منظر من مناظره قد يدخل فى تمثيله أشخاص كالكهنة والموظفين وأقارب الملك ، وحيوانات كالثيران والماعز ، وكذلك يدخل فى تمثيله أشياء جامدة كالأعمدة المقدسة والأشجار والنباتات والخبز والحلى . . إلخ) - الأدب المصري القديم جـ٢ ص ٢٤ .

وأما (الدراما المنفية) التى وجدت على حجر أسود محفوظ بالمتحف البريطانى ، استعمله القرويون المصريون قاعدة لطاحون تطحن غلالهم - فقد كانت أسبق عمل درامى ، إذ ظهرت حوالى سنة ٣٤٠٠ ق.م ، أى من عهد الأسرة الأولى ، أسرة مينا ، على حين ظهرت دراما (انتصار حور على أعدائه) فى الأسرة الثالثة ، و (دراما التتويج) فى أوائل الدولة الوسطى ، حوالى سنة

٢٠٠٠ ق.م . . هذا على حين ظهرت أول دراما يونانية لإسكلس سنة ٤٩٩ ق.م ، مع التحفظ على مفهوم (الأولية) .

و (مسرحية منف) تشبه كل الشبه القصص المقدسة التى مثلت فى المسرحيات المسيحية الرمزية فى القرون الوسطى ، تبرز هذه المسرحية لنا إله الطبيعة القديم ، إله الشمس (رع) ، قاضيًا يحكم فى شئون البشر ، فهو يحكم عالمًا يرى من واجبه توجيه حياة البشر فيه ، طبقًا لقواعد تفصل بين الحق والباطل .

ويمكن تلخيص هذه المسرحية فى أنها محاولة لتفسير أصل جميع الأشياء ، ويدخل فى ذلك نظام العالم الخلقى ، وأن هذا الأصل يرجع إلى (بتاح) إله (منف) ، أما كل العوامل الأخرى التى ساعدت على خلق العالم ، أو المخلوقات التى كان لها نصيب فى ذلك ، فلم تكن إلا مجرد صور أو مظاهر لبتاح ، إله منف المحلى ، المسيطر على أصحاب الحرف والصناعات ، ومن ثم يعد إله كل الحرف .

وتقول المسرحية : (حدث أن القلب واللسان تغلبا على كل عضو فى الجسم ، وعلما الإنسان أن «بتاح» كان فى كل صدر ، على هيئة القلب ، وعلى هيئة اللسان فى كل فم ، سواء فى ذلك جميع الآلهة ، وجميع الناس ، وجميع الماشية وجميع الزواحف ، وسائر الأحياء ، وفى الوقت نفسه يفكر فيما يشاء ، ويأمر بكل مايريد) .

(وبذلك يسير كل عمل ، وكل حرفة ، فنشاط الذراعين ، وسير الساقين ، وحركة كل عضو ، تكون حسب هذا الأمر الذى يديره القلب ، والذى يخرج من اللسان ، وهو الذى يجعل لكل شئ قيمة) .

(وحدث أن قيل عن «بتاح» أنه خلق «آتوم» ، وأوجد الآلهة ، وهو «تاتن» - اسم بتاح القديم - مصور الآلهة ، ومنه خرج كل شئ ، سواء أكان طعاما أم غذاء ، أم مئونة للآلهة ، أم أى طيب فى الوجود) .

(وهو الذى صور الآلهة ، وأقام المدن ، وأسس المقاطعات ، وأقام الآلهة فى أماكنهم المقدسة ، وثبت دخلهم المقدس ، وأعد محاريبهم ، ونحت تماثيل

لأجسامهم ، كما تحب قلوبهم ، وبذلك حلّت الآلهة فى أجسامها المصنوعة من كل نوع من الخشب ، ومن كل صنف من المعادن ، ومن كل نوع من الطين ، ومن كل ماينمو عليه - أى على «بتاح» بصفته الأرض - من الأشياء التى صنعت منها هذه التماثيل) - فجر الضمير ص ٥٢ / ٥٤ .

هذه مجرد نماذج لفن تفردت به مصر القديمة ، شأنها فى كثير من الفنون والوسائل الحضارية الأخرى ، مع ضرورة ألا ننسى ضياع أكثر النصوص للأسباب الكثيرة التى تكررت الإشارة إليها .

لكن ثمة فنا أوسع مجالاً من المسرحية ، وأبعد تأثيراً فى الفن اليونانى ، هو (القصة) بآفاقها المتنوعة .

فهذه قصة (الملاح الغريق) - مقتنى متحف لينتجراد - يرجع زمن كتابتها إلى الأسرة الثامنة عشرة (١٥٥٠ / ١٣٠٧ ق . م) وتذكر أن الفرعون أرسل أحد أمراء «ألفنتين» إلى الصومال ، أرض الآلهة ، ليحضر بعض النفائس ، لكنه فشل فى مهمتَّه ، وأحزنه الأمر حزنًا شديدًا ، فأراد تابعه الأمين أن يخفف عنه ، فروى له (أنه كان مسافراً على ظهر سفينة إلى بعض الأصقاع الغنية بمعادنها ، ليؤدى رسالة ملكية ، وحدث أن ثارت عاصفة هوجاء حطمت السفينة ، فغرق ركابها ، ولم ينج سواه ، حيث حمله الموج إلى جزيرة ، ولما أفاق من غشيته رأى أمامه ثعبانا هائلاً ، فكاد يطير قلبه شعاعا ، لكن هذا الثعبان الهائل أحسن استقباله ، وأخذ يسرّى عنه ، ثم ذكر له أن سفينة مصرية ستمر بهذه الجزيرة ، وتحمله إلى مصر سالمًا) ، وما كاد يحين موعد عودته حتى زوده الثعبان بكثير من النفائس - الأدب المصرى القديم جـ١ ص ٥٨ .

وهذه القصة دخلت فى متن قصة عوليس فى الأوديسه ، كما دخلت فى قصة السندباد البحرى فى (ألف ليلة وليلة) ، ويمكن أن تكون أساسًا لقصة (الجساسة والمسيخ الدجال) فى التراث العربى . . وقد تبين عالم المصرولوجيا الروسى جو ليتشيف أن أحداث القصة موجودة فى الأوديسه ، لابمعناها فحسب، بل بسياقها ، وبكل مافيها من الأوصاف ، وبالكثير مما فيها من التعبيرات . . ولم يكد جولتشيف يقف على هذه الحقيقة حتى أذاعها فى رسالة ذكر فيها نصوص ورقة البردى إلى جانب النصوص المماثلة من الأوديسه ، فوصلت هذه الرسالة إلى (مورى) فى باريس ، فدرس ملف البردى الذى ترجمه جوليتشيف ، وأيد ما أثبته جوليتشيف وزاد عليه .

يقول موري : (من كل هذه الموازنات التي أبرزها جوليتشيف بدقة تامة ، يتَّضح لي ، كما اتضح له ، أن هناك في الواقع أكثر من مشابهة عرضية بين القصة المصرية وقصة عوليس عند الفياسيين ، وليس ذلك مقتصرا على الجزئيات التي يمكن أن توجد على انفراد في كل قصة يدور الكلام فيها على سائح ينجو من الغرق ، بل المجموع يدل أيضا على أن الفكرة في القصتين واحدة) .

وهذه القصة التي ترجمها جوليتشيف هي واحدة من عشرات من أوراق البردي التي بقيت بعد خمسة آلاف سنة تقلبت على مصر ، فأمكن أن تنجو من التدمير ، فكيف لو أن المكتبات التي ثبت أن مصر كانت تعمر بها من الأسرة السادسة - أي من خمسة آلاف سنة - بقيت ، ولم تعدُ عليها عوادي البلى والنهب والحريق - على هامش تاريخ مصر القديم ص٨٠ .

ونجد هومير قد استعان في الأوديسه بما جاء في قصة (ساتني وولده) المصرية ، ذلك أن عوليس ينزل إلى الجحيم ، ويقول : (رأيت مينوس جالسا والصولجان المذهب في يده ، وهو يقضي بين الأموات ، وهؤلاء مجتمعون حوله يعرضون قضاياهم عليه ، جالسين أو واقفين في دور الهاديس - دار الأموات أو دار الجحيم - ذات الأبواب الواسعة) .

ويلاحظ أن عوليس ينزل إلى الجحيم في قصة هومير ، وساتني وولده ينزلان إلى الجحيم في القصة المصرية . . وأن الأموات يعرضون قضاياهم على مينوس في جحيم هومير ، والأموات يناديهم المنادون لعرض قضاياهم على أوزير في القصة المصرية . . وأن الأموات واقفون أو جالسون في دور الهاديس) ذات الأبواب الواسعة ، والأموات واقفون أو جالسون في سبع قاعات في القصة المصرية .

ولاتكاد تختلف جحيم هومير عن الجحيم المصرية إلا في أن الأموات في جحيم هومير يعرضون قضاياهم على مينوس بأنفسهم ، وبدون نظام ، بينما الجحيم المصرية فيها منادون ينادون القضايا واحدة بعد أخرى ، هذا إلى أن في الجحيم المصرية ميزانًا يصدر الحكم ، تبعًا لنتيجته ، وليس في جحيم هومير غير مينوس يقضي بإرادته .

هذا من ناحية الشكل ، أما من ناحية الموضوع فإن التقاضى عند هومير كالمنازعات التى تكون بين الأحياء ، وليست حسابًا يؤديه الأموات عن أعمالهم فى الحياة ، وبهذا تفقد جحيم هومير كل القيمة التهذيبية التى للجحيم المصرية – على هامش التاريخ المصرى القديم ص ٦٣ .

وثمة قصص أخرى ، لعل أشهرها وأكثرها انتشاراً قصة (شكاوى الفلاح الفصيح) التى وقعت حوادثها فى عهد الملك (نب كاو رع) الذى حكم البلاد فى نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد ، أى تعد أقدم من قصة (الملاح الغريق) ، وكذلك قصة سنوحى أو (سنوهيت) التى جرت أحداثها أوائل الأسرة الثانية عشرة ، حوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م ، فضلاً عن قصة الراعى ، وقصة هلاك الإنسانية ، وقصة الملك خوفو والسحرة ، وقصة الأخوين ، وقصة الأمير المسحور ، وغيرها من القصص التى عنى بنشرها الأستاذ سليم حسن فى كتابه (الأدب المصرى القديم) جـ١ ص ٤٠ / ١٨٠ .

- ٦ -

من أهم المعالم الحضارية (البريد) ، فى داخل الدولة وخارجها ، وهو يقوم بدور خطير فى نقل الأخبار ، وتدعيم العلاقات بين الأفراد وبين الدول ، وقد يقوم بدور المخابرات العسكرية والأمنية المحلية .

وقد وجدت رسائل تحمل عناوين ، مما يفيد قيام شخص بتوزيعها ، (ولو كان الأمر مقصوراً على حمل رسالة واحدة لما احتاج إلى كتابة عنوان ، إذ كان فى قدرة حاملها أن يحفظه) .

(وأول وثيقة عرفنا منها لفظ «ساعى بريد» رسمى ، يرجع تاريخها إلى الأسرة السادسة ، وكان ذلك فى رسالة شكوى ، جاءت فيها لفظة «ساعى بريد» مرتين) .

(أما فى الدولة الحديثة فنعرف أن حامل البريد الرسمى كان يسمى «حامل الرسالة الرسمية» ، وجاء فى ورقة «آبوت» أن رجال الشرطة كانوا يكلفون توزيع وثائق رسمية ، وكان من الجائز أن يحمل حامل البريد الرسمى رسائل شخصية ، إذا اتفق أنه ذاهب إلى مكان المكتوب إليه) .

(ولدينا وثيقة يفهم منها أن البريد كان يحمل إلى البلاد الأجنبية بوساطة الجياد التى كان لها محاطّ خاصة لتغييرها فى الطريق) - الأدب المصرى القديم جـ١ ص٣٥١ / ٣٥٢ .

ومن الرسائل الشخصية :

كتب (بيبس) إلى أستاذه (أمنموبى) يصف مدينة (بر رعمسيس) :

(لقد وصلت إلى مدينة «بيت رعمسيس» ، محبوب آمون ، ووجدتها غاية فى الازدهار ، وهى عرش جميل منقطع النظير ، وهى على طراز «طيبة» ، وإن «رع» هو الذى أسسها بنفسه ، فهى المقام الذى تلذ فيه الحياة) .

(حقلها مملوء بكل ماطاب ، ولديها مؤن وذخيرة كل يوم ، بركها تزخر بالسمك ، وبحيراتها بالطيور ، حقولها يانعة بالبقل ، وشواطئها محمَلة بالبلح ، ومخازنها مفعمة بالشعير والقمح ، وهى تناطح السماء فى ارتفاعها ، وفيها

الثوم والكراث للطعام ، وخس الجنينة ، وفيها الرمان والتفاح والزيتون والتين من البساتين ، وخمر « كنكمة » اللذيذة التى تفوق الشهد حلاوة ، وفيها سمك «وز» الأحمر من قناة . . . وسمك «تبن» من بحيرة «نهر») .

ومن رسالة حاكم إلى تابع ، وهى تكشف عن مدى الثراء والوفرة التى كانت تنعم بها مصر :

(وبعد ، فعندما يصل إليك خطابى ، يجب عليك أن تدفع الضريبة ، مع كل مايتعلق بها من ماشية ، ومن عجول وثيران ذات قرون قصيرة ، ومن غزلان وتياتل وأوعال ونعام ، وإن قوارب حملها وسفن نقلها مستعدة فى الحال ، وبحارتها وملاحوها مجهزون للسفر ، وتدفع ماعليك من ذهب كثير ، قد صيغ أطباقا ، وذهب صاف بالمكيال ، وتبْر حسن من الصحراء موضوع فى حقيبة من الكتان الأحمر ، وكذلك تدفع ماعليك من العاج والأبنوس وريش النعام وثمر النبق . . إلخ) .

ومن تلميذ إلى معلمه :

١ - (لقد ربّيتنى صغيرا ، حينما كنت معك ، وقد ضربت ظهرى ، ولذلك دخل تعليمك إلى أذنى ، وإنى كالجواد الشارد ، فلايأتى النوم نهارا إلى قلبى ، ولا يأخذنى ليلا ، لأنى أريد أن أكون مفيدا لسيدى كالخادم النافع لصاحبه) .

٢ - (ليت آمون يمنحك السرور فى قلبك ، وليته يهبك عمرا طويلا حسنا ، حتى تعيش عيشة سعيدة ، وحتى تبلغ العلا ، وتكون شفتك فى صحة ، وأعضاؤك نامية ، وعينك تبصر على بعد) - الأدب المصرى القديم جـ ١ ص٣٨٤ / ٣٩٠ .

* مع أن الرسائل السابقة لاتكاد تختلف فى أسلوبها ومعانيها عن رسائل اليوم ، فإن رسائل (حقانخت) إلى ابنه الأكبر تنطق (بلازمات) الرسائل (الأُسرية) اليوم ، وبخاصة رسائل العمال والمجندين :

١ - (وبلغه تحياتى ألف مرة ، اعتن به ، وأرسله إلى مباشرة ، بعد أن تنتهى من زرع الأرض) .

٢- (سلّم لى على أمى « إيبى » ألف مرة ، ومليون مرة ، وسلم على «حتيت» وجميع العائلة ، وسلم لى على «نفرت» ، أما عن موضوع إيذاء محظيتى ، فإنى أحذرك ، إنك لست شريكًا لى ، وخير لك أن تسكت) .

٣- (انظر ، إنها محظيتى ، ومن المعلوم جيداً أنه يجب إحسان معاملة محظية الإنسان . . . كيف يمكننى أن أعيش معكم فى مكان واحد ، إذا كنتم لاتحترمون محظية لأجل خاطرى ؟!) - مصر الفرعونية ص ٢٠٦ .

* فى سنة ١٨٧٧م كان جماعة من أهل قرية الحاج قنديل يحفرون فى تل العمارنة ، أو قرية بنى عامر ، ليبحثوا عن طوب وحجارة لمساكنهم ، وكان أهل هذه القرية وأهل القرى المجاورة لها قد ألفوا من أزمنة بعيدة أن يلتمسوا فى هذا المكان مايريدونه من سماد لحقولهم ، وأدوات لمبانيهم . . وتناول أحدهم قالبًا ونظفه من التراب المتراكم عليه ، وفوجئ بأن النقوش تغطى جوانبه ، وتنتظمها صفوف لاعوج فيها ولا انقطاع ، فعرض الأمر على زملائه ، فنظفوا هم أيضًا قوالب أخرى ، فإذا النقوش لاتختلف ، وظهر إلى جانب ذلك أن من الطوب ماهو أسود ، ومنه ماهو أصفر ، ومنه ماهو أحمر ، فلم يبق لديهم شك أنهم عثروا على لُقية أثرية ، فعادوا يحفرون بحذر واحتياط ، فوجدوا حفرتين عميقتين صُفَّت فيهما قوالب من ذلك الطوب الملون المنقوش .

ولم تمض أيام حتى انتقلت هذه القوالب إلى أيدى تجار الآثار فى إخميم والأقصر والقاهرة .

ولقد قيل إن عدد القوالب يبلغ بضعة ألوف ، ولكن تبين أن عددها الصحيح ستمائة ، تلف منها فى أيدى العلماء نصفها .

وعرف أن هذه القوالب تحوى رسائل سياسية بين فراعنة مصر من جانب ، وملوك بابل وآسيا الصغرى وحكام سوريا من جانب آخر ، ووضح فى الوقت نفسه أن هذه الرسائل أقدم مكاتبات سياسية يعرفها العالم ، وأن فيها من البيانات مايكشف عن العلاقات التى كانت بين مصر وجيرانها ، فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، أى فى حدود ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد .

كانت فى «طيبة» دار تحتفظ بالمراسلات الخارجية ، فَبُنيَت فى «أخيتاتون» دار لهذا الغرض ، ملحقة بقصر الملك ، ونقلت إليها المراسلاَت التى كانت محفوظة فى طيبة .

وتبين أنه كان لهذه الدار موظفون يتولون إدارتها ، وتنظيم الرسائل فيها ، بحيث يسهل الرجوع إلي مايريدون الرجوع إليه فيها ، وكان من هؤلاء الموظفين مترجمون يعرفون اللغة العربية وخطها المسماري ، ومترجمون آخرون يعرفون لغات أخرى .

ولما ترجم علماء اللغة البابلية القديمة جميع الرسائل التى احتواها طوب تل العمارنة تبين فى الحال أنها رسائل متتابعة ، كانت منظمة فى مستودعها ، على أساس هذا التتابع ، منها ٦ رسائل من ملك بابل ، و٩ من ملك الأزيا - شمالى سوريا - و ٤ رسائل من ملك «ميتانى» - شمالى الأزيا ، ويقع فيها لواء الإسكندرونه الأن - و ٤٦ رسالة من حاكم سورى يسمى (ريب أدى) ، ونحو ١٠٠ رسالة من حاكم مدينة أورشليم ، يسمى (أرادهيبا) ، وحاكم لمدينة فى سوريا يسمى (أزيرو) ، ومن غيرهم من الحكام فى سوريا وفلسطين .

وهذه الرسائل كلها موجهة إلى كل من أمينوفيس الثالث ، وأمينوفيس الرابع .

ويقدر العلماء المدة التى كتبت فيها هذه الرسائل بخمس عشرة سنة أو عشرين .

ومن هذا يتبين أن ملوك بابل وملوك آسيا الصغرى وحكام سوريا وفلسطين كانوا فى ذلك الوقت يكاتبون فراعنة مصر بالخط المسمارى البابلى ، لا بالخط المصرى ، وأنهم كانوا جميعا يستخدمون فى كتابتهم قوالب الطوب لا الورق الذى كان المصريون يكتبون عليه .

ومعروف أن مملكة بابل كانت قد غزت سوريا ، قبل أن تغزوها مصر بأجيال ، ولهذا انتشرت فيها العادات البابلية ، واللغة البابلية ، والخّط البابلى ، فلما غزاها المصريون - بعد طرد الهكسوس - اكتفوا بأن تخضع لهم ، وتؤدى

الجزية ، ولم يحاولوا أن يفرضوا عليها لغتهم ، ولا عاداتهم ، ولا تقاليدهم ، ولا ملابسهم ، بل تركوا لأهلها وللممالك المجاورة لهم أن يأخذوا من حضارتهم مايريدون ، ويتركوا مايريدون .

وهذه سمة من السمات المصرية التى تتصف بالسماحة واللين .

يقول چول بابيه : كان العرف جاريا (أن للمنتصر أن يذبح الأسرى ، وينهب الأموال ، بل كان له أن يتصرف فى أرواح وأموال البلاد المغزوة ، ولم يخرج على هذا العرف إلا المصريون ، لأنهم امتازوا وحدهم بمعاملة الأسرى وأهالى المدن المغزّوة معاملة فيها كثير من الرأفة والرفق) .

ويقول بابيه : (لم يعرف عن المصريين أنهم استخدموا التعذيب أو التفنن فى القسوة فى معاملة المغلوبين فى الحروب ، كما كانت تفعل الشعوب الآسيوية ، فليس فى تاريخهم شئ عن الأسرى الذين يُغْرَزُون غرزا فى الخوازيق وهم أحياء ، ولا عن سمل عيونهم ، ولا عن كسر أنوفهم ، ولا عن صلم آذانهم ، ولا عن قطع شفاههم وألسنتهم وأرجلهم وأيديهم ، كلا ، ولا عن قتل النساء والأطفال أو حرقهم ، ولا عن سلخ جلود الملوك والرؤساء وهم أحياء ، ولا عن صلبهم ، ولا عن ربطهم وهم أحياء بين ألواح من الخشب ثم شقهم بالمنشار) .

* وقد وجدت على أحد القوالب عبارة (مكان المحفوظات من القصر الملكى) .

كما وجدت فى إحدى الرسائل كلمة يطلب كاتبها من فرعون مصر أن يرجع إلى الرسائل المحفوظة فى مكاتبه ، مما يفيد أن المستودع كان داراً لمحفوظات وزارة الخارجية .

كما عثر (بترى) على بعض القوالب مكتوب عليها (معجم وضع لتعليم من يريد تعلم اللغة البابلية والخط المسمارى من المصريين) ، أو لعله مرجع الموظفين المصريين فى وزارة الخارجية ، وقد وجد على هامش أحد قوالب المعجم عبارة (بأمر ملك مصر) .

وقوالب هذا المعجم ينقسم سطحها إلى ثلاث خانات عمودية متساوية :

الأولى فيها الكلمة المصرية ، والثانية فيها الكلمة باللغة البابلية ، والثالثة فيها نطق الكلمة فى اللغة البابلية مكتوبًا باللغة المصرية .

وقد وجد كتاب طويل كتبه أمينوفيس باللغة البابلية والخط المسمارى على قوالب من الطوب يرّد به على كتاب جاءه من ملك بابل .

ومن هذه المكاتبات كتاب من ملك الأزيا يقول :

(إلى ملك مصر ، وأخى ، أقول : أنا ملك الأزيا ، أخوك ، صحتى جيدة ، وإنى أبعث بأفضل تحياتى إليك ، وإلى أقاربك ، وإلى خادماتك ، وإلى أبنائك ، وإلى زوجاتك ، وأبعث أيضًا بتهانى لك على عرباتك العديدة ، وخيولك ، كما أبعث بتمنياتى لبلادك مصر) .

لا أدرى كيف أخطأ هذا الملك فقدم الأقارب والخادمات على الأبناء والزوجات ، إلا أن يكون هذا من خطأ الترجمة .

وكتب (بورنار بورياش) ملك كاردويناش (بابل) إلى ملك مصر . . بعد الديباجة :

(لقد انحرفت صحتى منذ اليوم الذى جاء فيه رسول أخى ، ولم يشجعنى أخى فى طول المدة التى بقيت فيها صحتى منحرفة ، ولهذا استأت من أخى وقلت : ألم يسمع أخى أننى مريض ؟ لماذا لم يبعث لى رسولاً ، ولم يظهر اهتماما بى ؟) .

(وقد أجاب رسول أخى على ذلك بقوله : إن مصر ليست قريبة ، لكى يسمع أخوك بمرضك ، ويرسل إليك رسولاً يستعلم أخبارك) .

(وفى الواقع أننى استفهمت بعد ذلك من رسولى ، فقال لى : «إنها رحلة طويلة جدًا» ، فمنذ سمعت ذلك لم يبق فى نفسى استياء من أخى) .

كيف غاب عن ملك له صلات بمصر ، ورسل يذهبون ويعودون ، لايعرف أين تقع مصر من بلاده ؟ وهل كان الملك يكتب رسائله بيده ، ومن وحى اللحظة ، دون مراجعة مستشاريه ؟

ومن رسالة هذا الملك إلى أمينوفيس الرابع ملك مصر :

(حينما كان والدى «كوريجالزو» حيا أرسل إليه ملك كنعان رسولاً قال له : «هيا فلندخل مدينة كارميشات ، ولنحارب فرعون معا ، فبعث إليه أبى يقول : «لاتفكر فى الاتفاق معى ، فإن كنت تريد معاداة ملك مصر ، فابحث لك عن حليف غيرى أنا فإنى لاأسير فى هذا ، ولا أدمر بلاد ملك مصر ، لأنه حليفى» ، وهكذا رفض والدى أن يصغى إلى ملك كنعان ، حبّا فيك .

والآن ، فإن ملك آشور تابع لى ، ولست فى حاجة لأن أقول : لماذا هو يطلب صداقتك ؟ فإن كنت تحبنى فلا تعقد معه معاهدة ، واطرده بعيداً جداً) .

وكتب أحد ملوك بابل إلى أمينوفيس الثالث :

(حينما طلبت يد ابنتك أرسلت لى تقول : «لم يحدث قط أن أعطيت بنت ملك مصر إلى أجنبى» ، فلما بلغتنى هذه الكلمات أرسلت إليك أقول : «إذا أنت بعثت بها إلى وأنت آسف ، فخير عندى ألا تبعث بها» ، إنك لاتنظر إلى ين العطف الأخوى ، وأنت تعلم مع ذلك أنك حينما كاشفتنى برغبتك فى أن تعقد بينى وبينك رباط زواج ، أجبتك إلى ما تريد ، وأظهرت فى ذلك كل الطيبة التى يكنّها أخ لأخيه ، والآن ، وقد كاشفتك برغبتى فى رباط زواج بينى وبينك ، لماذا تأبى بنتك على ؟ لماذا ترفض أن تعطيها لى ؟ لو أنى كنت قد رفضت إجابتك إلى رغبتك ، لكان الرفض من جانبك الآن مفهوما ، ولكن بناتى كن رهن أمرك ، وأنا لم أرفض لك طلبًا) .

وكتب حاكم صيدا :

(أخبر مولاى الملك أن عبدته التى جعلها وديعة فى يدى ، وهى مدينة صيدا ، هادئة ، وحينما وصل إلىّ الأمر الذى أرسله مولاى الملك ، امتلأ قلبى فرحًا ، وقد رفعت رأسى ، وفاض النور على وجهى وعينى ، حينما قدم أمر مولاى الملك .

إن خادمك يبعث إليك مائة ثور ، ويبعث أيضًا رقيقات ، وهذا إخبارك بذلك ، للملك مولاى ، وشمس السماء) .

النوبـــة كنــز الآثــار الضائـــع

- ١ -

بقيت النُّوبة آلاف السنين من أهم مناطق القارة الأفريقية .

حدودها ليست محددة على خريطة ، فتاريخها سجل حافل بتحركات الجيوش .

لم يحدث أن استقلت بشئونها ، مع أن سكانها لهم جنسية مميزة ، فهم يرتبطون ارتباطًا وثيقًا عن طريق الدم والأسلوب الواحد فى الحياة ، بالرغم من كونهم معبرًا بين الشمال والجنوب ، لكنه معبر ضيق لايتسع لإقامة العابرين .

إنه وطن مقسم بين الشمال والجنوب بفاصل حجرى يعترض مجرى النيل ، ويبدو أن هذا الفاصل ارتبط بعدم قدرة الشمال على مد يديه إلى أبعد من هذا ، ومن ثم صارت النوبة السفلى ، بين الشلال وأدندان جزءًا من مصر ، وصارت النوبة العليا ، بين أدندان ودنقلة ، جزءًا من السودان .

وقد سميت النوبة بهذا الاسم ، لأن كلمة (نوب) فى المصرية القديمة تعنى الذهب ، وكانت هذه البلاد موطن استخراجه .

يقول وولتر إمرى : من النادر أن يتزوج النوبى غير نوبية ، مع أن الرجل كثير الترحال ، والمرأة لاتكاد تغادر قريتها ، إذ يقيم فى أرض النوبة كبار السن والسيدات والأطفال ، يعتنون باستثمار الأراضى الزراعية المحدودة ، على حين يشتغل سكان وادى حلفا وعنيبة وغيرها من المدن والموانئ بالتجارة والملاحة والصيد ، ومن هنا كان الرجال أكثر استقرارًا .

والمنازل النوبية شيّدت من الطين ، جدرانها بيضاء ، وأسقفها على هيئة قباب ، وأبوابها مزخرفة ، ولها طراز معمارى يفوق فى روعته مانجده فى القرية المصرية - مصر وبلاد النوبة ص ٩ / ١٥ .

قبل أن يغزو جنس الأسرات مصر (٣٤٠٠ ق . م تقريبًا) كانت النوبة قليلة السكان ، ولم يظهر الاتصال بشمال وادى النيل إلا عن طريق بعض الجبانات الموجودة جنوبى الشلال ، ثم نجد ازديادًا فى عدد السكان ، ودخول حضارة جديدة فى النوبة ، بسبب تسرب عدد كبير من سكان ماقبل الأسرات ، منسحبين تحت ضغط الأسرات نتيجة غزو المتقدمين من الفراعنة المصريين ، أو تحرك عدد كبير من شمال السودان إلى هذه المنطقة .

لكن الإخضاع الحقيقى للنوبة كان عندما بعث سنفرو ، آخر ملوك الأسرة الثالثة ، جيشًا فى حملة كلّفت البلاد سبعة آلاف أسير ، ومائتى ألف رأس من البقر .

وقد أظهرت الاكتشافات الحديثة فى (بوهن) وجود مستعمرة مصرية كبيرة ، ظلت أكثر من مائتين وخمسين سنة ، أثناء حكم الأسرتين الرابعة والخامسة ، بلا انقطاع .

وقد عثر على كمية كبيرة من الأوانى الفخارية المصرية الصنع تؤكد أن (بوهن) كانت مركزًا تجاريًا هامًا .

وفى عهد الأسرة الرابعة (٢٦٨٠ - ٢٥٦٥ [١] ق . م) اكتشف عمال المناجم المصريون مواطن الديوريت الخفيف الجميل الذى استعمل لتماثيل ملوك الدولة القديمة والوسطى ، فى منطقة تبعد ٨٠كم غربى (توشكا) .

وكان للمصريين طوال عصر (مرن رع) نشاط واسع فى النوبة ، تحت إشراف موظفيْن بارعين ، هما (أونى) و (حارخوف) ، وكان (أونى) نبيلاً عظيمًا ، له خبرة بالشئون النوبية ، تحت حكم (بيبى) الأول ، الملك الذى سبق (مرن رع) ، عندما بعث فى مهمة ، ليجمع الجند لجيوش الفرعون الذين قاموا بحروبه ، ضد قبائل الصحراء الشرقية .

أما النبيل (حارخوف) فيمكن اعتباره أول رحالة مسجل فى التاريخ ، وقد

(١) الأرقام فى (تاريخ مصر) لبريستد مختلفة .

بعثه (مرن رع) على رأس حملة لفتح طرق المواصلات ، مع (أيام) جنوبي الجندل الثاني ، أو في الجنوب عند دارفور ، ، وقد استغرقت الحملة سبعة أشهر ، متخذة طريق (أليفنتين) ، أو الطريق الصحراوي الموازي للنهر ، ولايزال حتى اليوم طريقًا لقوافل الجمال المتجهة من السودان إلى أسواق مصر .

وبعد استراحة دامت بضع سنين ، قام (حارخوف) برحلة أخرى في مجاهل الجنوب ، وسلك مايسمى اليوم (درب الأربعين) في الصحراء الغربية ، وقد علم (حارخوف) أن رئيس قبيلة (أيام) مّر قبله في طريقه لحرب (التمحو) - السكان الليبيين في الواحة الخارجة - فلحق به (حارخوف) ، وسعى في الصلح بينهما .

وبعد استيلاء (سنوسرت) على الجندل الثاني ، أقام سلسلة من الحصون ، كانت أعظم الموانع الحربية التي صنعتها أيد بشرية من قبل .

ومنذ أواخر الأسرة الثانية عشرة ، كان تسرب القبائل السامية الآتية من فلسطين يقلق المصريين ، ومع ضعف الحكم المركزي في الأسرة الثالثة عشرة اتخذ هذا التسرب شكل الغزو ، وقد عرف قواد هذه القبائل عند المصريين بـ (حكاخسوت) أي (حكام البلاد الأجنبية) ، التي اشتقت منها كلمة (هكسوس) ، وقد امتد نفوذ الهكسوس شيئًا فشيئًا حتى (قوص) .

يقول (جوزيفوس) عن رواية (مانيتون) المؤرخ المصري :

(لا أعرف لماذا ابتلانا اللّه بعاصفة من عنده ، إذ دخل علينا من الشرق - على حين غرة - غزاة من أصل غير معروف ، واثقين من الانتصار على بلادنا ، فاستولوا بالقوة عليها ، دون أن يوجهوا ضربة واحدة ، وبعد انتصارهم على حكام البلاد أحرقوا مدننا من غير رحمة ، وسوّوا معابد آلهتنا بالأرض ، وعاملوا أهلها بعداء صارم ، فقتلوا وأسروا وسبوا النساء والأطفال ، وأخيراً وضعوا أحدهم على العرش آنذاك في منف ، وكانوا يجبون مصر العليا ومصر السفلى ، تاركين دائمًا قوات عسكرية في أكثر الأماكن ملاءمة) .

وقد أقيم حلف بين ملوك الهكسوس ورؤساء قبائل كوش ، واضعين أمراء

طيبة وأتباعهم بين نارين ، فاضطروهم إلى أن يظلوا فى حالة دفاع عدة سنين ، حتى جاءت الأسرة السابعة عشرة (١٦٠٠ - ١٥٧٠ ق.م) ، فأخذت الروح المصرية تقوى بالتدريج ، وقامت حروب التحرير تحت حكم (كامس) أحد ملوك هذه الأسرة .

واعتلى (أحمس الأول) ، مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ، العرش سنة ١٥٧٠ ق.م ، وأمضى الجزء الأكبر من حكمه فى حروب لطرد الهكسوس من مصر ، حتى وصلوا إلى الجنوب الغربى من فلسطين ، وفى العام الثانى والعشرين من حكمه أعاد غزو النوبة ، بعد أن أصبح متمرسًا ، صاحب سجّل طويل من الأعمال المجيدة - مصر وبلاد النوبة ص١٧٤ / ١٧٩ .

- ٣ -

وخلال ألفى عام أو أكثر كان الوجود المصرى فى النوبة يرسى قواعده ، عن طريق الأبنية والحصون والمعابد والجبانات ، ويبدو أن طبيعة النوبة - تربة ومناخاً - كانت تشجع على مزيد من مزارع الآثار ، حتى تكاد تتفوق على مصر كلها ، إذا استثنينا معابد الأقصر وأهرامات الجيزة .

ولعل معبد (بوسمبل) يعطى صورة لاهتمام المصريين بالتاريخ ، نقوشًا وتماثيل وأبنية شامخه منحوته فى بطون حجرية شديدة الصلابة .

إنه أكبر معبد منحوت فى الصخر ، فى العالم ، يعد آية فى العمارة القديمة ، فقد نحت فى قطعة صخرية على الضفة الغربية للنيل ، فى موضع غاية فى الجمال ، فى مواجهة (فارك) ، القرية التي تقع على الضفة الشرقية ، فى منطقة واسعة من الأراضى الزراعية .

وواجهته الكبرى تعد مظهر قوة وعظمة مصر القديمة .

وأصل فكرة تشييد معبد فى (بو سمبل) - كما يقول وولتر امرى - كانت لسيتى الأول ، وقد نُحت جزء كبير من الداخل قبل أن يعتلى رمسيس العرش ، سنة ١٣٠١ ق . م ، وعندما تكفّل به رمسيس كان العمل متقدمًا ، وجرت العادة فى العمائر المنحوتة فى الصخر تنتهى من الواجهة قبل أن ينحت الداخل ، وعلى ذلك يحتمل أن تكون التماثيل الضخمة الأربعة التى هى أهم ميزة فى البناء كانت لسلف رمسيس .

وحسب نص مدون أن أسرى الحرب قاموا ببناء المعبد ، وأنهوا عملهم قبل سنة ١٢٥٩ ق . م . . لكن هذا القول يعنى أن الأسرى كانوا من الخبراء والفنيّين ، مما قد يضفى على شعب آخر القدرة على منافسة مصر فى هذا المجال ، والتاريخ خلا من الإشارة إلى هذا (الشعب) ، وربما كان المقصود بالاستفادة من الأسرى فى الأعمال غير الفنية ، كنقل الأتربة والحفر ، ذلك لأن مصر قد اهتمت بتكوين (كوادر) فنية لهذه الأعمال من قبل بناء الأهرامات ، وكان ثمة مدينة للعمال ، وإدارة لتأهليهم ، من قبل أن يولد رمسيس بأكثر من ألف عام .

وقد كرس المعبد لعبادة (رع حور ماخيس) ، قبل معابد عديدة فى النوبة ، وهذا الإله قد اندمج مع الشمس ، ويصور عادة على هيئة بشرية ورأس صقر مرتديا قرص الشمس .

وكانت الشمس تدخل قدس الأقداس ، فتضئ الداخل فى أوقات معينة من السنة فى الفجر .

والتماثيل الأربعة الضخمة التى نُحتت فى صخر التل للملك فى واجهة المعبد هى أهم الملامح ، وهذه التماثيل الجَالسة ، اثنان على كل جانب للمدخل ، على ارتفاع أكثر من ٦٥ قدما ، وتمثل الملك (رمسيس) [١] مرتديًا التاج المزدوج لمصر ، وعلى جانبى كل تمثال وبين الأرجل نجد تماثيل للملكة نفرتارى وبعض الأطفال الملكيين ، ومع أنهم مثلواً بحجم كبير فإن شكلهم يبدو صغيراً بالنسبة للتماثيل الضخمة .

وفوق المدخل نجد تمثالاً للإله (رع حورماخيس) ، له رأس الصقر ، الذى خصص له المعبد .

ويوصل المدخل إلى بهو كبير ، به صفان من أربعة أعمدة تتكئ عليها تماثيل ضخمة للملك ، واقفًا مرتدياً التاج المزدوج ، وحاملاً العصا والمذبة ، وقد كسيت الأعمدة وجدران البهو الذى يصل ارتفاعه إلى ٣٠ قدما ، بمناظر ونصوص دينية وأعمال الملك الحربية فى نضاله ضد الحيثيين فى سوريا والكوشيين فى السودان ، أما السقف فمزين بمناظر تقليدية ، وهى الخرطوش والعقاب ذو الجناحين المبسوطين .

ونجد فى الجدارين الشمالى والغربى مداخل تؤدى إلى مجموعة من الحجرات ، كانت تستعمل غالبا كمخازن للكهنة ، لأن مناظر الجدران كلها دينية .

(١) المضىّ فى الحديث عن كون التماثيل لرمسيس وزوجه وولده يخالف القول بأن المعبد انتهى العمل فى واجهته قبل رمسيس ، إلا إذا كانت الوجوه لاتمثل أشخاصًا بأعيانهم ، لكن هل اتفق لسيتى الأول مثل نفرتارى وأولاد رمسيس؟

أما الباب الأوسط فى الجدار الغربى فيوصل إلى بهو صغير ، يحمل سقفه أربعة أعمدة مربعة ، والمناظر كلها فى هذا البهو ذات طابع دينى ، ونصل بعد ذلك إلى غرفة صغيرة توصل إلى قدس الأقداس الذى يحوى ثلاثة أبواب فى الجدار الغربى ، اثنان على جانبى الجدار توصلان إلى حجرات غير منقوشة ، وأما الثالث الذى يستند إلى محور المعبد المستقيم فيوصل إلى قدس الأقداس ، وفى الجدار الغربى لقدس الأقداس نجد أربعة تماثيل جالسة ، نحتت فى الصخر ، وهى تماثيل معبودات المعبد : بتاح ، وآمون ، ورمسيس نفسه ، ورع حورماخيس ، وفى وسط الحجرة نجد أمامهم مائدة قرابين غير منقوشة ، وكانت الضحايا والقرابين تقدم عليها عندما كان نور الشمس المشرقة يدخل فى الفجر ، ولقد هشم المسيحيون - غالبا - وجوه تماثيل الآلهة الأربعة - مصر وبلاد النوبة ص ٢٠٤ / ٢٠٨ .

وعلى مسافة قريبة ، شمالى المعبد الكبير ، نحت رمسيس معبدا صخريا صغيرا لملكته نفرتارى [١] ، خصصته لعبادة الإلهة (حتحور) ، ومع أن عظمة المعبد الكبير قد حجبت هذا المعبد ، فإنه يجب وصف مبنى الملكة ، كأحد الأعمال ذات الجمال الرائع فى ذلك العصر ، وكل عصر .

ويبدو أن النحت والمناظر فى المعبدين ، من عمل فنان واحد [٢] .

ولقد شيد رمسيس الثانى معابد مهمة أخرى فى بيت الوالى ، وجرف حسين، والسبوع ، والدر ، وكلها نحتت جزئيا فى الصخر - المصدر السابق ص٢٠٨ / ٢٠٩ .

لقد أسرف رمسيس فى البناء والنحت إسرافا كان من نتائجه أن نصف مابقى إلى اليوم من عمائر الفراعنة يُعْزَى إلى أيام حكمه . . فهو الذى أتم بناء البهو الرئيسى فى الكرنك ، وهو الذى أضاف أبنية جديدة إلى معبد الأقصر . . وهو الذى شاد ضريحه المعروف بالرمسيوم فى غرب النهرعند الأقصر ، كما أنه

---

(١) إذا كانت صورة نفرتارى فى هذا المعبد هى صورتها فى معبد (بو سمبل) فقد بطل القول بأن رمسيس أتمّ عمل سيتى .

(٢) وهذا القول يناقض أسبقية سيتى ، ويناقض القول بالاستعانة بالأسرى إلا فى الأعمال الثانوية .

هو الذى نثر تماثيله المختلفة الأحجام والمواد فى طول البلاد وعرضها .

روى أن علماء نابليون وقفوا مدهوشين أمام ضخامة حجم تمثال رمسيس عند الشاطئ الغربى من الأقصر ، فقاسوا كل جارحة فيه ، وقدروا طول أذنه بنصف قدم ، وعرض قدمه بخمسة أقدام ، وقدروا وزنه بألف طن .

وحين رآه جوته قال : (هذا هو الرجل) - أبو سمبل ص ١٠٩ / ١١١ .

- ٤ -

ومع الاحتياط الشديد فى بناء المعابد والمقابر ، وتأمين سلامتها ، واتخاذ كافة الوسائل لحمايتها - فإن أيدى اللصوص كانت قريبة من نفائسها ، منذ الانتهاء من العمل فيها .

إن أولئك الذين عـملوا فى هذه المعـابد والمقـابر كـانوا الأعلم بأسـرارها وبمداخلها ، وكما يقول المثل اليوم (حاميها حراميها) ، وكما هو حادث اليوم أن الذين يسرقون (المخازن) هم حراسها ، الذين لايلبثون أن يشعلوا النار فيها لتَضيع معالم جرائمهم . . لهذا نجد سرقة الآثار ، منذ كانت هذه الآثار ، ومادَخلت أقبية التضليل فى بناء المقابر ، وما كانت المصاطب الحجرية ، وما كان البعد بالآثار فى بلاد النوبة أو فى الصحراء - إلا اعترافا بخطر هؤلاء اللصوص .

ومنذ عهد الدولة القديمة ، كان من عادة المصريين أن ينحتوا أو ينقشوا فى أمكنة مختارة ، وبحروف كبيرة الحجم ، إنذارات تخطر من يسئ التصرف فى المعبد ، كأن يتلف أو يسرق التماثيل أو الرسوم أو النصوص المكتوبة ، أو أى شئ من الأثاث الجنازى - بأن عمله السيئ لن يظل دون عقاب :

(كل من قام بأى عمل ضد ما هو موجود بهذا المكان ، فليهاجمه التمساح فى الماء ، والثعبان فى الأرض ، ولن تعمل له أبدًا احتفالات جنارية ، والإله هو الذى سيتولى إدانته) .

وكان ثمة قسم يؤدى فى المعابد والمقابر ، كذلك الذى أقسمه (باو متاويت) :

(بحياة آمون ، وحياة الفرعون ، إذا ثبت أننى تعاونت مع أى من اللصوص تجـدع أنفى ، وتصلم أذناى ، وأُوضع على الخـازوق) - الموتى وعـالمهم ص١٠٨ .

ويذكر أن (نى عنخ بيبى) ، من رجال (بيبى الأول) ، رأى الوزير (نى كا وو حور) يغتصب مقبرة الوزير (أخت حتب) ، ويمحو اسمه ، ويضع مكانه اسم المغتصب - فكتب على مقبرته مهددا :

(أما من جهة أى فرد يريد أن يلحق أذى بهذا القبر الذى فى المقبرة ، وهو

الذى تابوته مركّب فيه الأب فوق أمه - أى الغطاء فوق التابوت - فإنى سأتقاضى معه فى المجلس المبجل الفاخر للإله العظيم رب الغرب ، وسأقبض على رقبته كما يقبض الإنسان على عصفور ، وسيسرى خوفى فيه أمام كل من على الأرض، وكل الأحياء سيرتعدون من الأرواح الممتازة ، وإنى روح ممتازة ، ليس السحر أمامها بالشئ المستعصى ، أما كونى حاذقا فإنى مرتّل حاذق ، ورجل عالم بأمور السحر) - مصر القديمة جـ ١ ص٣٧٥ / ٣٧٦ .

* وأهم شخصية فى تحقيقات سرقة المقابر كانت شخصية كبير كهنة آمون (أمنحوتب) الذى كان له النفوذ الأكبر فى طيبة .

وكان أمنحوتب هذا يجمع إلى عمله كبير الكهان فى جميع المعابد المصرية أعمالاً أخرى هامة ، مثل إشرافه على خزانة فرعون ، ووظيفة حامل أختام الملك، وحصل لنفسه من رمسيس التاسع على حق جباية أموال آمون وضرائبه ، بواسطة كتبة المعابد ، وليس عن طريق موظفى الدولة ، وكانت هذه الإيرادات تدخل رأسا إلى خزانة المعابد .

وكانت خيرات مناجم الذهب التى (كانت ملكا لآمون) تأتى إلى معابده ، وكان كبار كهنته يحسنون اختيار الحكام ، ويمدونهم بكل مايكفل لهم السلطة فى أقاليمهم .

ومنذ تعيين (حريحور) كبيرا للكهنة جمع إلى سلطته مديرا للخزانة ، وقائدا للجيش ، جميع عناصر القوة فى البلاد ، وكان يضع اسمه إلى جوار اسم مولاه.

وكانت سيطرة الكهنة على خيرات البلاد من أهم العوامل على بعث أطماع الآخرين ، وبخاصة القريبين منهم ، فى الحصول على ماتصل إليه أيديهم .

ولهذا اشترك فى السرقة بنّاء يدعى (أمن بانو فر) ، وكان من أتباع الكاهن الكبير أمنحوتب ، مع سبعة عمال آخرين يعملون فى البناء والنجارة ، وانضم إليهم زارع ونوتى يعبر بهم النهر ذهابا وإيابا ، دون أن يلفت الأنظار .

كان اللصوص يتكونون فى بادئ الأمر من عمال المحاجر والبنائين ،

وسرعان ماانضم إليهم صغار الموظفين المكلفين بخدمة المعابد ، وعمال الجبانة ، وبعض رجال الدين .

وثمة عصابة من رجال الدين والكهنة وبعض الكتبة كانت تقوم بالسطو على بيت الذهب الخاص بالملك (أوزير مارع ستب إن رع) .

وفى أواخر عهد الرعامسة شنت حروب دينية ، بين أنصار «آمون» وأنصار «ست» ، تبعها نهب المقابر الكبرى - الحياة اليومية فى عهد الرعامسة ص٣٥٤ / ٣٥٧ .

* واستمرت السرقات باستمرار نهب الثروات ، ودخل المغامرون الأوربيون طرفا فى تسويق المسروقات ، حتى إذا وصلنا إلى العقدين الثانى والثالث من القرن التاسع عشر دخلت الحكومات والمؤسسات الكبرى طرفا فى عملية (النهب) ، حتى حصل المتحف البريطانى ومتاحف باريس وتورين وفلورنسا وبولونيا وليدن على مجاميع ضخمة من الآثار المصرية ، واشترك قناصل فرنسا وانجلترا والسويد فى الإشراف على حفائر لتوسيع عملية النهب .

وتشكلت مجموعات بحث ودراسة للآثار المصرية فى أوربا ، بالتنسيق مع مجموعات تعمل داخل مصر . . وفى غياب وعى الحكومة المصرية بما يجرى فى مناطق الآثار ، عوملت مناطق البحث والتنقيب معاملة ملكيات الباحثين ، ينفقون فى سخاء ، ويتنافسون فى دهاء ، وينقلون عبر النيل والمتوسط آثارا ضخمة .

نقلت (المسلات) إلى عواصم المدن الأوربية وأمريكا بطريقة مثيرة ، تدمغ الحكام المصريين قبل المغامرين الأوربيين ، وحسبك أن فى روما وحدها تسع مسلات ، ارتفاع كل منها يزيد على ٢٩ قدما .

ونقلت مبانى مقابر كاملة إلى لندن ، وباريس ، وبرلين ، وبروكسل وغيرها ، كان بعضها يباع بعشرة جنيهات مصرية ، وتحتوى على روائع الفن المصرى - مصر القديمة جـ ١ ص ٣٤٥ .

وفى النصف الثانى من القرن العشرين أهدى (الثوار بنو الثوار) معابد كاملة إلى بعض رؤساء الحكومات الأجنبية !!

* وعقب انتصار القوات البريطانية التركية المشتركة على الجيش الفرنسى فى مصر ، صادر المنتصرون القطع الأثرية التى جمعها العلماء الفرنسيون ، وأرسلت إلى لندن ، ومنها حجر رشيد المشهور ، وتزين هذه القطع أروقة المتحف البريطانى .

وحدث أن زاد الاهتمام الأوربى بالآثار المصرية ، وصار لها سوق رائجة ، فأخذ القنصل الفرنسى بمصر دور فيتى (١٧٧٦ - ١٨٥٢) - وهو إيطالى المولد - فى الحفر سنة ١٨١١ فى منطقة الأقصر ، لتكوين مجموعة أثرية ، يقوم بعرضها على المتاحف الأوربية ، ويحقق ثروة طائلة .

وقد بلغ من نفوذه لدى محمد على أن الحكومة الفرنسية أعادته إلى وظيفته سنة ١٨٢١ ، بعد أن فصلته سنة ١٨١٤ لكونه من أنصار نابليون ، وبالرغم من فصله بقى فى مصر يواصل البحث عن الآثار ، مستخدما وكلاء يتشممون مصادر الحصو ل عليها ، ومسارب تهريبها وبيعها .

وفى سنة ١٨١٥ زار الأقصر كل من سفن ليدمان (١٧٨٤ - ١٨٤٥) - وهو سويدى ملحق بسفارة بلاده فى إسطنبول - وأوتو فريدرش فون ريشتر (١٧٩٢ - ١٨١٦) - وهو نبيل من البلطيق كان يقوم بوظيفة السكرتير لليدمان - وكانا فى طريقهما إلى النوبة ، وقد عمل الرجلان على تكوين مجموعات من الآثار .

وفى سنة ١٨١٥ مّر بالأقصر أيضا الرحالة البريطانى وليام بانكس (١٧٨٧ - ١٨٥٥) ، كما زارها سنة ١٨١٨ ، وحصل على مجموعة من لوحات دير المدينة .

وفى ربيع ١٨١٥ تم تعيين هنرى صولت (١٧٨٠ - ١٨٢٧) قنصلا لبريطانيا فى مصر ، ووصل فى مارس ١٨١٦ ، وقد كتب إلى راعيه جورج أنسليه يقول : (اتخذت كل وسيلة ممكنة لجمع الآثار ، ويسعدنى القول بأننى قد أصبت نجاحا عظيما ، حتى إننى سوف أرسل لك فى الربيع شحنة من هذه الأشياء التي أعتقد أنك لم تر لهامثيلا من قبل) .

وحين عودة إيرل بلمور الثانى (١٧٤٤ - ١٨٤١) إلى الأقصر ، فى يناير ١٨١٨ - من رحلته إلى النوبة هو وأسرته - عرضت عليه مجموعة من الآثار

اشـتـملت علـى أحـجـار غطتـهـا رسـوم الآلهـة والقـرابين والكهنة والحـروف الهيروغليفية ، وتم جمع عدد كبير من لوحات دير المدينة كان العمال الملكيون قد قاموا بصنعها لاستخدامهم الخاص .

وقد التقى بلمور ورفاقه أثناء إقامتهم بالأقصر بالرحالة الفرنسى فردريك كليو (١٧٨٧ - ١٨٦٩) ، وكان يقوم بإدارة حفائره الخاصة ، بالرغم من أنه كانت تعوزه الدقة فيما يتعلق بالمواقع .

أما القنصل السويدى فى مصر جيوفانى أنستاسى (١٧٨٠ - ١٨٥٧) فقد جمع مجموعة هائلة بمعاونة إيطالى يدعى بتشنى كان ينقب فى منطقة طيبه .

أما جان فرانسوا شامبليون (١٧٩٠ - ١٨٣٢) الذى كشف غموض الهيروغليفية ، فقد قام بزيارة مصر فى عامى (١٨٢٨ - ١٨٢٩) ونسخ بنفسه عددا من مقابر دير المدينة ، واشترك مع روسالينى فى تسجيلات هامة للنصوص وعمارة الأبنية .

وكان المهندس الفرنسى هربرت قد زار النوبة سنة ١٨١٩ ، ووضع رسوما أفقية لعدد من المعابد استعملها شامبليون فى تصحيح تفاصيل الصور التي وردت فى كتاب الحملة الفرنسية (وصف مصر) .

ثم قام كارل لبسيوس - بين سنتى ١٨٤٢ / ١٨٤٥ - بقيادة البعثة البروسية فى مصر والنوبة ، وبمساعدة مجموعة مؤهلة من ناقلى النقوش ، جمع مادة كبيرة ، نشرها سنة ١٨٥٩ فى الأجزاء الاثنى عشر من كتابه (الآثار) الذى لايزال إلى يومنا هذا من أهم المراجع فى مكتبة الآثار المصرية . . وقد خصص جزءا كبيرا من هذا العمل الضخم لمعالم النوبة .

وقد وجد لبسيوس الوقت لدراسة اللهجات النوبية ، ونشر نتائج أبحاثه سنة ١٨٨٠ .

وقد أقام جون جاردنر ويلكنش (١٧٩٧ - ١٨٧٥) فى مصر اثنى عشر عاما لتسجيل الآثار ، وكذلك فعل روبرت هاى (١٧٩٩ - ١٨٦٣) ، مع فريق من الفنانين والرسامين .

وفى سنة ١٨٣١ أرسلت الحكومة الفرنسية بعثة بحرية إلى مصر ، لكى تنقل مسلة من الأقصر ، كان محمد على باشا أهداها إلى فرنسا ، وأثناء انتظار البعثة فيضان النيل حتى يتسنى نقل المسلة ، قرر بحارتها استكشاف المنطقة بحثا عن الآثار ، وفى فبراير ١٨٣٢ تمكنوا من رفع تابوت ضخم من حجر الشست ، من حفرة عميقة ، وقد نقلت المسلة والتابوت إلى باريس ، حيث أقيمت المسلة فى ميدان الكونكورد ، بينما بيع التابوت لدوق هاملتون الذى كان فى زيارة لباريس ، وبعد وفاته حنّط جثمانه ، ودفن فى هذا التابوت .

وفى سنة ١٨٦٩ زار مصر أمير ويلز الذى صار الملك إدوارد السابع ، وبصحبته زوجته وحاشيته . . كانوا فى رحلة إلى الشرق الأوسط ، وامتدت إلى الشلال الثانى ، وحين عاد الأمير إلى انجلترا كان فى معيته عشرون تابوتا ، قام بتوزيعها على مختلف الأصدقاء والمتاحف فى أرجاء البلاد .

وفى سنة ١٨٥٨ تم إنشاء مصلحة الآثار المصرية تحت قيادة أوجست ماربيت (١٨٢١ - ١٨٨١) من أجل حماية الآثار ، وقد قام بحفائر على نمط كبير ، وكشف عن معابد وجبانات ، وكان من أهم مراكز أبحاثه منطقة سقارة ، حيث كان أول مكتشف لمقابر العجل أبيس المعروفة بالسرابيوم ، ولكثير من مقابر الدولة القديمة هناك .

وعقب وفاة ماربيت تولى رئاسة المصلحة جاستون ماسبيرو (١٨٤٦ - ١٩١٦) ، وكان أكثر سخاء فى منح تصاريح الحفر لكل من الحفارين الأجانب والوطنيين ، وقابل المكتشفات بتعويضات مجزية . . وقد جمع بالآثار كلها إلى القاهرة ، ثم تمّ توزيعها قبل إعداد تسجيل واف لها .

وفى سنة ١٩٠٥ بدأت الحفائر على نطاق واسع فى وادى دير المدينة ، تحت إشراف أرنستو كاباريللى (١٨٥٦ - ١٩٢٨) ، أمين المتحف المصرى فى تورين ، الذى نزح من الأثار المصرية الكثير - صناع الخلود ص ١٤٦ - ١٦٤ .

وفى سنة ١٩٠٧ زار المنطقة العالم والمؤرخ الأمريكى بريستيد ، وقام بجولة طويلة دخل خلالها السودان .

وفيما بين ١٩١٠ و ١٩١٢ قامت بعثة أكسفورد بحفائر طويلة على الحدود

بين مصر والسودان ، كشفت عن بقايا من كل العصور ، منذ ماقبل الأسرات .

وفيما بين ١٩١٢ - ١٩١٤ عثر الألمانى شتايندوف - فى منطقة عنيبة على مقابر كثيرة مهمة .

وفى سنة ١٩١٦ نشر سومرز كلارك دراسة عن القلاع المصرية فى النوبة .

* وبعد فحص عام للآثار الموجودة فى النوبة - فى المسح الأثرى الأول - نظم السّير جاستون ماسبيرو مجموعة من الأثريين ، مكونة من الفرنسى هنرى جوتييه ، والألمانى جونتر رودر ، والإنجليزى إيلوارد بلا كمان ، لتخطيط ونقل النقوش التى على المعابد .

ولما كان أرثور ويجال كبير مفتشى الآثار فى الوجه القبلى جعل المسح الأثرى للنوبة فى أيدى ليونز المدير العام لمصلحة المساحة ، الذى عين بدوره الدكتور جورج ريزنر على رأس بعثة النوبة ، وقد استعان زيزنر بثلاثة مسّاحين ، هم ، سيسل فرث ، وإيلوارد بلاكمان ، وأوربك بيتس ، وقد احتل هؤلاء الرجال - فيما بعد - مكانة مرموقة فى علم الآثار المصرية .

وكان بكلية الطب فى القاهرة استرالى اسمه جرافتن إليوت سميث ، يعمل أستاذا لعلم التشريح ، وكان عالما فى المخ وفى تطور الإنسان ، كما كان عضوا فى الجمعية الملكية البريطانية ، وقد وافق على العمل مع بعثة النوبة ، وعاونه فى فحص المومياوات الدكتور وود جونس ، والدكتور درى الذى قام بفحص مومياء توت عَنخ آمون سنة ١٩٢٣ .

ويلاحظ أنه قبل العثور على مقبرة توت عَنخ آمون كان قانون الآثار فى مصر يقضى بأن المنقب يجب أن يعطى نصف حصة مااكتشفه ، وكان هذا شرطا حيويا فى تنظيم بعثات أجنبية ، وكان هذا القانون - دون شك - من عمل هذه (العصابة) التى تولت أمر (مصلحة الآثار المصرية) .

وقد تنبه تجار الآثار فى الأقصر إلى وجود مصادر مواد قيمة لأسواقهم التى كانت مشغولة حينئذ بسد مطالب المتاحف المتكاثرة ، وطلبات جامعى التحف والسائحين .

وكان أن أرسلت مجموعات من المنقبين (غير الشرعيين) إلى الجنوب ، حيث استطاعوا تجميع ما أرادوا ، دون خوف من تدخل مفتشى الآثار ، الذين كانوا يعملون بدورهم فى نفس المجال ، هذا إلى أن مجالات التنقيب كانت فى مناطق شاسعة غير آهلة بالسكان ، لاتسهل مراقبتها ، وإن كانت المراقبة يمكن أن تتم عند (التصدير) ، لكن من يراقب من ؟!

وفى سنة ١٩٢٩ جعلت (الجمعية المصرية للتنقيب) تعمل فى (المسح الأثرى الثانى) ، تحت قيادة وولتر إمرى الذى عينته مصلحة الآثار فى منصب مدير المسح الآثرى فى النوبة ، ولم يكن يعرف شيئا عن هذا الجزء من وادى النيل - بإعترافه - إلا من خلال الكتب فحسب ، وكانت هذه هى حالة بقية أعضاء البعثة المرافقين ، ومعظم المائة والخمسين من العمال المصرين المرافقين .

وعين كروان الذى صار مدير الجمعية الجغرافية الملكية مساعدا لإمرى ، كما عين لأول مرة مصريون فى البعثة ، وهم نجيب مكرم الله ، وعبد الباقى ، وعبد المنعم ، الحاصلين على درجة الدبلوم من جامعة القاهرة ، ثم خلف مكرم الله زكى يوسف سعد ، وانضم الدكتور أحمد البطراوى للتشريح ، ومحمد حسنى مهندس مساحة ، ومحمد حسنين كاتب أعمال .

وفى أكتوبر ١٩٢٩ اتجهت البعثة إلى وادى السبوع لبداية المسح الثانى ، من حيث انتهى فرث من المسح الأول سنة ١٩١١ ، وقد اعتمدت الحكومة المصرية ثلاثة وثلاثين ألف جنيه للصرف على أعمال تستغرق ثلاث سنوات .

ثم اتخذت البعثة من (عنيبة) مركزا للبحث ، لأن بها بقايا حِصْن المدينة الكبير .

وفى هذه الأنحاء كان دونبار أحد موظفى الحكومة السودانية يستغل أعماله وواجبه فى النقل باليد ، وتصوير النصوص التى لاحصر لها ، والمناظر التى وجدها على الصخور على شاطئ النيل ، وسجل كشوفه التى لاتقدر بثمن فى أحد سجلات مصلحة الآثار المصرية .

* انتهى بناء خزان أسوان سنة ١٩٠٢ ، وقد بدأ تشييده عند الجندل الأول

سنة ١٨١٩ ، وامتد البناء أكثر من ميل طولا ، يعلو مائة قدم ، وتمتد بحيرته مائة وأربعين ميلا .

وبين سنتى ١٩٠٧ و ١٩١٢ زيد فى ارتفاعه ستة عشر قدما ، وامتدت البحيرة مائة وخمسة وثمانين ميلا .

وبين سنتى ١٩٢٩ و ١٩٣٤ زيد فى ارتفاعه ثلاثين قدما ، وامتدت البحيرة مائتين وخمسة وعشرين ميلا حتى وادى حلفا وكانت المنطقة خلف السد غنية بآثارها وبأراضيها الخصبة . . كانت (بلانة) تحيط بها مناطق واسعة من الأراضى الخصبة المزروعة ، وفى بلانة وقسطل كانت مقابر عدد من ملوك النوبة ، وفى بلانة تم تحويل مناطق كبيرة مجدبة - عن طريق الرى الحديث - إلى مناطق زراعية خصبة . . وفى (الدر) كان معبد رمسيس الثانى المنحوت فى الصخر ، والذى يختفى خلف أشجار النخيل والجُمّيز . . وعند (توماس) كانت جزيرة ذات أرض خصبة ، كما كان بالشاطئ الغربى غابة كثيفة من النخيل ، ذات ثمر له شهرة كبيرة ، وكانت (عنيبة) ذات سهول خصبة ، كما كانت (بو سمبل) ذات رقعة زراعية واسعة على الشاطئين ، وعلى الضفة الغربية - أمام معبدى رمسيس الثانى - كانت رقعة واسعة من الأرض الزراعية ، ومن أخصب الأراضى مايعرف بمنطقة وادى حلفا على الضفة الشرقية ، من دبيرة حتى الشلال الثانى ، وهى مقر عدد كبير من السكان ، غير التجار والموظفين والمهندسين الذين يعملون فى ورش السكك الحديدية .

* وفى ٨ مارس ١٩٦٠ ، قال المدير العام لليونسكو ، السيد فتورينو فيرونيز ، فى افتتاح (الحملة العالمية لإنقاذ آثار النوبة) بباريس : (لقد بدأ العمل فى سد أسوان العظيم ، وفى مدى خمس سنوات ستصبح منطقة وادى النيل الوسطى بحيرة كبيرة ، وسوف يترتب على ذلك أن تصبح آثار رائعة ، تعدّ من بين أعظم ما على الأرض ، معرضة لخطر الزوال تحت المياه ، إن السد سيجلب خصوبة لأراضى صحراوية واسعة ، ولكن خلق مجالات جديدة لعمل الجرارات ، وتخزين قوة كهربائية لمصانع المستقبل تهدد بدفع ثمن رهيب) .

(ومقابل مساعدة العالم ستفتح حكومتا القاهرة والخرطوم كل بلادها

للحفائر الأثرية ، وستعطى نصف القطع الفنية التى سيكشف عنها علميا أو بالصدفة للمتاحف الأجنبية ، وستوافق أيضا على نقل بعض الآثار النوبية ، وهكذا سيفتح عهد جديد من حقل الآثار الأجنبية) .

كانت مدة السنوات الخمس لإتمام سد ارتفاعه مائتين وخمسة وعشرين قدما، وطوله أكثر من ثلاثة أميال ، يحقق خزانا يصل طوله إلى ثلاثمائة ميل - سباقا خطيرا بين أجهزة مدربة على النهب والاستلاب ، أعطاها اليونسكو كل الحقوق (الشرعية) باسم حكومة تستعد لصناعة الأناشيد التى ستغرق بها كل شئ، كل شئ .

وكان لبعثة جامعة القاهرة - خلال (هوجة) التخريب التى لحقت بشعب له عراقة وأصالة وأمجاد - حفائرها الواسعة فى (عنيبة) ، حيث فحصت جبانات من كل عصور التاريخ النوبى ، واقتنت معلومات جديدة ذات قيمة تاريخية ثمينة .

وقد سبقت البعثة المصرية للتنقيب نداء اليونسكو ، فكانت حفائرها فى (بوهن) قبل أن تبدأ الحملة العالمية لإنقاذ آثار النوبة بثلاثة أعوام . . ويلاحظ أن (إمرى) كان رئيس البعثة المصرية !!

وظهر أن أوصافا ومعالم دفاعية كانت تعد من ابتكار أوربا فى القرون الوسطى ، عرفها المصريون فى الدولة الوسطى ، منذ أربعة آلاف سنة .

وقد كشفت الحفائر فى (بوهن) :

١- أن المدينة كانت مستعمرة مصرية بحتة ، فمع وجود علامات لحضارة المجموعة الثانية النوبية نجد أن ٩٥٪ من بقايا الفخار مصرية .

٢- أن النحاس كان أحد صناعات هذه المدينة .

٣- كانت هناك طريقة مراسلة منظمة مع مصر خلال الأسرتين الرابعة والخامسة ، بدليل كمية البردى وأختام الأوانى التى عثر عليها .

٤- حملت الأختام وقطع الفخار أسماء عدد من ملوك مصر .

وفى (أبريم) وجدت مقاصير منحوتة فى الصخر ، نقرها تحوتمس الثالث ، وأمنحوتب الثانى ، ورمسيس الثانى ، وسجلت كل نقوش هذه المقاصير فى رسوم بالحجم الطبيعى ، بطريقة (الشّفّ) ، وتم فحص أكثر من ثلاثمائة مقبرة ، وأكثر من نصف ماحوته المقابر والمقاصير من تحف أعطى للندن ، وبعد عرضها فى معرض عام قسمت بين متاحف بريطانيا والكومنولث

وعلى بعد ثمانى كيلو مترات جنوبى أسوان ، كانت جزيرة (فيله) وماعليها من أبنية – قبل بناء الخزان فى بداية هذا القرن – تحيط بها أشجار النخيل والنباتات الخصبة ، بحيث كانت من غير شك من أجمل المناظر فى العالم كله .

وقد استقر الرأى فى سبتمبر ١٩٦٨ على نقل معابد (فيله) إلى جزيرة (أجيلكه) – التى تقع على جانبها الغربى – بعد تسطيحها ، وزيادة مساحتها – مصر وبلاد النوبة ص١٠١ – ١١٩ .

* نكتفى بهذه الإشارة إلى ما أصاب الآثار المصرية من سرقات (مشروعة) ومباركة من الحكومة المصرية ومن اليونسكو ، وغير مشروعة ، وإن كان الانتهاك الأكبر لتاريخ النوبة هو فى إغراق أرض النوبة جميعا ، بالرغم من معارضة كثير من الخبراء المصريين الذين سبقوا إلى دراسة بناء السد العالى وسلبياته قبل سنين من قيام ثورة ١٩٥٢ ، ولولا أن (الثواربنى الثوار) لم يكونوا يجرءون على التراجع عن قرار ، ولو كان فيه القضاء على خصوبة أرض مصر التى حرمت من مواد الإخصاب السنوية التى يحملها الفيضان ، وكانت هناك بدائل فى فرع جديد للنيل يشق وادى الواحات إلى منخفض القطارة ، ويروى أكثر من ثمانية ملايين فدان [1] ، بالإضافة إلى مزيد من السدود على المجرى الأصلى لنهر النيل .

ومما يدل على التفريط فى الآثار المصرية خارج النوبة والأقصر والجيزة هذا البيان الذى قدمه الأستاذ سليم حسن (مصر القديمة جـ ٥ ص ٣٤٧) عن مصير لوحات تل العمارنة :

---

(١) أخيرا أخذنا نعمل على تعمير (الوادى الجديد) عن طريق قناة توشكى !!

١٩٤ لوحة فى متحف برلين
٥٠ لوحة فى متحف القاهرة
٧ لوحات فى متحف اللوفر
٤ لوحات فى حيازة روستوفيتز
١ لوحة عند أوبرت
١ لوحة فى متحف بروكسل

٨٢ لوحة فى المتحف البريطانى
٢٣ لوحة فى متحف (أشموليان)
٨ لوحات ملك جمعية الحفر الإنجليزية
٢ لوحتان فى متحف متروبوليتان
١ لوحة فى متحف القسطنطينية

وهذا بيان تقريبى ، لأن اللصوص لايكشفون عن جميع أوراقهم ، بل كثيرا مايخفون عن شركائهم كثيرا من الأسرار ، (ويابخت من بات مغلوبا) !! .

٢٦ أغسطس ١٩٩٥

الفهـرســــت

الصفحة

مصـــــادر ومــراجـــع

١ - معالم التاريخ الإنسانية - هـ.ج . ويلز ٤ مجلدات
٢ - قصة الحضارة - ول ديورانت ٤٢ جزءاً
٣ - مصر القديمة - سليم حسن ١٦ مجلداً
٤ - الأدب المصرى القديم - سليم حسن جزءان
٥ - مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة - طـه باقـر مجلدان
٦ - مختصر دراسة التاريخ - توينبى ٤ أجزاء
٧ - فجر الضمير - بريستيد
٨ - الغصن الذهبى - فريزر
٩ - الفلكلور فى العالم القديم - فريزر
١٠- كتاب الموتى - والسن بدج
١١- فكرة القانون - دينيس لويد
١٢- البدائية - أشلى مونتاجيو
١٣- الحياة اليومية فى مصر فى عهد الرعامسة - بيير مونتيه
١٤- الموتى وعالمهم فى مصر القديمة - م.ج . سبنسر
١٥- ديانة مصر القديمة - أدولف إرمان
١٦- مصر الفراعنة - ألن جاردنر
١٧- مصر الفرعونية - أحمد فخرى
١٨- أساطير العالم القديم - صمويل كريمر
١٩- شخصية مصر - جمال حمدان
٢٠- تكوين مصر - شفيق غربال
٢١- مصر ورسالتها - حسين مؤنس
٢٢- صناع الخلود - موريس بيربراير
٢٣- على هامش التاريخ المصرى القديم - عبد القادر حمزة
٢٤- المعتقدات الدينية لدى الشعوب - جفرى بارندر
٢٥- آلهة مصر - فرانسوا دوماس
٢٦- مصر وبلاد النوبة - وولتر إمرى

٢٧- الفلسفة الشرقية	- محمد غلاب
٢٨- التشريع والقضاء فى العهد الفرعونى	- عطية مصطفى مشرفة
٢٩- تاريخ الكتاب	- ستيبتشفيتش
٣٠- أبو الأنبياء	- العقاد
٣١- اللّه	- العقاد
٣٢- حضارة مصر	- سليمان حزين
٣٣- أخناتون	- فؤاد شبل
٣٤- أبو سمبل	- محمد فتحى عوض اللّه
٣٥- نشأة الكون ووحدة الخلق	- محمد فتحى عوض اللّه
٣٦- أهرام مصر قلاع لاقبور	- زهير على شاكر
٣٧- الجزيرة المسحورة	- منير مجلى
٣٨- الأعمدة السبعة للشخصية المصرية	- ميلاد حنا
٣٩- حياة الروح فى ضوء العلم	- إدمونت سينوت
٤٠- رمسيس الثانى	- كنت أ. كتشن
٤١- تاريخ مصر	- جيمس بريستيد
٤٢- كنوز الفراعنة	- ت.ج. هـ. جيمس
٤٣- التراث المسروق	- جورج جيمس
٤٤- تقدم الإنسانية	- جوردون تشيلد
٤٥- فى العقائد والأديان	- محمد جابر الحينى
٤٦- الديانات القديمة	- رشدى عليان
٤٧- مجلة الهلال	- عدد مايو ١٩٩٧ سيد كريم

رقم الإيداع : 1721 / 99

الترقيم الدولى : 977-5936-00-4